مدن لها تاريخ

بقلم

مصطفى نبيل

الغلاف للفنان

حلمى التونى

المقدمة

ليس هذا مجرد كتاب رحلات ، وإن قمت خلاله بجولة في عواصم خمس هي المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة واستانبول ، كانت كل منها مستودع الحضارة العربية ، أسعي للإلمام بشتات أحداث أربعة عشر قرنا ..

إذن .. هي رحلة في الزمان والمكان معا ، في كل من الجغرافيا والتاريخ ، في ماضي من أجل المستقبل .

وما بين دفتي الكتاب قصة رحلة طول كل منها مدينة وعرضها زيارة وهي قصة شيقة وجذابة ، وهي سياحة دليلها التاريخ ، وجغرافيا بلا خرائط ، وعمارة بلا لوحات، وسياسة بلا شعارات .

ولا أزعم أنه كتاب في التاريخ ، وإن كان التاريخ أهم عناصره ، وليس مجرد استعراض للآثار الإسلامية إلا باعتبارها رموزا لمراحل ازدهار الشرق، وهو مزيج بين الصور والأفكار ، بين الحركة والثبات .

يقدم الكتاب عرضا انتقائيا لأربعة عشر قرنا هي تاريخ الشرق، في تناول أردته جديدا ، وفي اتجاه جديد - كما آمل - سواء في الشكل أو المضمون ، ففي الشكل هو رحلة في المكان بين عواصم الإسلام ، وفي المضمون محاولة

الغوص في الزمان العربي ، وتقديمه للقارئ سهلا ميسرا ، يري التاريخ من خلال شواهد وآثار مازالت باقية ، فمهما قدمت الأسفار من معلومات فإنها أقل مما تحدثنا به الأطلال .

والمدن الخمس ليست مجرد حقائق جغرافية ، بل تظهر فيها علاقة الحجر بالبشر ، وتشمل موضوعات مثل التاريخ والاجتماع والفكر والادارة والعمارة ، فكما هو معروف ترتبط المدن ، وبالتحديد المدن الكبري بالازدهار الثقافي ، وتاريخ الفكر في حقيقته هو تاريخ بعض المدن ، وهي تلك المدن التي يقصدها طلاب المعرفة ، الذين ربما يستقرون ويقيمون فيها للبحث والدرس والتأمل .

وهي تتناول مجموعة مترابطة من المدن ، في رحلة أشبه برحلة تقصي حقائق ، في مدن تختزل أحداث العالم الإسلامي كله ، وتعكس تركيبه الداخلي ويظهر الدور السياسي للإسلام كما كان ، بآفاقه وحدوده بعيدا عمّا يحاوله البعض من تحريف أو استغلال .

فالمدن التاريخية حتي وإن تدهورت تظل تحتفظ بقيمها وقلاعها وآثارها ، وهي تختلف في روحها عن مدن كبيرة أخري بلا تاريخ ، لذا أخذت أنقب في كل منها عن العلاقة

بين المكان والجماعة التي سكنته وعمرت مبانيه وشيدت آثاره وتحركت في دروبه .

وهناك مدن تاريخية كبري لم أتناولها لأنها خارجة عن سياق هذا الكتاب مثل القدس والقيروان والكوفة .

ويمدنا البعد التاريخي بالضوابط العامة للحركة - ولا أقول القوانين - التي لا يمكن استخلاصها إلا من خلاصة التاريخ .

ومن يتأمل حياة هذه المدن، يلحظ أنها تمثل أهم مقومات النهضة والحيوية ، ففيها الدعامات الفكرية التي قامت عليها الحضارة العربية ببعدها الإنساني ، وما تمتع به في مرحلة نهوضها بروح الاستكشاف والاقتحام التي مازالت حتي اليوم تلهم الوجدان العربي ، ويلمح في ذات الوقت جرثومة الانهيار في مراحل التعصب والحروب الأهلية والصراعات القبلية .

ومن الظواهر الملفتة مكانة المدينة العربية في الحضارة الإسلامية ، التي لم يقتصر خلالها دور العرب علي إعادة الشبكة القديمة من هذه المدن، بل أضافوا إليها ، وأقاموها علي قيم جديدة ، وأعطي الإسلام مدنه طابعاً خاصاً وشخصية مميزة . .

وكثيرا ما انتصرت التقاليد الشائعة علي الأفكار الجديدة، فمثلا كان كل حاكم أو أسرة حاكمة ذات أصول

عشائرية تسعي إلي نقل العاصمة القديمة ، كما جري عند الانتقال من الفسطاط (الخيمة) إلي القطائع إلي العسكر ثم إلي القاهرة .

●●●

فالكتاب وموضوعه يقوم علي عدة جولات قمت بها خلال عملي الصحفي ، ورجال إلتقيت بهم ، وكتب رجعت إليها ، علي مدي زمني امتد طويلا ، اختمرت في ذهني خلاله ضرورة البحث عن رؤية متكاملة لما جري للشرق ، وكيف تحولت هذه المدن الخمس التي كانت عواصم لمجد تاريخي ، من المركز إلي الهامش ، من القوة إلي الضعف، ومن العطاء إلي الاستهلاك . مما يقتضي إعادة قراءة التاريخ ، ليس فقط بنظرة نقدية ، بل واستخراج المنطق الذي حكم وقائعه ، واستخلاص الضوابط والعبر التي تحكم حركته .

ويمكن إبداء الملاحظات العامة التالية :

● تاريخ القرون العشرة الهجرية الأولي في العالم يكاد يكون هو تاريخ عواصم الإسلام ، وربما يتفاوت دور كل منها ، ولكنها جميعا مراحل متتابعة ، حملت كل منها مشعل الحضارة الإنسانية وأوصلته لغيرها ، ويعكس تراكمها ما قدمه العرب للعالم .

وبدأت هذه المرحلة بفجر الإسلام التي امتدت من سنة ٦١٠ وحتي ٦٣٢ م ، ثم عصر الخلفاء الراشدين من سنة ٦٣٤ حتي ٦٦٠ م (١٠ – ٤٠ هـ) ، كانت خلاله المدينة هي مركز الدعوة الإسلامية ومكة نقطة انطلاقها ، وبعدها جاءت الخلافة الأموية من سنة ٦٦١ إلي ٧٤٥ م (٤١ – ١٢٧ هـ) وعاصمتها دمشق، وجاءت بعدها الخلافة العباسية من سنة ٧٥٠ إلي سنة ١٥١٦ م ، (١٣٢– ٩٢٢ هـ) ، وقامت خلالها الدولة الفاطمية في القاهرة التي حكمت مصر والشام من سنة ٩٦٩ إلي ١١٧١ م؛ (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ، أعقبتها الدولة المملوكية في القاهرة من س ١٢٨١ – ١٥١٧ م (٦٨٠ – ٩٢٢ هـ) .

ثم خرجت العاصمة من بلاد العرب وانتقلت الخلافة إلي العثمانيين الاتراك بدءاً من سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) وعاصمتها استانبول، وانتهت بإلغاء الخلافة علي يد كمال أتاتورك في العصر الحديث.

● ارتبط الازدهار بالسماحة ، وارتبط التدهور بالتعصب، فانتعشت الدولة التي كان يتمتع رعاياها بحقوق متساوية، وعانت وتدهورت مع التناحر بين الطوائف

والاعراق ، وعندما قامت الحواجز بين المواطنين والتي تؤدي عادة إلي العزلة مع الخارج ، فالتفاعل الحضاري هو سر النهضة ، والعزلة هي سر الخمول والتأخر .

● نادت الدعوة الإسلامية الجديدة بمجتمع مدني ، يكون الحاكم فيه مسئولا أمام المحكومين ، فلا كهانة في الإسلام ، وعندما اختلط الدين بطموحات الحكام ونصبوا أنفسهم أوصياء عليه ، عندها بدأ منحني التدهور .

● ويلاحظ في حركة العاصمة وانتقالها من مدينة إلي أخري أنه تحرك للوسط الجغرافي للدولة الإسلامية ، فمع اتساع هذه الدولة وامتدادها شمالا ، انتقلت من المدينة إلي دمشق التي تحد .د فيها الوسط الجغرافي ، وتقع العاصمة الجديدة علي حدود بادية العرب ، وكانت الخلافة الأموية انحيازا للعرب ، أما بغداد عاصمة العباسيين فكانت قريبة من فارس ، وقامت بعد وصول الإسلام إلي المناطق الشرقية من آسيا ، وفتحت هذه البلاد أبوابها للمسلمين جميعا من جنسيات متعددة، ومع انتقال طرق التجارة إلي العراق . كان منطقيا أن تنتقل العاصمة علي محور يمتد من خليج البصرة إلي الموصل .

ومن أسباب النهضة ، نقل العلوم والفنون والآداب من الثقافات المختلفة إلي اللغة العربية ، وتبادل النفوذ في الدولة الجديدة العرب والفرس والترك .

وأخيراً انتقل الوسط الجغرافي إلي القاهرة ، التي غدت الوسط الجغرافي العربي ، والتي قامت بعبء الدفاع عن المنطقة العربية ضد الغزاة من المغول والصليبيين . وزادت أهميتها توسطها جغرافياً مع تصاعد الاتجاهات القومية ، فهي بلا منازع الوسط الجغرافي العربي .

● تظهر الجولة بين هذه العواصم التراث الحضاري المشترك ، الممتد زمانا علي مدي قرون ، والممتد مكانا من دمشق إلي بغداد إلي القاهرة ومن المدينة إلي إستانبول .

كما تظهر أهمية المحور الرئيسي الذي يضم القاهرة ودمشق والجزيرة العربية ودوره في الدفاع عن الدول العربية .

● وتؤكد التجربة التاريخية فشل صراع الحضارات في إقناع الشرق بأنه خلق ليستهلك الحضارة ولا يساهم فيها ،

ولم ينجح الغرب في أن يفرض علي العرب أن يطيعوا السادة ولا يمارسون السيادة في أوطانهم .

ومسألة انهيار الدول أشد وضوحا من ارتقائها ، ويخبرنا تاريخ أي مجتمع ، أن بداية الانهيار عندما تتحلل النخبة الاقلية المبدعة ، وتصبح أقلية مسيطرة ، وتسعي إلي التمسك بمركز لم تعد تستحقه ، وتحافظ عليه عن طريق القهر والعنف ، عندها يبدأ الانهيار .

وشغلت قضية قيام وانهيار الدول الكثير من المؤرخين ، ومنهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، وأطلق علي كتابه «كتاب العبر» ، وقدم دراسة عميقة لتجربة الدول الإسلامية ، وتناول عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي والعصر العباسي وتاريخ الفاطميين .

واستهدف ابن خلدون من مقدمته الغوص في الظواهر الاجتماعية وكشف قوانين حركتها ، أي الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بالنتائج والتي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال ..

وبذلك وضع في الفكر العربي القضية وبقي متابعتها والوصول بها إلي نتائجها .

وآثار القضية إدوارد چيبون عندما زار روما وتأمل آثارها وفكر في الكتابة عن «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» ، ورأي أن الامبراطورية الرومانية في عصر أفولها كانت تمثل الضعف والبؤس ، وشهدت الحروب الأهلية بعد سقوط نيرون ، ومرت بالطغيان في أعقاب عصر أوغسطس ، ورأي أن غياب الحرية هو المسمار الذي دق في نعش الامبراطورية ، ومن أهم مظاهر السقوط عندما يقيس حكام روما عظمتهم بمقياس الطاعة الذليلة التي فرضوها علي شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الذل يضعف كل ملكات العقل ويورثه الانحطاط .

ويصف آليات السقوط قائلا .. «كانت الحكومة الرومانية تبدو كل يوم أقل بأسا في نظر أعدائها ، وأكثر ظلما في نظر رعاياها .. وكلما ظهرت الحاجة إلي التوفير زاد الإسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم ، وألقوه علي كاهل المستضعفين والفقراء .. وإذا بقيت روما ، فإنها ظلت قائمة علي أنقاض كل من الحرية والفضيلة والشرف ..»

ويري أن العصر الذي بلغت فيه أحوال الانسانية الازدهار والسعادة هي الفترات التي سادت فيها الحرية والفضيلة . والعكس وتعاني الإنسانية من الشقاء عندما تسقط الامبراطورية بين يدي فرد واحد ، فيصبح العالم بأسره سجنا كئيبا لأعداء هذا الفرد ..

وتظل تجربة سقوط الامبراطورية الرومانية الحدث التاريخي الفذ الذي يوليه مؤرخو الغرب اهتمامهم ، وقد أشبعوه بحثا وتدقيقا يبحثون عن العبر والدروس حتي لا يتكرر السقوط ..

ويجد أولئك الذين يعيشون وسط مدينة متداعية في قصة اضمحلال الامبراطورية الرومانية مادة غنية للمقارنة.

ويري أرنولد توينبي .. «أن انهيار الحضارات يأتي من نضوب الطاقة الإبداعية عند النخبة وعزوف الأغلبية عن محاكاتها ، وفقدان الوحدة الاجتماعية لأبنائها ، وينفي فكرة الانهيار نتيجة الشيخوخة .» وينفي تأثير الضربات والضغوط التي تأتي من الخارج ، فالعامل الخارجي عامل استثارة وتحد وليس عامل تدمير ، ... فإذا كان قبس

الطاقة المبدعة مايزال حيا ، فأقصي ما يقدر عليه عدو أجنبي ، لا يعدو توجيه ضربة الموت لمجتمع ينتحر ويلفظ أنفاسه الأخيرة » .

إذن فالعودة للماضي ليست مجرد زيارة للتاريخ ، ولا هي لمجرد الفخر بماضٍ تليد ، فهذا كله لا يعنيني إلا بقدر ما يصب في نهر الحاضر والمستقبل . وما أهدف إليه .. كيف تكون الجولة في عواصم الشرق الخمس دليلنا إلي المستقبل .

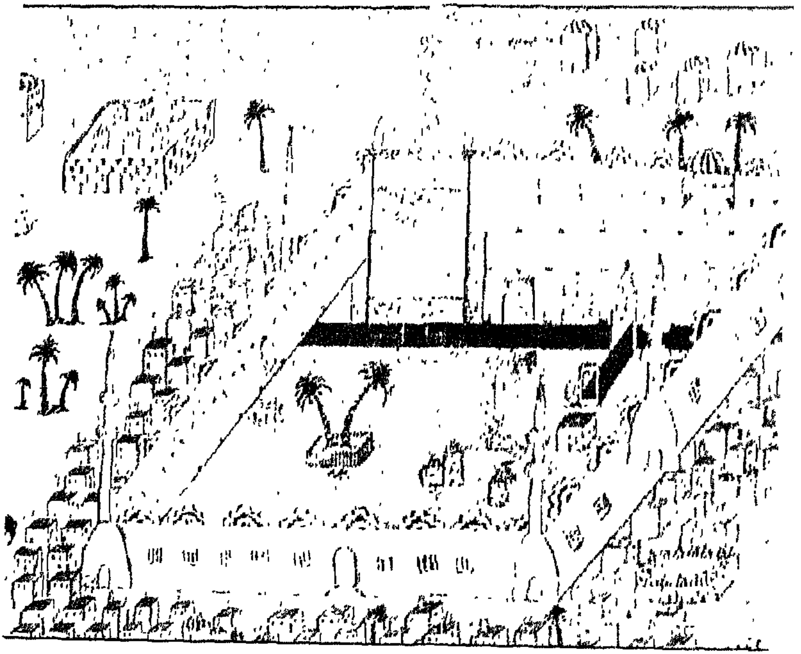
وتصوري أن التجربة الانسانية لا تنقطع ، وحركة التاريخ لا تمضي في فراغ ، وعلينا أن نمسك بالدروس والعبر التي تستحق أن نراجعها ونستخلص منها ما ينفع في المقبل من الأيام .

فأحداث التاريخ التي وقعت لم تهبط علينا فجأة ، والتحولات التاريخية الكبري لا تقع صدفة ، وانما تأتي بعد التغيرات الكمية التي تتحول الي تغير جوهري يختلف خلاله ما جاء عمّا كان .

وحان الوقت لكي يعطي المؤرخون العرب الكثير من لاهتمام لا لقيام وازدهار الدول الشرقية ، وإنما لأسباب لسقوط والانهيار .

وسيصيب هذا الكتاب الهدف ، إذا جاء حافزا الي المزيد من الدراسات ، وأن يكون منشطا للذهن ، ومحركا للعقل ، رافضا الإذعان للأمر الواقع ، ورافضا الاستسلام لأى شيء علي علاته .

فالحضارة العربيه تقف علي مفترق طرق ، إما أن تتجدد وإما أن تندثر .



هكذا كانت البداية مع فجر الإسلام: الجامع فى الوسط، تحيط به البيوت وبعدها النخيل والتلال (لوحة لفنان فارسى)

الفصل الأول

المدينة المنورة

من مكة إلى المدينة المنورة كانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت رحلتى إلى أول عاصمة للإسلام المدينة المنورة .

من المدينة المنورة انطلقت الدعوة . ومن هنا بدأ التاريخ الإسلامى . وهنا ولدت الدولة الاسلامية ، وهنا دفن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقامت العاصمة الأولى لدولة الإسلام .

لقد احتضنت المدينة الدعوة الجديدة ، ووصلت معها إلى النصر ، وخرج منها الاسلام الى العالم قوة سياسية وحربية وعقيدة ونظاما متكاملا ، وتحت لوائها توحدت الجزيرة العربية وانتقلت من كونها تعبيرا جغرافيا لتصبح أمة فتية واحدة ، وبدأت داخلها أول محاولة لتنظيم الجماعة العربية على أساس العقيدة وليس على أساس القبيلة ، وبها بعث العرب قوة محركة فعالة ..

ألحقت الدعوة الجديدة الهزيمة بأعظم الامبراطوريات المسيطرة علي العالم ، الفرس والرومان ، وانضوت تحت لوائها مصر والشام والعراق وفارس ، تم هذا كله فى فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز أربعين عاما ، كانت «المدينة» فى أثنائها العاصمة والمركز والقلب لكل هذا المجد التاريخى

وما زالت هذه المرحلة المتألقة حلم البشرية جميعا ، عندما تحقق العدل والمساواة والاخاء وتحرر الانسان من كل أنواع القهر والاستغلال، بدأها النبى صلى الله عليه وسلم وتبعه الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى «جمهورية» قائمة على الشورى ..

ويعود كل مجد «المدينة» وحتى اسمها للدعوة الاسلامية ، فقد كان يطلق عليها «يثرب» وتحولت بعد الهجرة إلى «مدينة رسول الله» ، وإذا تقلص اليوم دورها السياسى ، ولم تعد عاصمة ، فستبقى مكانتها سامية على مر الأيام كمثوى لرسول الله ، تهوى اليها الافئدة من مشارق الأرض ومغاربها ، وتستمر تاريخا محفوظا متجسدا ، يقصدها الحجاج والعديد من الكتاب والباحثين فى السيرة النبوية وعلم الحديث ، وتناولها عدد كبير من المؤرخين والرحالة الذين يتابعون خطى البشرية وعلاماتها ..

وقد عاش النبى منذ بدأ الرسالة وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثا وعشرين سنة هجرية ، قضى منها ثلاث عشرة فى مكة وعشر سنوات أخرى حاسمة فى المدينة ، وكل أحداثها مدونة ومسجلة . ويذكر شبلى نعمانى - أحد أبرز المفكرين المسلمين فى الهند - .. «انه الى يوم الدين لن يستطيع أحد أن ينافس المسلمين فى فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادثة فى حياة الرسول ، بطريقة دقيقة واعية ، لا يصل الى مستواها تسجيل حياة أى انسان أخر من قبل ، ولا يمكن أن ننتظرها من بعد ، ومن أجل تسجيل هذه الحياة بأدق تفاصيلها ، سجل العلماء أسماء وأوصاف ثلاثة عشر ألف صحابى فى وقت كان فجر نظام التأليف» .

مدينة رسول الله إذن هى موضوع جولتنا ومحل حديثنا ، جولة داخل شوارع المدينة وأزقتها ، نتوقف عند كل أثر له دلالة تاريخية ،

وجولة أخرى عبر الصفحات والكتب التى أرخت للدعوة وللبلدة وما أكثرها .. بل أنها فى الحقيقة جولة خلال «الحلم الانسانى» الذى يستمر المثل الاعلى لعدد من المفكرين الداعين الى صحوة عربية ..

على مشارف المدينة

عندما اقتربت السيارة من مدينة رسول الله ، سبقها خيالى ، يرسم صورة ترسبت في الوجدان من مطالعات فى التاريخ والتراث ، نقترب من البلدة وغلالة من البهاء والرونق تلقى بظلها على المكان ، وكانت لحظة تأمل تجمع فيها التاريخ ، ومن حولك الجبال والوديان والحدائق الوارفة ، ومن بعيد ترى القبة الخضراء ومآذن المسجد النبوى الاربعة ، وكانت الرحلة التى تثير فى النفس من صور الجهاد ومغالبة المصاعب ما لا تثيره رحلة أخرى .

ولحظة دخول المدينة المنورة من اللحظات المؤثرة التى سجلها عد من زوارها على مر الأيام ..

تناولها محمد حسين هيكل فى مطلع هذا القرن : «القبة أمامى تقوم حولها المآذن وترتفع في الجو وتحيط بها قباب أصغر منها حجما ، القبة منارة القبر الذى يثوى فيه رسول الله ، أوليست المدينة هى التى أوى إليها فنصرته من يوم هجرته الى أن اختاره الرفيق الأعلى ..»

وذكر ابن جبير : «من البيداء تبصر المدينة المكرمة ، ويظهر للعين منارة مسجدها بيضاء شامخة ..»

ويقول القزوينى : «الداخل اليها يشم رائحة الطيب ، وللعطور رائحة لا توجد فى غيرها» .

ويصفها المستشرق جون كين عام ١٨٧٧م .. «إن المدينة عندما تشاهد من بعيد أول مرة يمكن أن تقارن باستانبول حينما ننظر إليها من بحر مرمرة ، وحينما تلوح فى الأفق للحاج المتعب القادم اليها ، بمنائرها العديدة ، والشمس تشرق عليها فى الصبح ، وبنطاق زرعها العريض الاخضر الذي يحيط بها فيحجزها عن جدب الصحراء المخيف المترامى ، تبدو كأنها جوهرة محاطة بفسيفساء من اللؤلؤ المطعم فى حاشية متألقة من الميناء الخضراء اللماعة ..»

ويصفها البتانونى فى الرحلة الحجازية .. «المدينة مبنية فى وسط واد شاسع يمتد الى الجنوب وأغلب مبانيها من الحجر المجلوب اليها . وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة ، وكانت مشرق النور الاسلامى الذى امتد منها الى بقاع الارض ..»

وتمتد وقفة التأمل ، وأتساءل : هل يلقى موقع المدينة و جغرافيتها ضوءا على دورها التاريخى المتميز ..؟ والجغرافيا هى خشبة المسرح التى جرت عليه فصول التاريخ .

ماذا تقول جغرافيا وطبوغرافية المدينة .. ؟

هى موقع حيوى وموضع خصيب ، تتوسط الكتلة المعمورة فى المنطقة التي تتركز فيها الحياة البشرية فى الحجاز ، الذى يحجز

سهل تهامة ' عن مرتفعات نجد ، ويرتفع فوق سطح البحر أكثر من ستمائة متر ، وجوها أقرب الى الاعتدال ، وموقعها موقع واحة استراتيجية ، وهى مدينة قوافل تتصل ببادية نجد من الشرق ومنها الى العراق وتتصل بالبحر الاحمر من الغرب ، وتقع على طريق القوافل بين اليمن والشام ، وكانت بحق بوابة الجزيرة العربية – الشام ، كما تقع فى نهاية وادى القرى وبداية وادى العقيق . وبالقياس الى مكة فهى واحة كبيرة المساحة تطوقها الحدائق ، ومحصنة طبيعيا ، واحة خصبة تحيطها الجبال على شكل «حدوة الحصان» تتجه فتحتها الى الجهة الجنوبية الشرقية وتقع على هضبة أواسط الجزيرة العربية ، جبل «أحد» عند شمالها الغربى ، الذي شهد إحدي المعارك الفاصلة فى الإسلام ، ومازال قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فى ذات المكان الذى سقط فيه شهيدا ، والى جانبه جبل عسير الذى يبعد أربعة أميال عن المدينة ، ويحد السهل من الشرق والغرب «الحرات» أى البقع البركانية والمغطاة بالبازلت الاسود التى تبعد مسافة طويلة عن البلدة لتمتد البقعة الخضراء من الأرض الخصبة ، وتتوفر فيها المياه المتجمعة من الجنوب ،وتغذى طبقة المياه الجوفية وتكثر فيها الينابيع والعيون ..

ومجمل القول أن المدينة في موقع متوسط ، مدينة قوافل ، محصنة طبيعيا ، واحة خضراء وسط البيداء ، ميسور تواصلها مع العالم الخارجى ، ولعبت هذه الصفات دورا بارزا في تاريخها عندما كانت المدينة الموقع والبشر طرفا مباشرا فى الوقائع التاريخية ..

أول مسجد

تواردت هذه الصور وتتابعت عندما كنت في طريقي نحو المسجد النبوى ، استوقفني مرافقي عند مسجد قباء ، أول مسجد أقيم فى الإسلام «مسجد أسس على التقوى» . إن أى مكان فى المدينة يروى قصة الهجرة النبوية الشريفة ، البقيع مقبرة صحابة رسول الله وجبل أحد والعقيق وحدائقه الغناء من حوله ، وضاحية قباء أول موضع وصل إليه الرسول في المدينة ، فبعد أن واجهت الدعوة الجديدة الاضطهاد والعنت من قريش فى مكة ، هاجر عدد من أصحاب النبى الى المدينة ، وفى خريف نفس العام ٦٢٢ م هاجر النبى وصاحبه أبو بكر وأقاما فى غار ثور ثلاث ليال ؛ وكادت قريش تصل اليهما ، وفزع أبو بكر وقال له الرسول .. «ماظنك باثنين الله ثالثهما ..» ونزل القرآن .. «إلا تنصروه فقد نصره الله . اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ..» ، وبعد عشرة أيام وصل الرسول وصاحبه الى مشارف يثرب يوم ٢ يوليو عام ٦٢٢م وكان أول مقامه فى ضاحية قباء ، ومكث خمسة أيام قبل الانتقال إلى وسط المدينة واستقبله أهل يثرب استقبالا حارا ، وفى باطن المدينة أقام فى دار أبى أيوب الانصارى وبنى بيته الذى يتألف من عدد من الغرف تحيط بفناء جدرانه من اللبن ، وسقفه من الخوص والجريد ..

أول قاعدة للاسلام ..

وما أن استقر المقام برسول الله حتى شرع في تنظيم الجماعة الاسلامية ، أرسى أسسها عن طريق التربية والايمان والعمل المشترك، وقام المجتمع فوق قطعة من الأرض محررة من العسف والقهر ، وأتت الجماعة من الممارسات ما يؤكد صدق ما ذهبت إليه ، وبينما كانت المدينة تتسع ، وتتصل القرى الصغيرة بعضها ببعض ، أخذ يتكون جيل مؤمن على أساس من العقيدة الصادقة ، وتحول الاوس والخزرج المتصارعان دائما وأصبحوا جميعا «الانصار» الذين نصروا النبى ودعوته ، وتحول المهاجرون والانصار بعد فترة وجيزة وأصبحوا جميعا «صحابة» رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبينما كانت الأرض تزرع والمساجد تقام ، بدأت مرحلة الجهاد التى يطلق عليها فى كتب السيرة «المغازى» ، والتى أقامت دعائم القاعدة الرئيسية للاسلام .

واذا تأملنا المعارك التى خاضها المسلمون من المدينة ، تبين أهمية موقع المدينة التى اختارها النبى ، فكانت موقعة بدر أول معركة فى الاسلام تهدف الى قطع الطريق على تجارة قريش التى تمر على مقربة من المدينة ، مدينة القوافل ، وهى المعركة التى أعلت شأن الاسلام، عندما غلبت «فئة قليلة فئة كثيرة» ، وقد مررت بالموقع الذى شهد هذه المعركة فى طريقى الى المدينة ، التى أقيم عند مدخلها مقبرة شهداء بدر، وتنتشر حولها بعض المبانى لاستقبال الزائرين ، واقيم فى مكان العريش الذى بناه المسلمون لرسول الله مسجد يسمى مسجد العريش،

وكانت العلامة الثانية فى تاريخ الاسلام ، موقعة أحد ، والتى كانت إصرارا من قريش لفتح الطريق أمام تجارتها ، ودحر الدعوة الجديدة ، ولم تحقق قريش أهدافها رغم الخسائر التى منى بها المسلمون والشهداء الذين سقطوا ، ولم يفتح طريق الشام ، وشهد السهل المنبسط هذه الموقعة الحربية شمال المدينة والذى ينتهى عند جبل «أحد» ، ولم يبق لقبة حمزة ولا لمسجده أثر ، بعد أن أقام الوهابيون مكانهما قبرا ..

وبعد فشل قريش فى فتح طريق التجارة ، أخذت تعقد التحالفات مع بقية القبائل لمواجهة خطر انتشار الدعوة الجديدة ، وتجمعت القبائل وسارت الى المدينة فى موقعة الاحزاب ، والتى لعبت «طبوغرافية» المدينة دورا بارزا فى الدفاع ، عندما أمكن سد فتحة «حدوة الحصان» واستخدموا أسلوبا حربيا جديدا أشار به الصحابى سلمان الفارسى ، وحفر الخندق ، وعجزت القوى المهاجمة عن عبوره ، وعاد المهاجمون الي بلادهم مدحورين فى ذى القعدة من السنة الخامسة للهجرة ..

وليس للخندق أثر فى المدينة اليوم ، وإن كان قد حدد بعض الباحثين مكانه ، كما أن الرحالة المغربى ابن جبير وصف الخندق خلال زيارته التى تمت عام ٥٨٠هـ بقوله «غرب المدينة وقبل وصولك للسور بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذي صنعه النبى عند تحزب الاحزاب».

يقول الكاتب السعودى عبد القدوس الانصارى حول الخندق والسور فى كتابه آثار المدينة المنورة «قد عفا أثر الخندق اليوم ولم يبق منه شيء يعرف سوى ناحيته» ، أما السور فقد امتدت المدينة وانكمشت خلال مراحل مختلفة مما اقتضى ان يبنى لها سوران ، ولم يبق أثر لكليهما اليوم ..

أخذت صور التاريخ تتلاحق ، وتسبقنى الى مثوى الرسول الكريم ، حيث يرقد رمز الحرية والمحبة والعدالة ، وقد كانت حياته الحافلة نبراسا ومشعلا ، والذى يأتى المسلمون من كل أنحاء الارض يزورون قبره ويصلون فى مسجده ،

ووقفت وقفة تذكرة وعبرة .

كانت الخطوة الأولى لانشاء الجماعة هى بناء المسجد النبوى ، مركز الجماعة ورمزها والذى كان فى تلك الايام مكانا لمؤتمراتهم ومحلا لتجمعهم ودارا لندوتهم الى جانب وظيفته الرئيسية كمكان للصلاة..

يميل المسجد فى وضعه المتوسط الى شرق المدينة ، وينقسم الى المسجد والصحن وأخيرا مكان متسع غطى بالمظلات لكى يسع المصلين فى أيام الجمع وأثناء الحج ، تشعر أمامه بالطمأنينة والسلام ، أسراب الحمام من حولك ، القبة الخضراء ، والمآذن الأربع آية من آيات فن العمارة ، واكتملت آخر توسعة للمسجد ، والتى انجزت على عدة

مراحل المرحلة الأولى أضافت للمسجد ١٦٣٢٦ مترا مربعا ، واعيد بناء المئذنتين التى يبلغ طول كل منهما ٧٠ مترا ، ثم التوسعة الأخيرة من الناحية الغربية عن طريق بناء مظلات ضمت ٣٥ ألف متر مربع . ثم جاءت الأخيرة وتستوعب العمارة السعودية العمارة العثمانية في مظهر متناغم ، وتظهر بين أبوابه القباب التى ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسى بالمرمر الموشي بماء الذهب ..

وأمام المسجد النبوى أمضى فى رحلة مع الزمان تمتد لأكثر من أربعة خمسة عشر قرنا ..

لقد انعكست على المسجد النبوى الشريف التغيرات والاحداث التاريخية التى شهدها عالم الاسلام ، يظهر معالم ذلك فى تراكم فن العمارة الاسلامية على مر العصور ، لمسات من التاثير من جميع البلاد الاسلامية ، فهذا بساط عجمى ابدع الفنان نقوشه ، وذلك المحراب صنع فى مصر أية فى فن زمان صناعته ، وهذا صممه المهندس التركى سنان باشا ، وعاش الحرم النبوى يروى بشموخه الكثير من وقائع التاريخ ، ويقف ليعرض مسحة الأسى على غياب بيوت المدينة القديمة بعمارتها وتصميمها البسيط ، كما كانت عليه في صدر الاسلام والتى كانت مبانيها من مواد لم تقدر على مغالبة الزمن ، عندما أقام التابعون عند كل مبنى تاريخى أثرا ، يدل عليه أو شاهدا مكانه ، وقدم المسلمون كل براعتهم فى تجميل القباب ، وارسلوا المهندسين والصناع من جميع

ارجاء العالم الاسلامى على توالى العصور ، جاء الوهابيون في مطلع القرن التاسع عشر وأزالوا هذه الآثار وتلك القباب بحجة أنها تتنافى مع جوهر الاسلام وبساطته ، وبقى بناء المسجد الحرام شامخا خالدا ، لا تمسه يد التبديل بل يضاف إليه ..

وفى السيرة وأوصاف الرحالة وحكايات أهل المدينة ، تجميع ورصد لكل ما مر به من تطورات ، والتى تبدأ مع هجرة الرسول الى المدينة، وانتقاله من قباء لدار أيوب خالد الانصارى ، وهناك اقام مسجده واشترك فى البناء بنفسه ، جدرانه من الآجر ، وسقفه من الجريد ، وعمده من أعجاز النخيل ، أقيم على هيئة مستطيل طوله ٧٠ ذراعاً وعرضه ٦٣ ذراعا . وأنشىء الى جواره عريش مغطي بسعف النخيل التى لا تزيد عن ستة أذرع ؛ وكانت بداية هذا المسجد نقطة البدء لعمران المدينة ، وامتد شارع مبلط من غربى الجامع الى جبل سلع وطريق آخر الى البقيع مقبرة شهداء الاسلام ، ومنذ هذا الوقت استمرت عادة العرب اذا اختطوا مدينة أن يبدأوا باقامة المسجد الجامع فى الوسط وحوله دور الحكومة ..

وهذه كانت البداية ..

أيام الخلفاء الراشدين ..

ومع تطور الجماعة الاسلامية ونموها قام عمر بن الخطاب بأول توسعة للمسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة بنفس البساطة وعلى

نسق البناء الأصلى ، وفى خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٧ للهجرة ، زاد عثمان فى الحرم النبوى فى الناحية الجنوبية ، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة ، واستبدل بأعجاز النخيل حجارة ادخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها ، وجعل سقفه من خشب الساج ، وزاد أيضا فى نظام المقصورة التى اتخذها ابن عفان محلا له، والتى مازالت تعرف حتى اليوم بمحراب عثمان ..

أما بيت الرسول فكان الى جوار المسجد ، وانتقل النبى إلى بيت عائشة عند مرضه ، الذى كان مصنوعا من جريد مستور بمسوح الشعر، ويحيط به منازل صحابته ، دار ابى أيوب الانصهارى ، ودار عثمان بن عفان جهة الشرق ، ودار آل عمر بن الخطاب إلي جنوب المسجد ، وجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله ، ثم دار مروان بن الحكم ، وفى غرب المسجد دار أبى بكر ، وشمالها دار عبد الرحمن بن عوف ، وأدى تكرار التوسعة الى إزالة معظم هذه البيوت التاريخية .

وعند انتقال النبى الى الرفيق الأعلى دفن فى بيت عائشة ، وورى الثرى الى جواره أبو بكر بعد عامين وثلاثة أشهر من موت الرسول ، ومن بعد عشر سنين من وفاة أبى بكر دفن عمر بنفس الحجرة، وهى على حالها، وفى العهد الاموى أيام خلافة عبد الملك بن مروان، قام واليه عمر بن عبد العزيز بزيادة المسجد وضم حجرات أزواج النبى، ودخلت

الحجرة النبوية ليضمها المسجد عام ٨٨ هـ ، وأقام ابن عبد العزيز اربع مآذن ، وغطي أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، ولم ينزع حجرا إلا ووضع مكانه آخر ، وعنى عناية فائقة بالمقصورة النبوية ، واتخذ المسجد النبوى صورة أقرب إلى مساجد اليوم ، مع الحفاظ على شكله العام وشخصيته النفاذة .

ثم قام المهدي بن المنصور أيام العباسيين بزيادة المسجد من الناحية الشمالية عند صحن المسجد ، وكانت زيادة بلغت نحو الثلث من مساحة المسجد ، واحيطت بأروقة من العمد والقباب .

وفى زمن العاصفة التى أطلقها التتار وهبت على بغداد حارقة مدمرة ، فى هذا الوقت احترق الحرم النبوى في رمضان (عام ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦م) ، واهتز عالم الاسلام ، بعد أن أتت النار على جميع محتوياته، ولم يسلم منه سوى القبة التى أقيمت لحفظ ذخائر الحرم مثل المصحف الشريف .

وبعد أن تولى الظاهر بيبرس حكم مصر وصد الغزو التتارى ، جهز الاخشاب والحديد والرصاص وأرسل الصناع من مصر الى المدينة وقد أعادوا بناء المسجد على ذات الهيكل ، وأضيفت إليه مئذنة «عالية» .

ومرة أخرى أصابت المسجد النبوى صاعقة عام ٨٨٦ هـ ، وانتقلت النار إلى بقية انحائه ، واحترقت المقصورة والمنبر والكتب المخطوطة

والمصاحف ، وسلم من الحريق الحجرة النبوية والقبة بالصحن ، فوجه حاكم مصر الاشرف قايتباى الامير سنقر الجمالى الى المدينة ومعه الصناع والمواد اللازمة للعمارة ، وأقيمت لأول مرة القبة فوق الحجرة النبوية .

ومما يذكر أن عالم الاسلام قد أصابه الجذع ، وتهيب المسلمون الدخول الى الحجرة الشريفة لاصلاحها ، وثار جدل حاد ، حسمه نور الدين السمهودى الذى قدم من صعيد مصر واتخذ جوار النبى موطنا ، وكتب «وفاء الوفا لحضرة المصطفى» قدم فيه دراسة مدعمة بالحجج الشرعية يطالب فيها بسرعة اصلاح الغرفة «توفى عام ٨٤٤ هـ».

وأيام الخلافة العثمانية قام السلطان سليم بتشييد محراب هو القبلة القائمة الآن غرب المنبر النبوى ، وطعم هذا المحراب بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب ، ثم بنى السلطان محمود القبة ، وكانت العمارة الكبرى التى قام بها العثمانيون هى عمارة السلطان عبد المجيد ، والذى هدم جزءا من المسجد وأقام ما يحل محله ، وتم هذا التجديد عام ١٢٧٧ هـ .

وأضافت هذه العمارة العقود من الحجر الاحمر المنحوت حول محراب عثمان ، وشيدت القباب ذات النوافذ من الزجاج الملون المحاط بشبابيك من النحاس ، وشيدت المئذنة المجيدية على طراز رائع ، وحافظت علي ما كتب على جدران المسجد من سورة الفتح وقصيدة

البردة للبوصيرى ، وأسماء الله الحسنى ، وأسماء الرسول الكريم ، والذي قام به عبد الله زهدى ، واستغرق عشر سنوات فى كتابة سورة الفتح وحدها ..

ويلاحظ أن كل من أضاف لعمارة المسجد قد عمل على الحفاظ علي ما سبقه ، فجاء ممثلا لعصور مختلفة ، ترى ذلك وأنت تطوف فى أروقة المسجد ، زخارفه والخطوط العربية والثريات والبسط ، ووقفت مكانى مأخوذا عند المقصورة النبوية ، وحقا إن وقفة أمام قبره فيها من التذكرة الكثير ، عندما تتذكر جهاده وطريقه ونصره ، والمقصورة آية من جمال الفن الاسلامى ، وإلي جوارها الروضة النبوية المكان الواقع بين الغرفة النبوية والمنبر ، تدخل جموع المسلمين وجموع تخرج فى لحظة تجرد وايمان ، وياليتها تستمر .. !! .

هنا ولد الفن المعمارى بقيام المسجد النبوى ، فهو وان كان بالغ البساطة فى البداية الا ان تصميمه جمع معظم العناصر التى صارت تتكون منها المساجد فيما بعد ، فقبة الصحن والقبلة والمحراب والمنبر هى المكونات الأساسية والمسجد النبوى هو الذى حدد أشكال المساجد التي أقيمت فيما بعد ، ولا غرابة فقد نشأ الفن الاسلامى من فيض الشعور الدينى العميق ، وكانت عمارة المساجد هى أصل الفن المعمارى الاسلامى ، ونشأت الزخارف الاسلامية لزينة النوافذ وتجميل السقوف فى أشكال هندسية ونباتية – للابتعاد عن تصوير الشخوص –

وقدم الخط العربى وسيلة زخرفية جميلة لكتابة سور القرآن الكريم ..

وقفت طويلا فى خشوع أمام المسجد النبوى وداخل المقصورة النبوية ، فهنا تجمع الماضى والحاضر .

الحلم الانسانى

إن تاريخ المدينة غلاب ، وخاصة مرحلة «الحلم الانسانى» ، الذى يمتد زمنيا من عهد الرسول ثم الخلفاء الراشدين من بعده ، التى يحلو لعدد من المؤرخين ان يطلقوا عليه عصر «المدينة الفاضلة» عصر المجتمع الخير الذى حلم به أفلاطون نتبين معالمه ، ذلك العصرالذى حفل بالانتصارات وتميز بشظف العيش وخشونته مصحوبا بالتقوى والبساطة والزهد .

فى هذه المرحلة تزايد إقبال العرب على سكن البلد الآمن فتضاعف سكانه ، وعمرت أراضيه واتصلت أجزاء السهل بعضها ببعض ، واتصلت المدينة بطريق التجارة ، عندما سادت القيم الجديدة وتحولت الي واقع ، وحلت العقيدة محل القبيلة ، وأصبح القائد هو النبى صلى الله عليه وسلم ثم الخليفة ، الذى لم يأت عن طريق الوراثة فالبشر حقا سواسية ، وقام الحكم على اساس الشورى ، وتحقق المثل الأعلى الذي غاب طويلا فيما بعد فى بقاء وحدة الأمة .

وقدمت المدينة عطاء حضاريا وافرا ، عندما كان الخليفة فى المدينة مثل رجل طلب اليه أن يضبط سيلا متدفقا أخذت تتزايد روافده ، وأمر

عمر باحصاء الناس لكى يحسن توزيع ما يأخذون فكان أول احصاء معروف يقصد منه ضبط ما ينفق من موارد الدولة .

وبدأت مرحلة التدوين ، وحفظت فى المدينة المخطوطة الاصلية للمصحف بعد أن كتبت ثلاث نسخ بعث بها الى جيوش الاسلام المرابطة فى دمشق والبصرة والكوفة . وكان أول من بدأها أبو بكر الصديق والذى بقى فى الخلافة عامين وثلاثة أشهر وعشر ليال حكم الامة فيها على أفضل الوجوه ، وأسند ما يتعلق بأموال الدولة الى أبى عبيدة بن الجراح، واسند القضاء والفصل فى الخصومات الى عمر بن الخطاب ، وكان أول من جعل بيتا للمال ، ونشأ علم الحديث على أيدى صحابة رسول الله .

وقدم المجتمع الاسلامى ما يبدو انه قانون صحيح على الدوام ، وهو أن المجتمع «الحلم» ينبغى أن يكون مجتمعا متحركا يقظاً متحفزاً يبنى ويزرع ، وفى نفس الوقت يقدم أفراده عن طيب خاطر حياتهم لاطراد نموه ، ومن أجل انتصار الذين يبنون الحياة فى مواجهة أولئك الذين يهدمون قيم الخير والحب والجمال .

تكونت الجماعة الاسلامية فى العام الاول للهجرة ، وبعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة شملت الجماعة الحجاز وتهامة ، ثم امتدت خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول وضمت جزيرة العرب برمتها وتميزت هذه المرحلة بالقوة والروابط الاجتماعية الحميمة ، وبعد انتقال

الرسول إلي الرفيق الأعلى وفى عهد أبى بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م) ، وصلت الجيوش العربية الحيرة جنوب العراق وبعض مناطق غرب العراق ، ثم فلسطين ، وشهدت موقعة اجنادين بعد أن قضى على الردة ، واتجهت الجيوش لتحمل الدعوة إلى فارس وتواجه البيزنطيين فى الشام ، وبدأت معالم الإطارين السياسى والعسكرى للدولة فى الظهور ، وبعد وفاة ابى بكر تولى عمر بن الخطاب المسئولية (١٣ هـ - ٦٣٤ م) ووضع ضوابط صارمة لضمان سير الجماعة فرفض الاذن للصحابة بالانتقال الى الأمصار ، وحاسب عماله على ما يحصلون عليه من أموال خلال توليهم مناصب عامة ، ولم يسمح لدين غير الاسلام بالبقاء فى جزيرة العرب ، وتكاملت فى عهده نظم الدولة وأدواتها ، وعاشت الدولة ذروة نموها ، ففتحت الشام بعد معركة اليرموك ، وتسلم الخليفة بنفسه «بيت القدس» ، وحقق العرب انتصارهم الكبير فى معركة القادسية ، وفتحت ايران وزالت امبراطورية كسرى وفتح الطريق نحو الشرق ، وانضوت مصر تحت لواء الاسلام ، وبدا انه لا يوجد حد لانتشار الدعوة الجديدة ، وأكمل عمر المسيرة كقائد أحسن توجيه الجماعة .

وتولى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين (٢٧ هـ / ٦٤٤ م) وسارت الجيوش العربية نحو افريقيا ، وخلال عهده ظهرت الفتنة الكبرى وبدأت الثورة عليه فى الكوفة ، وقتل وهو يقرأ القرآن فى بيته

فى المدينة ، فكانت بداية الاختلاف والانقسام فى العالم الاسلامى ، فبعد أن انتقلت الخلافة الى على بن أبى طالب الذى أصبح الشخصية الأولى فى المدينة ، وبويع بالخلافة فى مسجدها فى ٢٤ يونيو عام ٦٥٦م - ٣٦ هـ ، واعترف بخلافته فى كل العالم الاسلامى الا أنه تخلف عن مبايعته طلحة والزبير وعائشة ، وغادروا المدينة الى مكة ومنها إلي البصرة .

وكانت هذه الاحداث التي تتوالى هى نهاية العصر «الجمهورى» الذي تركزت الزعامة فيه في مدينة النبى بذكريات الرسول وروعته وهيبته وعمق أثرها فى النفوس ، وانتهى «الحلم» الى حرب أهلية حول السلطة ، أولا بين على من جانب وطلحة والزبير وعائشة من جانب آخر ثم بين على ومعاوية ..

ولم يكن لعلى جيش فى «المدينة» فغادرها إلى الكوفة فى أكتوبر عام ٦٥٦ بعد أن قضى بها أربعة أشهر ، وفى موقعة الجمل قتل طلحة والزبير وانتقلت الخلافة إلي الكوفة لتنتقل فيما بعد الى دمشق .

وهكذا انتقل دور الزعامة من المدينة الى الأمصار عندما تحرك الوسط الجغرافى الى الشمال مع اتساع الدولة ، واتخذ على بن أبى طالب الكوفة عاصمة له ، وظل عدد من صحابة الرسول فى المدينة ، وتحولت الى مركز للعلم الذى يقصده الاتقياء ، ونقل لنا التاريخ حواراً دار بين على بن أبى طالب وأحد الصحابة الذى ذهب يقنعه بالعدول عن مغادرة المدينة .

قال عقبة بنْ عامر : «يا أمير المؤمنين ان الذى يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله والسعى بين قبره ومنبره أعظم مما ترجو من العراق، فان كنت انما تسير لجرب أهل الشام فقد أقام عمر فينا وكفاه سعد بن أبى وقاص زحف القادسية ، وأبو موسى زحف الاهواز» .

وأجاب على : «ان الاموال والرجال بالعراق ، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها» .

عيون وآثار ..

ومن الماضى الى الحاضر ..

ومن التاريخ الحافل إلى الوضع الراهن ، أرى وأسمع وأتجول مازلت أبحث فى الحاضر ما له علاقة بتلك الأيام المجيدة فتجولت بين مساجد المدينة التى أقيم أغلبها تخليداً لذكرى موقف أو شهيد ، ومعظمها بسيط فى عمارته وما يحتويه ، وأكثرها على نمط المساجد المعروفة فى شبه جزيرة العرب ، والتى لا تزيد على مربع من الارض تحيط به جدران من الحجر ، ويعلوه من ناحية المحراب سقف يستند الى عمد بسيطة ، وفى بعضها تقام الصلاة أحيانا ، فالصلاة دائما فى المسجد النبوى .

وزرت عيونها وأبارها ودورها ، والتى أهمها ما اتصل بحياة الرسول، وحتى اليوم لم تحقق العديد من آثارها الذى يختلف حولها الرواة ، وأصدر الكاتب عبد القدوس الانصارى كتابا حاول فيه جاهدا

يحقق آثار المدينة وسرت فى شوارعها وأزقتها وأسواقها ، أستنشق عبيرها الخاص ومذاقها المتميز . وتلاحظ انها مثل العديد من المدن العربية ذات التاريخ العريق ، تشاهد القديم والجديد جنبا إلي جنب ، تعانى مثل غيرها مرحلة التدهور الذى عانت منه خلال القرون الماضية ، واليوم تفيق وتتعافى ، تحتضن تاريخها وتسعى إلي ابرازه ، مع طاقة على الاستمرار بلا حدود كنواة مقدسة تجذب حولها وظائف متعددة كطلب العلم والتجارة والفندقة والخدمات التى يحتاجها قاصدوها ، رغم انها تجذب الذين لا يقيمون وزنا للمباهج ، الذين يكرسون حياتهم للعلم والمعرفة فى جوار مثوى رسول الله ، ويشد اليه الرحال الباحثون عن الحقيقة ، يعايشون المكان الذى شهد فجر الاسلام ، ومع توالى السنين تفردت بتكوين سكانى خاص وتراكم حول مسجدها المجاورون لقبر رسول الله ، فعاش الى جانب أهلها جنسيات اسلامية من كل أرجا العالم الاسلامى ، ولم تغب هذه الملاحظة عن الرحالة السويسرى بورخارت الذى سمى نفسه الشيخ ابراهيم الشامى، وذكر ناشره «إتقانه للغة العربية ساعده على تقمص دور المسلم» والتى ذكرها عام ١٨١٤ م بقوله «ان أهل المدينة أكثرهم من الغرباء الذين تجذبهم قدسية البلدة ، من جميع انحاء العالم الاسلامى وليس بها سوى أقلية محدودة من نسل الانصار . ومن بين الاسر القديمة أسر تنحدر بنسبها إلى نسل العباسيين، وعدد من الشرفاء الذين يمتدون الى الحسينيين» .

حجم سكان المدينة

وانبسطت المدينة وانقبضت بالنسبة لحجم سكانها ، فكان
مطلع هذا القرن تفوق فى حجم السكان أى مدينة عربية أخر
شبه الجزيرة العربية ، أكبر من مكة وجدة والهفوف وأيضا ا
وعدن، أيام عمل خط حديد الحجاز ، أما اليوم فيبلغ عدد سكانه
١٠٠ ألف، وتفوقها كل من مكة التى تقترب من المليون ، والرياض
وصلت الى مايزيد عن المليون نسمة ، وانتقل مركز الثقل من ال
على ساحل البحر الاحمر الى المنطقة الشرقية على الخليج بعد
الذهب الاسود . وتقوم اليوم بوظيفتها الدائمة كنواة دينية عندما
فى جامعتها الاسلامية المسلمون من كل الجنسيات يدرسون
وأصول الاسلام، أو عندما يقصد زوارها مكتبتها الزاخرة ب
والمخطوطات القديمة . ويبقى المسجد النبوى الشريف عصب ا
يدور فى فلكه كل سكان المدينة ، ولا ينقطع داخلها النشاط الاس
قط ، فترى السكان يجتمعون فى المسجد النبوى بين صلاة
وصلاة العشاء يستمعون الى ما يلقى عليهم ويناقشون أمور د
وعندما يؤذن المؤذن للصلاة يغادر أهل المدينة محالهم وأعـ
ويتجهون جميعا الى المسجد لتأدية الصلاة ، تزدحم الشوار
المسجد بالمحلات والفنادق والمكتبات والحرم النبوى يهيمن علم
البلدة بلا منازع .

ومازال القديم فى «طيبة الحجاز» اكثر ايحاء ودلالة من الجديد ، تجد القديم في أزقتها وطرقها المجاورة للمسجد النبوى ، التى وجدتها ضيقة لا تنفذ اليها الشمس ، ويغلب على عمارتها الطراز المملوكى بمشربياته المعروفة ، ويجلب الى سوقها البضائع من كل مكان ، وتسمى أزقتها ، زقاق القماشين ، وزقاق الخياطين ، وزقاق الاغوات ، وهكذا .. ولا تصدر المدينة اليوم سوى تمرها المشهور بحلاوة مذاقه وتعدد أنواعه .

واستمتعت في نهاية جولة السوق بالجلوس واحتساء الشاى فى أحد المقاهى المحلية التى تتكون من أعمدة من الخشب ذات سقوف من جريد ، صنعت بها أرائك خشبية عالية وفرشت بنوع خاص من الحصير.

فن العمارة

العمل على قدم وساق ، الجرافات والرافعات تقيم المبانى الحديثة والعمارات مكيفة الهواء على أحدث طراز ، وتشق الشوارع العريضة المرصوفة ، هذا ما تراه فى الاحياء الجديدة من «المدينة» طراز العمارة أوروبى باستثناء عدد قليل من البنايات ذات الطراز العربى . وما أبعد هذه الصورة التى أراها فى حى «المناخة» الحديث بمبانيه التى استوردت موادها من كل انحاء الارض عن الوصف الذى ذكره الافندى علي موسى فى كتابه وصف المدينة (عام ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥ م) والذى

يقول .. «الحاصل أن المدينة المنورة وجوانبها الاربعة اذا غاب نجم الثريا وثقل العذق على النخيل ، تمرض الاجسام ويقل النشاط ، فإذا ظهرت الحمراء والصفراء فى النخيل اشتد الحر والسموم ، وطاب النوم على الاسطح تحت السماء ، وبدأ النشاط شيئا فشيئا الى زمن الخريف» . ان هذه الصورة القديمة تتغير اليوم ، ولكنها تحتاج إلى ضوابط تقضى على طراز العمارة المتنافر والبعيد عن مكونات البيئة ، وخاصة فى «المدينة» صاحبة كل هذا التاريخ المجيد ، بل هى معقل العروبة والاسلام التى لم تخضع طوال تاريخها لاحتلال اجنبي غير اسلامى ، لكل هذه الأسباب يفاجأ زائرها بما يتهدد طرازها العربى من الضياع ، ويبحث عن شخصيتها التى يتوقع ان يجدها فى عمارتها، ويتوقع ان تكون مستودع ما بقى من حضارة الاسلام ، هى المؤهلة لتكون فى طرازها المعمارى وتخطيطها النموذج للإصالة المتزاوجة مع فن العمارة المعاصر ، ويصاب بالأسى أمام الفجوة الكبيرة بين ما يتوقع وما يرى .....!!»

لقد تغيرت تغيرا كبيرا عن الوصف الذى ذكره بورخارت .. «ان المدينة مبنية بالحجر كلها ، وتتألف بيوتها من طابقين بوجه عام ومن سطوح منبسطة ، وهي من أحسن المدن الشرقية فى بنائها ، وهى تأتى بعد حلب ..» .

سكة حديد الحجاز

ومن أبرز الابنية ذات الطراز المعماري الخاص محطة سكة حديد الحجاز ، طراز جذاب لم تفعل به يد الهدم كما وقع في العديد من الابنية الاخرى ، وقد توقف هذا الشريان الذى يربط الاراضي المقدسة بدمشق ، والذى لعب دورا حيويا في تاريخ المدينة ، عندما كان يساعد على انسياب الحجاج والبـ ـائع والافكار من وإلى المدينة .

بدأ هذا الخط يعمل في خريف عام ١٩٠٨ ، والذى كان يقطع مسافة تقرب من ألف ميل ، وأقيم من تبرعات الشعوب الاسلامية التى ساهمت بثلث النفقات ،.وتوقف هذا الخط أثناء الثورة العربية وخلال الصراع بين العرب والترك ، بقيت أجزاء منه تحتاج إلى اصلاح منذ الحرب العالمية الأولى وحتى اليوم ، ورغم أنه لا يحتاج إلي نفقة كبيرة رغم أن هذا المشروع من النوع الاستراتيجي الذى تحتاجه الدول العربية لتوثيق الروابط بينها ، علاوة على ما يقدمه من فائدة الى مدينة رسول الله ..

وهذا المشروع مع خطوات أخرى يعيد للمدينة جانبا من قيمتها التاريخية ، من هذه الخطوات وضع آثارها موضع التقدير والحماية، فتحصر وترمم ، ومنها أيضا ان تراعى المبانى الجديدة الطراز العربى الشرقي ، ويقفز الى ذهنى ذلك المتحف الذى شاهدته فى ويلز بانجلترا

والذى اقيم على مساحة كبيرة ، يعرض داخله حياة البلدة منذ قرنين من الزمان ، نفس طراز المبانى القديمة ، وأثاث البيوت ، والازياء وطرق الانتقال ذاتها بالعربة التى يجرها جوادان ، والحرف القديمة : النجار والحداد والخباز يعملون بدواتهم القديمة والمتحف مدينة كاملة بعثت فيها الحياة القديمة ، وكأن زائره قد انتقل الى مرحلة حية من التاريخ ، يرتاده الزائر فى رحلة ثقافية ترفع الذوق وتنمى الحس العام ، وتضمن التواصل بين الماضي والحاضر ..

فهل نأمل فى قيام مثل هذا المشروع في المدينة والذى ينقل المرحلة التى شهدت فجر الاسلام ، ثم هل نطمع فى الحفاظ علي ما تبقى فى المدينة من آثار ، عن طريق حظر التشييد أو الازالة الا بعد الحصول على تصريح خاص ، ففى بلدة مثل الفاتيكان يحظر نهائيا نقل حجر من مكانه الا للضرورة وبمعرفة سلطات المدينة والمشرفين على الآثار بها ..

وتحتاج المدينة أكثر إلى تغييرات تبرز تاريخها ، وتجعل حاضرها متصلا بماضيها المجيد ..

وبعد

هذه رحلة عبر الزمان والمكان فى «المدينة المنورة» ، لا تزال بحاجة إلى مزيد من الجهد والوقت ، لكى نقف أكثر مع كل أثر للرسول الكريم وخلفائه من بعده ، نستلهمه ونعايشه ونتمثله ، ونقتفى أثره .. ونتنسم منه عبق التاريخ ..

هذه هي مكة :
أم القري وأم المدن !

كانت مكة هى نقطة البداية: - فهى منزل الوحى شهدت فجر الإسلام وسار نبى الإسلام فى شعابها ودروبها خطواته الأولى.

فالسعودية ترتبط فى أذهان الجميع بالكعبة فى الوادى المقدس، وبالذهب الأسود فى حقول النفط.. ويظل فى الماضى والحاضر والمستقبل، اسم مكة مرتبطا بالكعبة، التى عندها تلتقى عيون ملايين المسلمين فى انحاء الأرض، خمس مرات كل يوم.

ترتكز الحياة فى المملكة العربية السعودية على محورين

الكعبة فى الوادى المقدس، والذهب الأسود فى حقول النفط..

وهذا حديث من البلد الأمين.

وهو حديث يحتاج إلى قدر كبير من الجرأة.

لانه يدور حول أقدس مكان لدى المسلمين، حتى يصل هذا الحديث الى مستوى هذه القداسة؟ .

البلد الأمين رمز يلفه جو مشحون بعطر الإسلام، وجهاد المسلمين الأوائل، ورائحة الاستشهاد.. وأنت فى كل درب من دروب مكة وأمام كل بناية، وعلى بطاحها وبين شعابها، تقف أمام قطعة غالية من

التاريخ، ونداء مكة دائما غلاب، ينفذ إلى أعماق الوجدان مختلطا بأصداء الحج وصوت الدعوات.

تجولت بين مقدساتها، وغصت في العديد من الكتب التي روت عنها، واستمعت الى أهلها لأقدم هذه المرحلة - فأهل مكة أدرى بشعابها...

لكى تصل إلى مكة بالطائرة أو الباخرة لابد ان تمر بميناء جدة، فمكة وجدة يترابطان كالرأس والجسم؛ وتقع جدة عند منتصف ساحل البحر الأحمر وبينها وبين مكة ٩٠ كيلو متراً، نمضى على طريق جدة - مكة الذى تقام فى اوله المصانع والمخازن والورش ليعكس حركة البناء والتشييد في السعودية، ولقد أقيم الطريق المعبد فوق أودية وكثبان رملية، تتجاوز المبانى وتدخل الى صحراء لا ترى لها نهاية وليس بها غصن أخضر، وعلى الجانبين رمال محرقة وحجارة سوداء كأنها بقايا البراكين.

قرب نهاية الطريق تصل الى بلدة «الشميس» أو الحديبية على عهد رسول الله، المكان الذى عقد فيه صلح الحديبية المشهور والذى أعطى المسلمين شرعيتهم بعد معاناة وجهاد طويل.

وكلما اقتربت السيارة من مكة سبقها خيالى يرسم صورة دقيقة لام القرى، ألوانها وظلالها ما ترسب فى الوجدان من مطالعات فى التراث العربى والاسلامى، لهذه البقعة الضيقة من الأرض جلال كبير ومهابة ومكانة خاصة، فالبلد الأمين بلا مغالاة هو مستودع التراث

الإسلامى ، وأتذكر قول الرسول العظيم عندما خرج من مكة مهاجراً «إنى لأعلم أنك أحب البلاد الىّ، وانك أحب أرض الله الى الله، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت».. وأذكر قول السيدة عائشة.. «لولا الهجرة لسكنت مكة، فانى لم أر السماء أقرب الى الأرض مثل مكة، ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان احسن منه بمكه» . كلمات تعكس الشعور الجارف بحب البلدة التى شهدت طفولتها وصباها، وهذا أجمل ما يقال تشوقا للوطن.

وهذه البقعة من الأرض هى معقل العروبة وخطها الاخير، وهذا رسول الله يقول: «إن الاسلام بدأ غريبا وسيعُود غريبا كما بدأ» .

فهنا مهد الاسلام الأول، ومعقله الأعظم، وسياجه فى جزيرة العرب.

ظلت تلك الصور تتسارع بينما السيارة تقترب من اعلام مكة - التى تحدد المنطقة الحرام -وعرجت فى منطقة الشميس على مصنع لتعبئة مياه عين زبيدة فى قوارير على أسس علمية، وفى المنطقة الحرام زرت مصنع كسوة الكعبة الشريفة، ولان موطن الاسلام الأول تهيمن عليه الكعبة الشريفة، قام هذا المصنع ليمد الكعبة بالكسوة سنويا، وهو تقليد قديم يقوم به المسلمون منذ الفتح الاسلامى، وكان موكب الحج المصرى الى عهد قريب يحمل الكسوة فى موكب مشهود يسمى «المحمل» سنويا، وللمستشرق الأوروبى لين وصف دقيق له.. قال: «إن

الموكب المصرى كان يغادر القاهرة فى آخر اسبوع من شوال فيصل الى مكة فى سبعة وثلاثين يوما، بعد أن يسير على طول الساحل البحرى، ويخرج من القاهرة متجها الى الشمال حتى أحد موانىء البحر الاحمر المواجه لميناء جدة» . وهو ذات الطريق الذى سلكه الرحالة المغربى ابن جبير وأيضا الطريق الذى وصفه البتنونى فى مؤلفه الرحلة الحجازية، وكان وصول المحمل المصرى يعد بمثابة حدث مهم بالنسبة لأهالى مكة، فكانوا يستقبلونه بالعديد من مظاهر الترحيب.

ويصف لين الكسوة بقوله : «انها كانت تتألف من نسيج حريرى مشجر ذى لون أسود حيكت فيه الشهادة وعلى ارتفاع الكسوة يدور حزام مطرز بالذهب المغطى بآيات قرآنية ، وكان أول حاكم مصرى يسعى الى كسوة الكعبة بعد انقضاء دولة العباسيين هو الظاهر بيبرس..» .

أما اليوم فيقوم هذا المصنع بانتاج الكسوة، التى تتجدد سنويا فى احتفال كبير.. يقول المدير الفنى لمصنع الكسوة «يتكون ثوب الكعبة من الحرير الصافى، وينقش عليه عبارات: لا اله الا الله محمد رسول الله، الله جل جلاله، سبحانه الله وبحمده سبحان الله العظيم»، أما الحزام وستارة باب الكعبة فيكتب عليهما آيات قرآنية مغطاة بسلك فضى مطلى بالذهب، ويستهلك الحزام والستارة ١٢٠ كيلو من الاسلاك

الفضية المطلية بالذهب والحزام يبلغ محيطه ٤٥ متراً وعرضه ٩٥ سم.

واد غير ذى زرع

يلوح الوادى المقدس من بعيد.. نحن على مشارف الفردوس الأرضى، نقترب من البلد الأمين وغلالة من البهاء والرونق تلقى بظلها على المكان، واحساس جارف بالصحراء والبساطة التى تدعو إلى التفكير والتأمل، المسلمون فى كل انحاء الأرض تهفو قلوبهم إلى هذا المكان، ويهزهم الحنين إلى البلد الأمين، تلك البلدة التى يولون وجوههم شطر كعبتها فى صلواتهم . إن هذه الرحلة تثير فى النفس من الاحاسيس والصور الشعرية والفنية ما لا تثيره رحلة أخرى.

كل هذه المكانة لواد غير ذى زرع، مجرد من كل زخارف الطبيعة، تكاد تكون أجرد بلدةً عرفها البشر، وأقحل بقعة رأتها العين، ولكنها فردوس العبادة، انه واد تحيط به جبال جرداء صخرية صماء قاتمة اللون، ليس فى شعابها أشجار ولا أنهار ولا مروج تلطف من حرارتها فارتفاعها عن سطح البحر لا يتجاوز المائة متر، والحماية الطبيعية فى الوادى تجعلها مسورة طبيعيا، وهى كنواة دينية تجذب حولها العديد من الوظائف ، كالتجارة والخدمات وتنتعش بها حرفة الضيافة والفنادق ويتركز النشاط حول حركة الحجاج والمسجد الحرام.. تقود الطرق جميعها الى مركز البلدة ونواتها، الى المسجد الحرام، وكما وصفها أحد المهندسين الشبان الوادى والجبال من حوله كوردة من الجبال ،

وكما وصفها بيرتون.. «مكة أشبه بواد متموج متعرج يمتد فوق إحدى الهضاب».

المسجد الحرام

نقف أمام المسجد الحرام.. مسجد ضخم شاهق يصل ارتفاعه الى حوالى ٢٤ مترا، تحيط به الساحات من كل جانب، ويقع فى قعر الوادى فلا تظهر الكعبة المشرفة للواقف خارج المسْجد ، أعداد كبيرة من الحمام يلتقط الحب حوله وفى الساحات تحيطه مبان شاهقة من فنادق وعمارات لتستوعب الاعداد الكبيرة من الحجاج الذين يصرون على أن يكونوا الى جواره ويصلون الصلوات الخمس داخله.

عمارة المسجد الحرام تشبه عمارة مساجد القاهرة ومساجد تركيا، وواجهته من الرخام المائل الى البياض، تاريخ المسجد الحرام مسجل على مر العصور.. وتنافس الحكام والخلفاء على الإضافة إليه على مر الأيام و فى صدر الاسلام كانت الكعبة يحيطها جدار أنقص من القامة وغير مسقوف، وكان الناس يجلسون حوله، ولم يفكر أحد من خلفاء المسلمين فى زينته، ولم يزد «عمر» عليه سوى ضمه الى المسجد بعض المنازل بعد هدمها، وأقام جداراً لا يرتفع الى قامة الرجل، ووضع على الجدار مصابيح تضىء المكان للذين يصلون العشاء.

ولكن بنى أمية الذين اتصلوا - بعد الفتح - بأهل البلاد التى دخلت الى الاسلام، وشاهدوا العناية الفائقة بالعمارة وزينتها اخذوا يعملون على تطوير عمارة المسجد الحرام، فأمر عبدالملك بن مروان عام

٧٥ هـ برفع جدرانه وسقفه بخشب الساج الداكن اللون وجعل على رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب، واضاف الوليد بن عبدالملك توسعة جديدة للمسجد الحرام، وزخرف الساج الذى سقف به وزين جدرانه بالرخام وجعل على رأسها صفائح من النحاس،، وزخرف أعلى أبواب المسجد بالفسيفساء.

وقام بنو العباس بالسير على نفس النهج فزاد ثاني خلفائهم أبو جعفر المنصور فى المسجد الحرام وجعله ضعف ما كان عليه وزينه بالذهب وأنواع النقوش، وبنى له لاول مرة المئذنة، وكانت الكعبة فى جانب من المسجد لان ما أضافه عمر كان يتجه الى الناحية التى لا يخشى انحدار السيل إليها فأراد أن تكون فى وسطه.

وبعد العباسيين كانت مصر اكثر البلاد الاسلامية حرصا على عمارة الاماكن الاسلامية المقدسة وأكثرها سخاء، ومع ما كان من انتقال الخلافة من مصر الى استانبول الا أن السلطان سليم أمر حاكم مصر والمهندس سنان بالقيام بتجديد المسجد الحرام، فانفقت مصر على هذه العمارة خمسة وخمسين ألفا من الجنيهات مضافا اليها ألفاً من الذهب الابريز ، وكان ارتفاع المسجد أقل من ارتفاع الكعبة، وبالتالى كانت الكعبة ظاهرة من اى نقطة فى مكة ومع توالى الأيام أخذ المسجد يضيق عن استيعاب الاعداد الكبيرة من الحجاج والمعتمرين وخاصة بعد ان كثرت المنازل حول الحرم واصبحت ملاصقة له مما جعل الطرق المؤدية اليه أزقة ضيقة،، وكان من الضرورى قيام التجديدات والتوسعات المختلفة، وقد اشرف على العمارة الجديدة

نظام هندسى متقن لتلقى السيول وصرفها دون تأثير على مبنى المسجد الحرام.

وخلال عمليات البناء فى عمارة المسجد الحرام ظهر فى بناء الكعبة الشريفة تصدع فى بعض الجدران نتيجة تآكل الاخشاب التى تحمل السقف، والتى كان آخر ترميم لها منذ حوالى ستمائة عام فجددت الكعبة ورممت.

يتوسط مبنى الكعبة المسجد الحرام.. والصورة التى تراها عليها دائما فى جوف الليل وأطراف النهار طواف الحجاج والمعتمرين حولها بملابس الاحرام ، وفى كل الاوقات يتعلق بأستارها الداعون الى الله وطالبو الغفران والرحمة.

والمبنى على شكل مكعب طوله ٤٠ وعرضه ٣٥ وارتفاعه ٥٠ قدما يتكون من حجر رمادى اللون ، جلب من الجبال المحيطة بمكة، وتقوم الكعبة فوق قاعدة من المرمر يبلغ ارتفاعها عشر بوصات.

والخطوط الاربعة التى ترسم من مركز الكعبة بامتداد الاركان تصل الى الجهات الاصلية الاربع..

وتتفق كل المصادر التاريخية والدينية على أن بانى الكعبة هو ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام.

وتتفق هذه المصادر أيضا على إعادة بناء قريش للكعبة بعد ان طغى عليها السيل ووهنت جدرانها، فلما بلغ القوم مكان الحجر الاسود اختلفوا وكادت تنشب الحرب بينهم، واحتكموا الى أول داخل من باب

الصفا، ودخل محمد الأمين من هذا الباب وحكم بينهم بأن وضع الحجر على ثوب رفعه ممثلو القبائل المختلفة من أطرافه، ورفع محمد الحجر ووضعه مكانه من البناء . وقد استفادت قريش من أخشاب سفينة افريقية غارقة بالقرب من ساحل جدة كانت في طريقها من مصر الى الحبشة، وأدت مساهمة نجار مصرى كان موجوداً فى مكة الى جعلها أوسع، وأن يشيد بابها بمستوى مرتفع عن الأرض لئلا يتسرب اليها مياه السيول..

★★★

وينعكس التاريخ الاسلامى على الكعبة، فعندما قامت الفتن بعد مقتل عثمان استقل بنو أمية بالخلافة وجعلوا دمشق عاصمة لهم، وتولى الخلافة يزيد بن معاوية وقاومه عبدالله بن الزبير فى مكة فجهز يزيد جيشا لاخضاعه ، وعندما لجأ ابن الزبير ورجاله الى الحرم رمى جند يزيد الكعبة بعشرة آلاف حجر من المنجنيق، وعاد الجيش إلى الشام بعد علمه بنعى يزيد بن معاوية ، وبدأ عبدالله بن الزبير فى اصلاح البيت الحرام فأعاد بناءها عام ٦٥ هـ وقد ظلت على بناء ابن الزبير – ومرة أخرى ضرب القرامطة الكعبة وفى عام ١٠٤٠ هـ ١٦٣٠م عندما هطلت السيول الغزيرة بمكة نتصدع بناؤها.. فاعاد بناؤها جماعة من المهندسين المصريين بعد ان اخذوا من مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة، وانفق عليها ستة عشر الفا من الجنيهات ، هذا البناء هو بناء البيت القائم حتى اليوم.

نلاحظ أن سيول مكة كانت بعداً دائما فى تطورات عمارة الكعبة والمسجد الحرام.. ويرد الى هذه السيول غياب الاثار الاسلامية، وقد عشت فداحة هذه السيول فى إحدى رحلاتى من جدة الى مكة حينما أغلقت السيول الطريق التى دفعت عددا من السيارات براكبيها، وتسببت في حوادث أليمة.

هذا رغم أن الامطار في مكة مازالت شحيحة ولا تسقط الا على فترات متباعدة، ولذلك فان فترات الجفاف التام كثيرا ما تمتد الى اربع سنوات متتالية ، وتصل الى الحد الذى وصفه الامير شكيب ارسلان بقوله:«إذا مر عليها الانسان يوما من أيام الصيف فى هاجرة ظن نفسه يدوس بلاط فرن وإن ترك على تلك الصخور لحما كاد يشوى بلا نار.. أو ماء كاد يغلى بلا وقود»..

غير أن بعض مواسم الشتاء تغزر فيها الامطار فتصبح سيولا مدمرة تصل الى حد لم يسمع بمثله من العنف والتخريب.. إذ يقوم فى شرق مكة جدار جبلى شديد الانحدار، يتألف من سلسلة من الطبقات الصخرية والقمم، وفوق هذه القمم وشعابها تتجمع مياه الامطار الغزيرة.. وعلى طول هذه المنحدرات تتكون عند سقوط الامطار سيول غزيرة وشلالات متدفقة فتهبط فى مجاريها المختلفة بسرعة وتنقض لا تلوى على شيء . و قد غرق المسجد الحرام فى منتصف عام ١٩٥٠ الى عمق سبعة أقدام، ثم كانت الاحتياطات الهندسية للسيطرة على هذه السيول فى العمارة الاخيرة للمسجد الحرام .

العمارة فى أم القرى

إذا كانت مكة المكرمة هى المعقل الأخير للعروبة والاسلام، فان أول ما ينبغى أن يميز هذا المعقل هو شخصيته الخاصة، والتى تتمثل فى طابع عمارته، وخاصة انها بحق «مصنع الحضارة العربية الاول» وعليها أن تبقى على الاقل مستودع ما تبقى من حضارة الاسلام او حتى «متحف الحضارة العربية».. ويبرز سؤال.. الى أى حد حافظت مكة على طابعها العربى والاسلامى .. والى أى حد أبقت على شخصيتها بعيدا عن المؤثرات غير الاسلامية والتى كانت من اسباب تحريم دخولها لغير المسلمين..؟ انها حقا مؤهلة لان تكون فى طرازها المعمارى وتخطيطها النموذج الامثل للأصالة العربية متزاوجة مع فن العمارة المعاصر..

وإذا كانت الكعبة الشريفة هى مركز الوادى المقدس، ومكة بدورها هى مركز العالم الاسلامى وأهم مدنه على الاطلاق، فالى أى حد هيمنت الكعبة على حياة البلدة، والى أى حد راعى تخطيط المدينة هذه الهيمنة.

هيا نتجول فى شوارع مكة وشعابها.

صورة العمارة فى المدينة يمكن وصفها بانها خليط، العمارة العربية القديمة وزحف المبانى الحديثة فى حركة بناء واسعة، حتى يكاد يضيع أمام هذا الزحف طرازها المميز وشخصيتها العربية بين كتل الخرسانة ومكعبات الالمنيوم التى تفتقر الى الطابع الخاص وتحاصر البيوت المكية القديمة، ففى عصرنا الحاضر تحددت نقط التماس فى

الاحتكاك الحضارى بين الشرق والغرب فى المدن اساسا، وكان النصر حليف الغرب، وإذا كان هذا يمكن التغاضى عنه فى مدن أخرى فهو بكل المقاييس لا يقبل فى أم القرى، فهى الاختزال البليغ للشخصية العربية ومفتاح لمنطقة حضارية متميزة.

فبين وقت وآخر ترى مبانى عربية متميزة بطرازها واحياء كاملة مثل حارة جياد وحى الشبيكة لها طعم خاص، ويميزها عدد من الخصائص فهى من طابقين أو ثلاثة ومدخلها باب خشبى منحوت بعناية بالغة على شكل دائرى ، وذات مشربيات محلاة بالارابيسك وغالبا ما تطلى باللون الابيض واحيانا الاصفر.

كما أن مكة جزء من أربع مناطق مازالت محافظة على بقايا طرازها العربى فى السعودية.. وهذه المناطق هى: جنوب ووسط الحجاز وشرق نجد وعسير والجزء المطل على الخليج العربى.. كما تتميز عمارة مكة والمدينة والطائف وجدة بطراز عربى اسلامى هو مزيج من العناصر المحلية والتأثيرات التى نقلها الحجاج من المناطق الاسلامية المختلفة، مع تأثير ظاهر للطرازين المملوكى والعثمانى.

وأيضا البيئة الطبيعية فى مكة ومكوناتها من جبال ووديان وصخور ورمال، ذات معالم قوية واضحة ينبغى مراعاتها عند تخطيطها وعند اقامة أي مبنى جديد، وينبغى أيضا مراعاة وضع الكعبة وأن تحاط بمنطقة محرمة ذات مساحة كافية لا يقع أحد بصره فيها على ما يتنافر وقدسية الطبيعة ومذاق المكان .

وكان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لعدد من اساتذة العمارة الاسلامية، كما أعطتها أمانة مدينة مكة اهتماما كبيرا فى مشروع التخطيط الجديد.

وطالب استاذ العمارة المغفور له المهندس حسن فتحى فى دراسة له بأن يكون الوادى المقدس شبيها بيوم الحشر فلا يوجد على الارض ولا فى الجو ما يخدش البيئة فلا سيارات ولا شاحنات تنفث الغازات السامة ولا هليوكيتر تحلق فوق الكعبة.

كما طالب باقامة المبانى خارج المنطقة المحرمة التى تطل عليها من بعيد شريطة أن يكون طراز عمارتها له طابع عربى متميز بالصدق فى التشكيل المعمارى والزخارف، فصفة الصدق فى العمارة التى تفرضها قدسية المكان تتطلب أن تتحقق بالنسبة للتصميم المعمارى والمواد المستخدمة فى البناء، والابتعاد عن أى اشكال معمارية أو زخرفية لا تكون نابعة من البيئة الصحراوية ، كما لا يصح أن يقام فى الوادى المقدس أى منشآت ذات طراز زائف كالتى تبنى بالطوب أو الخرسانة:

ويضيف المهندس حسن فتحى.. «مما لاشك فيه أن كافة الشروط والصفات الواجب توافرها فى الوادى المقدس ليست قائمة ، وان اصلاح الامر يتطلب الكثير من الوقت والجهد، ويمكن تحديد الزمن الذى يمكن بعده التخلص من كافة المبانى الزائفة الطراز من واقع

العمر الاحصائى المتوسط للمبنى الذى هو ٩٢ عاما بحيث يخطط اليوم ما يعتبر جزءا لا يتجزأ من مخطط مرسوم للحالة المثلى الذى يصبح عليها الوادى المقدس، فالتخطيط لا يقتصر على اليوم بل هو للأجيال القادمة أيضا..

إن اعادة تخطيط مكة تجرى على قدم وساق..

مواقف للسيارات تحت الأرض، وانفاق تحت الميادين وشق طرق دائرية ثلاثة وأخرى عرضية، وانشاء طريق يشمل كبارى معلقة بين الجبال وانفاقا تحتها، لسهولة تحرك الحجاج من العقبة الكبرى ومن عرفة الى الحرم رأسا، وكلما انتهى مشروع بدأ مشروع جديد .

والحقائق تقول أن عدد المسلمين فى العالم يبلغ حوالى مليار مسلم فإذا ما أراد واحد فى المائة حج بيت الله الحرام لكان عدد الحجاج ١٠ ملايين بينما لا يتسع الوادى لما يزيد عن مليون مسلم، وهناك توصية بوضع حد أعلى لعدد الحجاج لا يجوز تجاوزه ، عن طريق إعطاء الفرصة لاكبر عدد من المستحقين للحج، وان يفضل من لم يحج مطلقا على من سبق حجه، كما يفضل الحجاج الذين يحجون سعيا على الاقدام من أواسط أفريقيا وغربها، على من يركب الطائرة وستوضع هذه المقترحات أمام المراجع الاسلامية، ومن جانب آخر راعى المشروع الزيادة المطردة فى عدد السكان والتى تفوق كل التوقعات .

وأوصى المشروع الجديد بعدم تركز الحجاج حول الحرم، وتيسير الوصول اليه باستخدام الطرق الدائرية والعرضية على أن دخول السيارات فى الدائرى الاول بأكمله والذى يكون مركزه الحرم، وان تفرغ هذه المنطقة من المبانى، ويصل اليها ثلاثة أنفاق.

و أكد أحد الخبراء: « أن هناك تعاونا وتنسيقاً علميا بين مركز أبحاث الحج والجامعة للوصول إلى أسس ومعايير العمارة المحلية لمكة المكرمة، والمقاييس الدقيقة للطراز العربى حتى تصبح مطالبتنا للمكاتب الهندسية التقليد بالطراز العربى ذات معايير ثابتة .. وأضاف : لقد وضع مشروع تخطيط مكة باعتبار أن التخطيط عملية مستمرة، لها مرتكزات رئيسية وتتحرك فى نفس الوقت مع الاحتياجات المتجددة» .

وأكد التخطيط الجديد على ضرورة الحفاظ على الاماكن الاثرية الاسلامية، وعلى الاماكن ذات القيمة المعمارية الخاصة، ويشمل المشروع إضاءة الجبال المحيطة بمكة ليلا، ويحدد المناطق الاثرية التى سيحافظ عليها.

و المرتكز الرئيسى الذى عليه المشروع هو هيمنة بيت الله الحرام على البلدة المقدسة، بحيث لا يزيد ارتفاع المبانى المحيطة بالحرم عن أربعة طوابق والدائرى الثانى عن ستة طوابق وهكذا.

وهناك مصاعب فى التنفيذ منها وجود مبان شاهقة قائمة بالفعل حول الحرم، وإذا تحقق المشروع فسيكون الحرم هو المركز الذى يحيط به الجبال المتدرجة فى الارتفاع ويمكن من أى مكان رؤية المسجد الحرام بجلاله ومهابته.

وقد أثار أحد المهندسين الشبان قضية مهمة حول رؤية الكعبة المشرفة ذاتها، فالتوسعة الاخيرة حجبت رؤية الكعبة، ويبدو أن زيادة عدد الحجاج جعلت من الضرورى أن يكون المسجد الحرام من عدة أدوار .

ويبدى تحفظا آخر حول (حياد) مشروع التخطيط الجديد مما يفقده المذاق المطلوب، فالتخطيط ليس مجرد خطوط فوق الخريطة ولكنه يرتبط بالبيئة وعادات السكان وطبيعة البلدة المقدسة، فإذا وضع خطوطه من لا يعرف هذه البيئة وتلك التقاليد ولم يقع بصره عليها فسيصعب تحقيق الهدف من هذا التخطيط.

وضرب مثلا على خطأ حياد التخطيط مما يتضمنه المشروع الجديد من إقامة مسجد فى كل حى من احياء مكة، مع أن جميع السكان والحجاج والمعتمرين يحرصون طوال إقامتهم على تأدية الصلاة فى المسجد الحرام.

وعندما سألت كيف يخطط لمدينة ويقوم بالاشراف على التنفيذ من لا يستطيع ان يدخلها من الاجانب.، علمت أن الشركتين الاجنبيتين ترسلان من يصور سينمائيا الطرق لتدرسها وتكون .اساسا

للتغيرات المقترحة وخلال تنفيذ مشاريع التخطيط الجديدة تصور بدوائر تليفزيونية يتم مر خلالها مراقبة عمليات التشييد من موقع خارج مكة المكرمة.

عالمية مكة

ومكة عالمية السكان، فقديما كان طلاب العلم والباحثون عن الحقيقة يشدون الرحال قاصدين مكة لينهلوا من العلم ويعايشوا المكان الذى شهد مولد الدعوة الاسلامية ومع حركة الحج وتوالى السنين وتراكم المجاورين الذين اختاروا ان يقيموا - فى البلدة المقدسة، تفردت مكة بتكوين سكانى خاص بها، فوجد الى جانب أهل مكة الاصليين عناصر عربية متعددة، يبرز منها اليمنيون وخاصة الحضارمة المعروفين بنشاطهم وحيويتهم . ومجموعة أخرى من الدول الاسلامية اكثرهم من الملايو الذين يعرفون باسم جاوة، قدموا للاقامة الدائمة الى جوار الحرم، وتضم ايضا المصريين والسوريين والمغاربة والاتراك، وأصبح بها مكيون من أصل ايرانى وتاتارى وبخارى وكردى وأفغانى.

وبقى أهلها مزيجا من أبناء البلاد الإسلامية كما هو ظاهر فى سحنة وشكل سكانها.

وفى كل عام يرفع أفواج الحجاج عدد سكان البلدة الى ما يزيد عن ثلاثة أضعاف سكانها. وهذا التركيب السكانى ترك أثره على طبيعة أهالى مكة، فلم أر مثل أهل مكة حباً لبلدهم وتعلقا بمكانتها ، ويكفى أن

أغلب البيوت التى زرتها وجدت فيها الكتب المؤلفة عن مكة توضع موضع الحفاوة والدراسة.

وزوار مكة معجبون دائما بأهل البلد الامين، كثيرا ما يتحدثون عن فضائلهم يقول الرحالة العربى ابن بطوطة: «لاهل مكة الافعال الجميلة، والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثاء للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء ، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ولو كانت لهم خبزة واحدة، فانه يعطى ثلثها أو نصفها أو طيب النفس من غير ضجر.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس.. وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبدا ناصعة، ويستعملون الطيب كثيرا، ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب، حتى أن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة، فيأتين فى أحسن زى، وتغلب على الحرم رائحة الطيب، وتذهب المرأة منهن فيبقى اثر الطيب بعد ذهابها عبقا»..

جميع المنتجات متوفرة فى اسواق مكة الشرقية الطابع، يمكن ان تشترى منها الخنجر اليمنى أو مسبحة من خان الخليلى، كما يمكن أن تشترى أحدث أجهزة التسجيل التليفزيونى «الفيديو كاسيت» فهى تكاد تستورد من كل أنحاء العالم جميع أنواع المنتجات، فمن الطيب

والبخور الى أرقى الروائح الفرنسية، كل ذلك معروض فى اسواق شرقية فى معظمها ، وتستطيع ايضا ان تحصل على تحفة تركية أو فارسية أو هندية أو صينية أو افغانية، كما تجد داخلها الخضراوات والفواكه الطازجة التى تنقلها الثلاجات الى البلد المقدس.

وينتشر داخل السوق المقاهى المكية المتميزة ، والمكونة من «دكك عالية» يحتسى روادها الشاي والرجبيل.

وقال لى احد كبار التجار فى مكة.. ان المجلوب الى مكة من أصناف الحبوب والخضراوات والفواكه والمحمول اليها من البضائع واللباس والطيب يفوق ما يجلب الى عشر مدن من أمثالها فى عدد السكان..

والسوق الحالى يتشابه مع وصف بورخارت فى القرن الماضى تشابها كبيراً.. يقول: بها دكاكين يديرها اتراك من اوروبا وآسيا الصغرى يبيعون مختلف الالبسة التركية، وتباع فى هذه الدكاكين السيوف الجميلة والساعات الانجليزية الممتازة ونسخ القرآن المزخرفة ، كما كان طباخو استانبول يبيعون فيها أنواع المأكولات والحلويات قبل الظهر ، والكباب وغيره من اللحوم المشوية بعد الظهر، و «المهلبية» عند الغروب ، ولمسلمى الهند سلعهم الثمينة مثل الموسلين والقلائد والمرجان والصندل والمصوغات المختلفة فضلا عن سلع الصين ولكل سوقه: فسوق للمصريين وآخر للشوام وابناء الصين والافغان والافريقيين وكل فيه بضائعه.

البلد الوثيقة

نقول أن مكة وثيقة تاريخية مسجلة فى كل مراحل تاريخها ويكفى أن تعرف أن مجموع أعمار عواصم العرب القديمة يعادل مجموع أعمار بقية عواصم العالم مجتمعة ، وإن كانت أنهار العرب تمثل تاريخا سائلا «فان مدننا الرئيسية وبالذات مكة تمثل تاريخا محفوظا»..

لقد أمدتنا سيرة ابراهيم عليه السلام بنقطة البدء لتاريخ مكة، عندما وصل اليها مع هاجر المصرية وابنها اسماعيل، واستقروا فى الوادى الاجرد الذى بنيت فيه مكة وكانت بئر زمزم التى تفجرت تحت أقدامهم أساس قيامها، فكانت مكة كالسفينة فى البحر أو الصحراء يلزم أن تحمل ماءها معها، وحدد موضعها وجود الحجر الاسود وكانت على طريق حيوى تسلكه القوافل المتجهة الى موانىء البحر المتوسط، وملتقى طريق القوافل بين الشام واليمن حاملة الطيب والبخور والصمغ والجلود بضائع ذلك الزمان.

ثم عادت مكة وخرجت من أشباح الماضى بمولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وظهور الدعوة الاسلامية التى تفجرت فى بطاح مكة، ووهادها ، وأخذ العالم يدرس أحوالها ويمحص المؤرخون كل ما يمت اليها بصلة ، وكان الازرقى أول من أرخ لمكة فى القرن الاول الهجرى واستمر الرحالة والمؤرخون يقدمون وصفا لمكة على توالى العصور، ويصفون المساجد والمواكب وترتيب الحج والعمرة، وترك لنا المقدسى

فى القرن الرابع الهجرى وصفا لمكة قال فيه: « مكة هى مصر هذا الاقليم قد خطت حول الكعبة فى شعب واد. رأيت لها ثلاثة نظائر: عمان بالشام واصطخر بفارس وقرية الحمراء بخراسان

بناؤها حجار سود ملس وبيض أيضا ويعلوها الاجر كثيرة الاجنحة من خشب الساج وهى طبقات مبيضة نظيفة، حارة فى الصيف إلا أن ليلها طيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفاع وأراحهم من كلف الاصطلاء وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة وما ارتفع منه المعلاة، وعرضها سعة الوادى والمسجد فى ثلثى البلد فى المسفلة والكعبة فى وسطه وفيه طول باب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة طليت بالذهب قبال المشرق..» .

وقال عنها ابن جبير فى القرن السادس الهجرى والذى كتب عنها بعاطفة جياشة.. لأهل هذه الجهات الشرقية سيرة حسنة.. ذلك لانا عاينا شوارع مكة وأزقتها عشية الليلة التى ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل، مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرقيقة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا فى الخروج الى التنعيم، مئات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج فى أباطح مكة وشعابها، والابل قد زينت بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد براقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الاستار التى على الهوادج حتى تسحب أذيالها فى الارض..» .

ويبحث زائر الوادى المقدس والمتنقل بين مكة والمدينة عن الاماكن التى شهدت بعض فصول تاريخ الرسول وصحابته ، عن كل مشهد من مشاهد الدعوة الاسلامية يتنقل فى المناطق المقدسة باحثا عن كل ما تمثله بخياله وكأن حكاياتها قد وقعت بالامس القريب بما تثيره من ذكريات مليئة بالحياة.. وينقب عن ما آلت اليه على توالى العصور.

على افتراض عناية علماء الاثار والتاريخ بكل اثر اسلامى وتصورت انى سأجد عند كل موقف من مواقف الرسول التاريخية أثرا يدل عليه ويشهد به ولكنى لم أوفق الى الاهتداء لعدد كبير من هذه الآثار ، هذا فى الوقت الذى لايستطيع أحد أن ينافس المسلمين الاوائل يحفظ أدق التفاصيل عن كل حادث فى حياة الرسول الكريم، فقد قام علماؤنا بتسجيل اسماء وادوار نحو ١٢ ألفا من الصحابة - كما ذكرت - حتى تكاد تعرف كل سكان مكة عند فجر الدعوة الاسلامية فى وقت كان فجر نظام التأليف ، وبطريقة دقيقة لا يصل الى مستواها تسجيل حياة اى انسان آخر من قبل، فمثلا بالنسبة للسيد المسيح عليه السلام نقلت الاحداث المرتبطة بالاعوام الثلاثة الاخيرة فقط من حياته التى استمرت ثلاثا وثلاثين سنة، والتوراة هى المصدر الوحيد للقليل الذى نعرفه عن موسى عليه السلام.

فعندما يصل زائر مكة يوجه اهتمامه الى آثار الرسول، يهدف الى أن يسير حيث سار فيجد المشقة التى ترجع الى بساطة الحياة العربية الاولى، فأول جامع بنى فى الاسلام ، واشترك فى إقامته الرسول عليه الصلاة والسلام أقيم بالطوب النيىء وأعواد الجريد، وربما كان ضعف المبانى فى مكة يعود الى عوامل جغرافية فأرض مكة رملية سريعا ما يتداعى فيها البناء.. كما أن كثرة السيول تضعف اساس هذه المبانى.. لذلك فأقدم الاثار الباقية فى مكة يصل عمر بنايتها الى بضعة قرون لا تزيد على أربعة.

وبقى سبب أخر للشقة بين ما يتصوره الزائر للاثار الاسلامية وبين حقيقتها وهو هدم القباب والشواهد التى كان لها قيمة فنية وأثرية فى مطلع هذا القرن بحجة مخالفتها للقواعد الشرعية وخوفا مر شبهة الشرك بالله.

وكان حديث الآثار الصحيحة التى وقفت عندها ذا دلالة بالغة، فجبل حراء والغار فى قمته يثير الانتباه فى عزلته وتفرده عما حوله من الجبال، يتحدى الزمن بهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه الى السماء، يميزه الحادث الفذ هبوط الوحى على رسوله، وجبل ثور ومختبأ رسول الله وابى بكر بالغار يوم الهجرة، والطريق الذى سلكه النبى خلال هجرته، ومواقع المعارك الكبرى فى الاسلام. كل منها يحتاج الى حديث طويل بذاته.

فى مواجهة الغرب..

هذه المكانة الخاصة للبلد الأمين جذبت اليها عددا من المغامرين والمستشرقين ورجال المحابرات الغربيين ، والذين لجؤوا الى حيل مختلفة للتسلل إليها. وهناك قائمة طويلة خلال مراحل زمنية مختلفة، تكشف محاولاتهم وما سجلوه حقدا دفينا على المدينة المقدسة وعلى دورها المنفرد.و اختلطت فى كتاباتهم الحقيقة العلمية بالخيال والغرض بالتحامل ونعرض من التاريخ الطويل لشواهد ثلاثة لكشف الموقف الاوروبى الاستعمارى من مكة فى مراحل مختلفة:

أيام الحروب الصليبية:

قامت قوة عسكرية بقيادة ريندوى شاتيون الفرنسى تستهدف المدن المقدسة والوصول الى مكة وهدم الكعبة ونبش قبر الرسول وسرقة جثمانه.

يقول الكاتب البريطانى جيرالد ديجورى فى مؤلفه .. حكام مكة.

«استولى فارس صليبى هو رينودى شاتيون خلال الحرب الصليبية - على بلاد شرقى الاردن وقلاع مؤاب والشويك شرقى البحر الميت، وسيطر على طريق الحج الى مكة، واستهدف مهاجمة الاسلام فى عقر داره ، وتوغل فى جزيرة العرب حتى وصل الى تيماء، وما لبث أن عجز عن مهاجمة المدينة بطريق البر، على ما كان يأمل من نبش قبر الرسول والاستيلاء على أموال ونفائس منه، وقرر أن يفعل ذلك عن طريق

البحر فاحتل آيلة ، ونقل السفن من موانىء فلسطين على البحر المتوسط الى البحر الاحمر على ظهور الجمال، واعد خمس سفن حربية كبيرة في كل منها ألف جندى، وشق طريقه الى جدة واستولى على جزيرة «جراى» فى البحر الاحمر وظلوا يغرقون كل السفن العربية ويهاجمون موانىء الجزيرة العربية، ومنها رابغ والهوارة فى شمال ينبع وجنوبها ووصلوا الى باب المندب وعدن خلال قيامهم بسد المدخل الى البحر وسرعان ما تصدى له صلاح الدين وأغرق سفنه، واستولى على قصر رينو وقلعته واحبط محاولته للنيل من مكة والمدينة حتى انه يقال أن صلاح الدين قتل رينو بيديه.

بعد الحروب الصليبية جاء ت المرحلة الاستعمارية والانتقال من المرحلة الصريحة السافرة الى ذات الموقف لابسا قفازا من حرير مرحلة الرحالة والمستكشفين الذين ذهبوا الى مكة مزيفين.

الدروب الي مكة

بدأ أدب الرحلات بالرحلة الى مكة بزيارة الاماكن المقدسة، وتميز هذا الادب بالتنوع وكل كاتب يسجل الطريق الذى يسلكه، وكان فيهم العراقى والشامى والمصرى، وجاء هذا التنوع من تنوع الدروب، والبعد الزمنى بين عصر وآخر، وجاءت كل رحلة بجديد.

وكانت مكة هى بداية رحلة ابن بطوطه على مواصلة رحلاته واشهر هذه الرحلات، ابن جبير والمقدسى، و...

كشف الستار عن الممنوع.

كما كان فيهم لصوص وأفاقون ومغامرون وباحثون عن المجد، وعلماء وقساوسة وجواسيس محترفون خرجوا من اوروبا دافعهم هو الرغبة للوصول الى تلك البقعة المقدسة والمحرمة عليهم، تلك البقعة القائمة وسط الجبال الجرداء، والتى خرج منها الاسلام الذى هز اركان العالم وأقام حضارة جديدة، ولم تكن رحلتهم مجرد رحلة فى حياتهم، بل لقد امتلكتهم حددت مصائرهم.

ومن أشهر هؤلاء الرحالة كريستين نيبور الذى يقول:

«لو كان هناك أناس فى العالم يحملون كل هذا التاريخ البالغ فى القدم مع تلك البساط العظيمة فهم أولئك العرب، الذى ما أن تقترب منهم حتى تدرك أن تاريخهم يرجع للعصور السحيقة التى اعقبت الطوفان، ونحن فى اوروبا مغرمون بتخيل أنفسنا كأباء للبشرية ولكن ماذا نمثل أمام العراقة العربية. ؟

ولكن من النادر أن نجد رحالة منصفا مثل نيبور.

فلقد بدأ تيار الاختراق باللصوص وانتهى بالجواسيس وظهرت بعض هذه الشخصيات كلمحات الضوء.

بدأ عام ١٥٠٢ أفاق ايطالى يدعى لودفيكو فارسيما رحلته من ميناء البندقية متجها الى مصر فى طريقه الى الاراضى المقدسة، ووصل الى دمشق وهناك تعرف على ضابط اوروبى اعتنق الاسلام وأصبح ضابطا فى الجيش العثمانى، واتفق معه على ان يتنكر فارسيما

وسط قافلة الحجاج التى كان يبلغ عددها أربعين ألفا يحرسهم ستون جنديا.

وشهادة فارسيما رغم انه كان محملا بروح عصر النهضة إلا ان لخرافات القرون الوسطى كانت تسيطر على اعماقه فلم يهتم فارسيما بوصف الاماكن المقدسة قدر اهتمامه بوصف الغرائب التى كانت تقع عليها عيناه وإدعى انه شاهد حيوانا خرافيا احادى القرن يمثل رأسه مخلوقا ويمثل جسده مخلوقا آخر، وادعى ان هذا الحيوان يعيش داخل الحرم المكى وادعى ايضا انه كان هدية من ملك أثيوبيا.

واختبأ فارسيما حتى غادرت قافلة الحجاج وأخذ يتجول وحده على ظهر أحد الابل ووقع اسيراً وارسل مقيداً الى سلطان اليمن واودع السجن . ويستمر فى خيالاته ويروى انه كان واقفا عاريا فى نافذة سجنه وشاهدته السلطانة ووقعت فى غرام وجهه الابيض منذ اللحظة الاولى واستطاع أن يقنعها بتهريبه ومساعدته على الهرب ، وركب إحدى السفن البريطانية من ميناء عدن فى طريقه الى الهند ، وعاد الى روما ونشر كتابه بما يتضمنه من حكايات وغرائب.

وظلت الصورة التى قدمها فارسيما هى الصورة الوحيدة فى أوروبا حتى عام ١٧٠٤ عندما نشر «جوزيف بيت» كتابه.. الذى قدم فيه أول الصور التفصيلية لمكة والحرم، وكان بيت طفلا عندما خطف وبيع فى السوق كأحد العبيد فى الجزائر، وذهب مع أحد أسياده الى الحج كخادم مسلم.

ويصف «بيت» الرحلة وصفا مفزعا ويصب كل غيظه على المصريين الذى يمر ببلادهم ويصف فى تبرم مشهد الحجاج بعد ان لبسوا ثياب الاحرام ، ويبدى دهشته فى مكة حين يشاهد كل هؤلاء الفقراء الذين قدموا من بلاد بعيدة ويقفون فى هذه الحالة من الرهبة والجلال، ويصف وقفة عرفات بقوله.. «انه جبل عادى ولكنه مشهد الناس وهم يحيطون به يكفى أن يملأ آلاف القلوب بالرهبة . وبعد الحج هرب وعاد الى بلاده وكتب كتابه .

وإذا كان دى بشتالون قد ذهب سارقا .. وفارسيما سافر متخفيا .. وبيت أرغم على ذلك عبداً .. فقد سافر على بيك العباسى كأمير يتسابق الجميع على خدمته

بدأ رحلته فى طنجة سادما من اوروبا «بعد أن قضيت سنوات طويلة تعلمت فيها كل علوم الكفره (!).» وصل الى القاهرة واستقبله محمد على باشا ، وارسل معه قافلة كبيرة الى السويس وفى مكة كان شريف مكة فى استقباله ووصف مكة وأدهشه انه لم يكن بالمدينة لاصانع للسلاح ولا للاقفال لأن الناس لم يكونوا فى حاجة اليها.

ولد شتالون فى برشلونه ودرس العربية فى فاليسيا وزار لندن وعرض خدماته على الجمعية الجغرافية ووجد ميتا بالسم عام ١٨١٨م ويرجح أن المخابرات البريطانية هى التى قررت أن تتخلص منه.

بورخارت (مات في ١٥ اكتوبر ١٨١٧م) .. «رغم تجوالي في الشرق لم استمتع بمكان مثلما استمتعت بمكة، واذا سئلت عن مكان اتمني الاقامة فيه الى الابد فإن هذا المكان هو مكة.. «لقد أحب أهلها أحب كرمهم ووداعتهم وأحب المسجد الحرام ووصف كل حجر من أحجاره ووصف لياليه الجميلة خلال شهر رمضان عندما تضاء آلاف القناديل ووصف كل شعائر الحج وسمى نفسه الشيخ ابراهيم وكان يقدم نفسه على أنه من بقايا المماليك.

بيرتون مثل جوردن السودان من ساوثهامبتون التى غادرها عام ١٨٥٣ متنكرا في زى تاجر فارسي ووصل الى مصر فغير تنكره الى درويش متجول ، وفي القاهرة أقام في أحد الوكالات القديمة وأخذ يتردد على أروقة الازهر ليعرف المزيد عن مغامراته الجديدة.

فقد زار الحجاز بعد أن أتقن العربية والفارسية والتركية وعمد الى الاختتان وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وجرب تأثيرات الصبغات المختلفة على جلده وكان يعمل لشركة الهند الشرقية ومولته الجمعية الجغرافية البريطانية.

وبدأ رحلته في ابريل عام ١٨٥٣ بعد ان سمى نفسه الميرزا عبدالله بو شهر بوصفه أحد الحجاج الافغان، وكتب بعد رحلته هذه كلمات لا تنقصها الصراحة، قال: أن الذى لا يحتاج الى جهد للتنبؤ ان بريطانيا لابد ان تضطرها الظروف السياسية الى ان تحتل بالقوة ينبوع الاسلام وقبلته المقدسة.

ومن قبل بيرتون وصل الى مكة فى ١٨٠٧ يهودى اسبانى اسمه دوفيكو باديا اى ليبيلج بعد ان ارتدى ملابس المسلمين وسمى نفسه على بك العباسى.. وكان مكلفا بمهام خاصة من قبل الحكومة الفرنسية وكتب تفاصيل رحلته، وأصبح كتابه مرجعا للغربيين عن مكة.

وفى نفس الفترة في عام ١٨١٤ زار مكة جيوفانى فيناتى الايطالى باعتباره رجلا مسلما يدعى محمداً، وكان قد عمل عند احد الباشوات الاتراك ووصل الى القاهرة وانخرط فى سلك الحرس الالبانى وأصبح من حرس محمد على باشا ثم تسلل الى مكة.

وفى هذه الايام ومع نهاية القرن العشرين.. يوجد في كل بلدة بريطانية محل للهو ولعب القمار وارتكاب جميع المباذل تملكه مؤسسة واحدة، اختارت اسما لكل هذه المحلات كتب فوقه بالخط العريض وأنوار النيون اسم «مكة Mecca» البلد الذى يقدسه المسلمون امعانا فى السخرية واستخفافا بمقدساتهم .

وتكشف باستمرار الشمرر العدائي الذى ظهر سافرا أيام الحروب الصيليبية وعاد يطل برأسه من جديد فى ثوب علمى خداع فى كتابات الرحالة وظهر فى النهاية مبتذلا رخيصا فاضحا.

وستبقى مكة البلد المقدس، بها أول الحرمين وثانى القبلتين، ومهبط الوحى ، خالدة بخلود الإسلام .

أصداء الرحلة الحجازية

عندما نطبق المنهج النقدى على إحدى المراحل التاريخية المهمة ، أى فى فجر الإسلام خلال فترة الرسول والخلفاء الراشدين ، يقودنا هذا المنهج إلى الكثير من التصورات الحية التى تكشف طبيعة وخصائص المجتمع الاسلامى ، ونصل عندها إلى ما يمكن أن نطلق عليه «النظرية السياسية» فى الإسلام .

كان التاريخ هو لقاء الماضى بالحاضر من جانب وتسجيل الماضى بلغة العصر .

وهذه المجموعة الكبيرة من تراكمات الخبرة الحضارية ، سجلت الكثير من صور البحث والتأمل ، فالتاريخ الاسلامى يتضمن الكثير من الممارسات ، ولم تكن الخبرة الإسلامية يوماً مغلقة وهى تقدم نموذجاً حضارياً متميزاً من حيث خصائصه ومقوماته .

تعتبر الخلافة الإسلامية التى قامت فى المدينة النموذج الذى يحتذى وهى الفترة التى يستخلص منها الباحثون القواعد التى قامت على أساسها الدولة الإسلامية ، فهى أول محاولة قامت فى الجزيرة العربية لتنظيم الجماعة على أساس جديد لا يقوم على القبيلة وانما على أساس من المعتقد والإيمان بالله الواحد ، ولم تكن صدفة أن النواة الأولى للدعوة الجديدة ، تكونت من بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى وعمار بن ياسر الذى لم يكن قريشيا ولا مكيا بل

يمنيا ، وخباب بن الأرت الذى كان مجرد أسير عراقى .

ولم يقم النظام الجديد على أساس هرمى كهنوتى ، وإنما كانت الجماعة فى المدينة مثالاً لما بثه الإسلام فى رجاله من مساواة بصرف النظر عن الجنس أو اللون .

وحقق العرب وحدتهم لأول مرة فى التاريخ ، وقوضت الدولة الجديدة الدولتين العظميين دولتى الروم والفرس ، فهزمت الدولة البيزنطية وأجلتها عن كل من الشام ومصر ، وأنهت دولة كسرى وظفرت بأملاكها فى حملات عسكرية قام بها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن ابى وقاص فى أعظم الحملات التى عرفها التاريخ . وبلغ الفتح العربى الذى دفع به أبو بكر ذروته أيام عمر ، فامتدت دولة الإسلام من نهر جيحون فى آسيا حتى أقصى طرابلس الغرب فى أفريقيا ، وأصبحت هذه الدولة فى مدة قصيرة أعظم قوة فى العالم ، وتم فتح إيران وأذربيجان وجزء من أرمينيا أيام عثمان بن عفان .

وما حققته هذه المرحلة من نجاح وازدهار جعلها بحق الدولة النموذج ، التى تقدم أصولا ومنهجاً للتصور الإسلامى ، فعصر الخلفاء جزء من التكوين السياسى لتلك الدولة البازغة ، فالاسلام الذى يصلح لكل زمان ومكان ، فيه ثوابت مثل العقائد والعبادات ، وفيه متغيرات تتغير بتغير الزمان ، كطرق تطبيق وتنفيذ هذه المبادىء حتى تتكيف مع الظروف الجديدة .

وإذا حددنا معالم الدولة الإسلامية تبين لنا تلك الثوابت والمتغيرات . فقد استمرت الخلافة الإسلامية تسعة وعشرين عاماً من سنة ١١ هـ حتى ٤١ هـ (٦٣٢ م - ٦٦١ م) ، تولى الخلافة خلالها أبو بكر الصديق لمدة سنتين ، وعمر بن الخطاب عشر سنوات ، وعثمان بن عفان اثنى عشر عاماً ، وعلى بن أبى طالب خمس سنوات .

ويمكن استخلاص عدد من الإشارات والتنبيهات من هذا النموذج التاريخى ، أولها أن الإسلام لا يفرض نظاماً محدداً للحكم ويكتفى بوضع مجموعة من المبادىء تطبق فى كل عصر بمنطقه ومستجداته ، فقد ترك تنظيم الدولة لتبدل الأحوال وتغير الزمان ، مراعاة للتطور الإجتماعى وما يشهده العالم من مستجدات .

ويعتبر هذا العصر الذهبى الذى مر كالشهاب هو المرحلة النموذج ، وبعدها استمر الحكم بصورة ناقصة .

ونظام الشورى من المبادىء الثابتة التى لا تتغير بتغير الظروف والأحوال للحكم ، ويقوم على نصوص قرآنية .. «وأمرهم شورى بينهم» .. و .. «شاورهم فى الأمر» ، وفى عهد النبى الكريم كانت الشورى تتم فى يسر ، يجلس النبى ﷺ مع كبار الصحابة يستطلع رأيهم ، ولكن بعد إتساع دولة الإسلام كان لابد من الأخذ بما يتناسب مع هذا الاتساع ، وخاصة أن الخلافة الإسلامية قد استمرت نحو أربعة عشر قرناً ، واستمرت الخلافة حتى نهاية الدولة العثمانية فى ٣ مارس ١٩٢٤ أى سنة ١٣٤٣ هـ .

ويقوم الفكر السياسي على الشورى وعلى البيعة أو ميثاق أو عقد إجتماعي ، كما يقوم على التراضي والمصالح المتبادلة بين طرفين ، الحكام والمحكومين ، وتولى الحكم خلفاء يتم اختيارهم بالبيعة ، وبعد هذا العصر الذهبي تعطلت الشورى وتوقف الاجتهاد ، وسيطر الحكام المستبدون إلا في حالات نادرة ، وكان غياب الشورى أحد أسباب التدهور والتخلف العلمي والجمود الإجتماعي .

ويمكن إجمال المبادىء التي سادت هذا العصر فيما يلي :

- الاحتكام لإرداة الشعب التي تتحقق عن طريق الإجماع والبيعة الحرة في اختيار الحاكم .

- سقوط البيعة إذا خرج عليها الحاكم ، أو تجاوز حدود سلطته أو أساء استعمالها .

- لا يستطيع الحاكم أن يكون حاكما مطلقا ، فنزعت عنه سلطة التشريع .

كما يؤكد ذلك د . عبد الرزاق السنهوري في كتابه «أصول الحكم في الإسلام» – واقتصرت سلطات الحاكم على السلطتين التنفيذية والقضائية .

وكان عصر هؤلاء الخلفاء عصر تقشف في العيش وبساطة في الحياة . وفي العصر الحديث لم يعد لهذه البساطة مكان ، وأخذت

الشورى صورة المجالس النيابية ، وظهرت وسائل الاقتراع العام والانتخاب ، وغيرها من الوسائل للتعرف على إتجاهات الرأى العام الذى يمكن أن يتحقق بلمسة على جهاز الكمبيوتر .

أما ما يؤكد فكرة الفارق بين الثوابت والمتغيرات تظهر للعيان فى اختلاف طريقة اختيار الخلفاء الراشدين ، فالطريقة التى تولى بها الخلافة الصحابى الجليل أبو بكر الصديق تختلف عن الطريقة التى تولى بها عمر بن الخطاب التى تختلف بدورها عن تولى عثمان وعلى ، فقد تم إختيار أبى بكر اختياراً حراً فى اجتماع علنى مفتوح حضره من شاء من المسلمين ، وشرعوا فى انتخاب الخليفة قبل أن يدفن الرســـول ﷺ ، مما يؤكد صفة الاستعجال وأهمية اختيار الحاكم . وأبدى كل منهم رأيه حتى استقر الأمر عن رضا واقتناع ، وبويع بشكل أقرب للانتخاب ، وسبق وصدرت عن النبى إشارات عندما قال .. «انظروا هذه الأبواب فى المسجد ، فسدوها إلا بيت أبى بكر» وكان فى باحة المسجد أبواب تؤدى إلى عدد من بيوت كبار الصحابة ، وامتثل الجميع.

وعندما اشتد المرض بالنبى ﷺ قال .. «مروا أبا بكر فليصلى بالناس» وصلى خلفه النبى .

واختار أبو بكر عمر للخلافة من بعده ، بعد أن استشار فى ذلك بعض كبار الصحابة مثل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان قبل أن يختار عمر ، وتأكد بذلك من موافقة الأمة لهذا الاختيار ، فضلا على أن هذا الاختيار قد تم بمبايعة المواطنين له .

ويأتى بعد ذلك ما قام به عمر الخليفة الثانى ، عندما اختار ستة من المرشحين هم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وكلفهم باختيار مرشح منهم وعلى ألا يجعلوها لابنه ، وهذا يعنى أنه رجع إلى الرأى العام فى اختيار واحد من هؤلاء المرشحين، وأنه عندما إجتمع الستة وفوضوا عبد الرحمن بن عوف أن يختار من بينهم المرشح للخلافة ، فإنه قد بذل جهده للتأكد من إتجاه المحكومين ، وقام بهذه المهمة بكل دقة لمدة ثلاث ليال ، وعندما وقع اختياره على عثمان فإن هذا الاختيار قد أقره المواطنون كما حدث عند تولية عمر .

وعقب مقتل عثمان بويع على بن أبى طالب بالمدينة ، واعترف بالبيعة كل العالم الإسلامى واستتب الأمر لعلى، وجعل الكوفة عاصمة له . وبدأ التنافس بين الكوفة ودمشق أو بالاحرى بين العراق والشام .

وبمقتل على انقضى عصر الخلفاء الراشدين ، وأخذت الحياة تدور فى صراع أزلى بين الطبائع والشرائع بين الوقائع والمبادىء ، وقامت معارك ذات طابع سياسى ، الدين منها براء ، وليس هناك - كما يدعى البعض - سلف صالح وخلف طالح ، ولكنها أجيال يتوالى بعضها فى إثر بعض ، يظهر فى كل جيل الصالح والطالح .

الانتخاب والصحيفة

وهناك في فجر الإسلام بعض صور النظام السياسى التى وضعت اللبنات الأولى لفكرة إجراء الانتخابات وإصدار الدستور ، ذلك عندما طلب النبى من الأنصار فى المدينة إنتخاب إثنى عشر نقيبا يمثلونهم ، قال عليه الصلاة والسلام «اخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس» . ولعله بذلك كان يقرر أحد القواعد الأساسية لقيام المجتمع .

ومن جانب آخر صدرت وثيقة دستورية بعد حوالى شهرين من استقرار الرسول فى المدينة وقيام المسجد الذى أصبح ملتقى المسلمين ، واطلق عليها اسم الصحيفة والتى تحدد الحقوق والواجبات للموقعين عليها ، واستند الرسول إلى بعض نصوصها فى بعض الأحكام والمناسبات ، ويجب أن تعالج كوثيقة سياسية ذات طابع خاص وأساس للتفكير السياسى .

ويلاحظ أن هذه الوثيقة لم تكتب مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء ، وتطورت مع توالى الخطوب والأحداث ، وكما جاء فى الأثر ، احتفظ بها على بن ابى طالب فى قراب سيفه .

مما يؤكد حاجة المجتمع إلى دستور من أجل قيام بناء تشريعى لبناء الأمة ، ونبعت هذه الصحيفة من القرآن الكريم وهى تطبيق

لأحكامه ، وإصدارها يعنى تسجيل المسئوليات فى ميثاق مكتوب ، وعدم الاكتفاء بالتعهدات الشفهية ، وهى قاعدة إسلامية مقررة ، والعقد بين الحاكم والمحكوم لابد أن يكون مسجلا وواضحا ومحددا فيه الحقوق والواجبات يقلل قدر الامكان من فرص التملص والخلاف .

الإسلام والحكم

ولعب الدين دوراً حيوياً فى عهد الخلفاء الراشدين ، و يكفى قربهم الزمنى من نزول الوحى ودائماً يلعب الدين دوراً إيجابيا فى التأثير على وجدان أبنائه ، يهذب أخلاقهم يحببهم فى العدل وينفرهم من الفساد والظلم ، ولكن السؤال هنا .. هل قدم الاسلام نظاما خاصا وطريقة محددة لاختيار الحكام ؟ ، وقد شاهدنا التجربة التاريخية التى لم تقدم هذه الطريقة المحددة ، وبالتالى تجد أن الاسلام والحكم المدنى يسيران جنبا إلى جنب فى اتساق وانسجام .

فاقسى أنواع الاستبداد هو ذلك الذى يمارس باسم الدين ، عندما تجد الحاكم وكأنه يملك تفويضا إلهيا ، أعماله مقدسة ، ومعارضوه مارقون خارجون ، رغم أن إرادة الأمة هى التى تعبر عن إرادة الله ،

ورأينا بعد انتهاء العصر الذهبى ، كيف قام الحكم بالقوة ، فكل أسرة حاكمة سواء فى ذلك الأمويون أو العباسيون ، أو من جاء بعدهم يجمعون بين أيديهم السلطتين الزمنية والدينية ، ويعتبر الحاكم كل من خرج عليه إنما خرج على الدين ..

وظهرت آراء سياسية بلا سند مثل أن الخليفة ينبغى أن يكون قريشياً ، بينما يرى الشيعة أنه لا يكفي أن يكون قريشيا بل يجب أن يكون هاشميا ، وتصدى لهم بعض الفقهاء منهم ابن خلدون والمعتزلة ، يرون أن الخلافة متاحة لأى مواطن وحجتهم الحديث الشريف .. «إسمعوا وأطيعوا لو ولوا عليكم عبدا حبشيا» ..

وأفضل جهاد عند الله قول كلمة حق أمام سلطان جائر .

وفى العصر الذى نعيشه أصبحت السيادة للشعب بلا منازع ، والتيار الفكرى الذى عبر عن روح الإسلام هم أولئك الذين قرروا أن تنصيب الحاكم هو «طريق الاختيار والبيعة والعقد ، واستناد الحاك إلى الشعب ، وعزله وارد يأتى من الأمة وهو جزء من مهامها .. وهو بالتالى منصب سياسى .

كما يلاحظ أن فكرة فصل السلطات التى جاءت مع عصر النهضة فى أوربا هى أحد المعالم الرئيسية للنظام السياسى أيام الخلفاء الراشدين خاصة بالنسبة للسلطة التشريعية المستقلة تماما عن الخليفة فسلطة التشريع لمجموع الأمة يتولاها أهل الحل والعقد .

وشرط الإجماع كمصدر للتشريع ، هو نواة المبدأ الحديث الذى يجعل إرادة الأمة هى مصدر السلطات خاصة أنه لا يشترط اليوم

وجـود الإجـمـا ع بمعنى أن تتـفق الأمـة بكل أفـرادها ، بل يرى د . السنهورى أن إتفاق الأغلبية كان لتحقيق الاجماع .

فإذا كان الحاكم لا يملك أن يصدر تشريعاً ، فكيف يعطى لنفسه حق التعبير عن الارادة الالهية ، فاذا كان هذا الحق لا يملكه الحاكم ، فكيف يعطى اليوم بعض المتعصبين لأنفسهم حق الفتوى والتشريع ؟ !.

ويمكن القول أن السيادة فى الإسلام لا يملكها فرد مهما تكن مكانته ، وإنما هى للأمة فى مجموعها ، كما أنه ليس فى الاسلام كنيسة تقرر له .

الاستبداد الشرقى

وهذا الحديث الذى يبدو واضحاً ، كان محل جدل طويل خدمة للحاكم ، لذلك لا يزال التراث الإسلامي السياسى غامضا بالنسبة لأبنائه ومشوها من غير أبنائه ، ويلاحظ ندرة الأبحاث السياسية والفقهية التى تبحث السلطة السياسية فى الإسلام ، ولعل سبب هذه الندرة هى حساسية تناول علاقة الحكام بالمحكومين فى زمن الاستبداد، وهى علاقة حكمتها فى أغلب الأحيان الطبائع وليس الشرائع ، وكان أبرز ملامحها التاريخية هو الاستبداد ، حتى أصبحت فكرة الاستبداد الشرقى إحدى النظريات التقليدية التى شاعت فى الفكر الأوربى خلال القرن العشرين .

وهذه بعـض النمــاذج لتلك الكتـابـات ، فـمـا كتبه « أبو الحسن على المــاوردى » فى كـتـابه « الأحكـام السلطانيــة » ، يخـدم به السلطـان لا القـرآن ويضع السلطان فوق النـاس والتشـريع ويجيـز الاستـبـداد ، ومما يقـوله بالحـرف الواحـد .. « إن أهل الرأى إذا عـقـدوا بيـعـة إمـام (حـاكـم) ، لا يجـوز نقـضـهـا لمخلوق لأن الرعيـة عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام ما وسعتهم الطاعة» .

ويدعى «أبو حامد الغزالى» فى كتابه . «الاقتصاد فى الإعتقاد» أن : «القضاة معزولون ، الولايات باطلة ، والأنكحة غير منعقدة ، وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة . والخلق كلهم مقدمون على الحرام ، عند الخروج على الحاكم» . .

ويقول فى ذات السياق الفقيه محمد بن ابراهيم بن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ) (١٢٤١ - ١٣٣٢ م) .. «إذا خلا الوقت من إمـام ، فـتـصـدى لها من ليس من أهلها ، وقـهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو اختلاف ، انعقدت بيعته ولزمت طاعته .. ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً ..»!! .

وكان من مصلحة السلاطين أن يتخذوا من الدين درعاً يحمى عروشهم ، ويصدوا الخارجين عليهم ، حتى روجوا أن عصيانهم من

عـصيـان الله ، وجـعلوا السلطان ظل الله فى الأرض ، وهـذا أدى إلى البعد عن النظر فى علوم السياسة .

وبقى «التاريخ الحى» وعدد غير قليل من الفقهاء الذين تصدوا لهذه القضية وألقوا الضوء عليها ، ومنهم من دفع ثمنا غاليا لموقفه هذا .

فـالعـلاقـة السيـاسـية فـى الاسـلام ، هى عـلاقـة مـباشـرة وبسيطة ، لا تعرف الوسيط والعلاقة بين المواطن والحاكم هى علاقة بين متسـاويين ، والتمـيـز لا يعـدوا أن يكون تميزا وظيـفـيا ، ويجـمع النموذج الإسلامى بين خـصـائص كثـيرة ، ويخلق توازنا بين الحـاكم والمحكوم ، ولا يتـجـاهل أن السـيـادة وليـدة القـوة ، وأن القـوة هى الشرعية .

ابن خلدون

ومـن الـذين تنـاولوا نظرية الاسلام السيـاسـية ، العلامة ابن خلدون ، والذى قدمها فى مقدمته فى إطار رؤيته الاجتماعية ، وقرر أن الخـلافـة الخـالصـة كانت ى الصدر الأول للإسلام وإلى آخـر عـهـد علـى بـن أبـى طالب ، ثم تحـول الأمـر إلى ملك ، وبقـيت الخـلافة من تحـرى الـدين ومذاهبـه والسير على منهـاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبية وسيـفـا ، وهكذا .. ثم ذهبت مـعـانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصـار الأمـر ملكا بحتـا

وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت فى أغراضها ، من القهر والتقلب فى الشهوات والملذات ، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والملك فى الطورين ملتبسا بعضهما ببعض ، ثم ذهبت رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وتلاشى أحوالهم ويبقى الأمر ملكا بحتا كما كان فى ملوك العجم» ..

أما السياسة عند ابن خلدون فهى قوانين سياسية يسلم بها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، ويميز بين ثلاثة أنواع من نظم الحكم ، الحكم الواقعى الذى تسيطر عليه القوة ، والحكم السياسى المبنى على قواعد العقل ، والحكم الاسلامى المبنى على شريعة الله .

الحكومة الدينية

ومن المفكرين المعاصرين الذين أدركوا خطر الاستبداد على الشرق ونادى بمدنية السلطة والحكام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وعارض المحاولات الرامية لإقامة حكومة دينية . ولا يمكن إغفال كتابات عبد الرحمن الكواكبى فى هذا المجال .

ويذكر فى كتابه الإسلام والنصرانية .. «الأمة أو نائب الأمة هو الذى يختار الحاكم ، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى

التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه» ..

ويقول فى موضع آخر .. «ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير» ويقول .. «ليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. إن الشورى فى الأمور الشرعية واجبة ، ومن رامها فقد رام أمراً شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعا ، بحيث لو منعناه لا كتسبنا بذلك إثما مبينا .

وقد أدرك الأستاذ الإمام أن أكثر ما يشهرونه فى وجه الاسلام الزعم بأنه ينادى بحكومة دينية تتعرض فى ظلها قيم الحرية للخطر ، وهى تسلب الناس حرية عقولهم ، ويخشون سطوة الحاكم الذى يدعى أنه يحكم باسم الدين ، ولا يمنعه شىء من الاستبداد بالمحكومين .

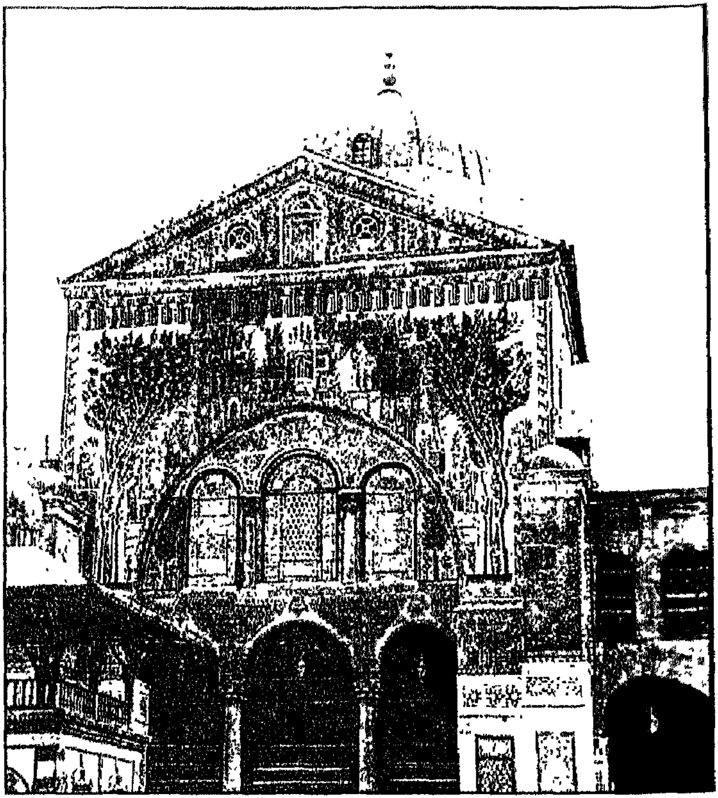
وشهدت أوربا فى القرون الوسطى الحكومة الثيوقراطية أى التى تستمد شرعيتها من السماء والتى تقوم على الإيمان بالحاكم وما ينادى به باعتباره أوامر مقدسة لا تناقش ، وباعتبار الحاكم رجلا ملهما معصوما لا يخطىء وهو دائما الأقوى والأذكى من سواه وكانت أيام سوداء سادها الظلم والظلام .

ودفعت أوربا من دماء أبنائها الكثير لكي تتخلص من وطأة هذا النوع من الحكم وصاحب هذا التطور تغيراً في الأفكار والقيم السائدة وتطور الفكر السياسي مع عصر النهضة ، فكان الفيلسوف توماس هوبز يدعى أن سلطان الملوك مقدس وحقهم إلهي ، وذلك الذى يضفي عليهم شرعية مقدسة ، وظهر بعده جون لوك الذى أكد أن سلطان الحاكم يستمد من العقد الاجتماعي بينه وبين شعبه ، ووجدت الحركات الإصلاحية في هذه الأفكار متكأ لها في التغيير من أجل النهضة .

ويبحث العالم العربى اليوم - بل والشرق - على من يغوص في أعماق الخبرة التاريخية وينقل معانيها بلغة العصر ، ويصل إلى مجموعة القيم والأفكار التي يتكون من نسيجها التصور العام للعلاقة بين المواطن والسلطة ، آخذين في الاعتبار صعوبة إنقطاع الاستمرار والإتصال ونسعى إلى تحديد المفاهيم وتطوير النظم القائمة .

خاصة وتجتاز اليوم العرب حالة من الحيرة والتجاذب بين التعصب والتجديد ، وفي التجديد الملاذ والخلاص . مما يلقى على المسلمين مهمة أن يصلحوا أمورهم ويلحقوا بركب الحضارة ويفهموا دينهم ودنياهم على ضوء عصرهم ، لا من خلال أحلامهم وأمانيهم .

ونظام الحكم فى الإسلام يختلف من مجتمع إلى أخر ، ومن عصر إلى آخر لأن القرآن الكريم لم يورد بيانا عن نظام حكومة خاصة ، والسبيل إلى إقامة هذه الحكومة هو ما تدلهم عليه أوضاعهم ، وقدرتهم على أن ينصهر الماضى والحاضر فى بوتقة واحدة ويعيشا متناغمين متصالحين .



الجامع الأموى أثر باق يمثل التعبير الفنى والحضارى عن دمشق الأموية

الفصل الثانى

دمشق الفيحاء

هذه إذن دمشق ..

القلب والرمز معا، التي مر بها صلاح الدين في طريقه الى صد الغزو الصليبي القادم من الغرب، ومر بها الظاهر بيبرس عندما واجه الغزو المغولي القادم من الشرق .

دمشق البشر والحضارة والثقافة والتاريخ، هي التي ذهبت أبحث عنها، تلك التي كانت عاصمة الدولة الاسلامية في النصف الأول من القرن الأول الهجري، الدولة التي امتدت من مشارف الصين وحتي جنوب فرنسا ..

«الكثير من الدروب تقود إلي دمشق» قول قديم تردد صداه وانا في طريقي اليها، وعندما كنت اتنقل في شوارعها وبين أحيائها وأقف متأملا آثارها، واستنشق عبير غوطتها، فكم شهدت من الحوادث والخطوب ..؟!

وتماوجت الصور أمام مخيلتي ..

فهذه «دمشق» المدينة والرمز لجيل عربي، عاش معارك الاستقلال والتحرر، وداعب أحلامه «مشروع عربي» يعود فيه للعرب دورهم كأصحاب رسالة وحضارة ويتعاملون مع العالم بالأخذ والعطاء وليس مجرد مستهلكين للبضائع والأفكار .. !

وتتلاحق مسرعة صور التاريخ القريب .

* قادة الثورة العربية معلقون علي اعواد المشانق في ساحة المرجة بعد ثورتهم علي العثمانيين .

* أول مؤتمر يعقده نواب الشام وفلسطين وشرق الأردن ولبنان كنواب دولة واحدة بعد دخول فيصل الأول إلي دمشق .

* عددٌ قليل من الجيش العربي يواجه القوات الفرنسية الغازية في معركة ميسلون .

* صورة أهل الشام متوجهين إلي دمشق لاستقبال عبدالناصر ويحتفون به ويحملون سيارته ويحملونه معها أمالا عريضة في المستقبل.

الحركة لا تنقطع في دمشق، ولاتكاد تري فيها ركنا ينعم بالهدوء، يحتل أبناء العاصمة بروحهم المرحة المقبلة علي الحياة اماكنهم علي المقاهي، والسيارات متزاحمة وسط المدينة، الاطفال يلعبون في الأزقة، ولا تنتهي الحركة ولاتسكن الضوضاء إلا مع سكون الليل .

إن مجرد جولة في انحاء دمشق تكشف معالم «عبقرية» موقعها، والذي يحدده كل من جبل قاسيون ونهر بردي وبساتين الغوطة ..

اشاهد بانوراما دمشق من فوق ربوة عالية في جبل قاسيون وتشاهد لوحة فنية عناصرها أحياء المدينة الجديدة التي امتدت حول دمشق العتيقة بمساجدها التي تبلغ ٢٥٠ مسجدا في منظر خلاب مع الساعات الأولي للصباح، تري المدينة تستيقظ والحركة تدب فيها مع خيوط الشمس الذهبية، وتظهر لوحة عناصرها احياء المدينة المختلفة واسواقها و مساجدها تلتحم ببساتين الغوطة، ويظهر الفرق والحوار المتصل بين القديم والجديد ..

ويأتي جبل قاسيون عند الدمشقيين بعد جبل عرفات، فعنده تتكسر الرياح الباردة، وهو لدمشق كتاج من الماس فوق رأسها، والتي يمتد جسمها بين أمواج متلاحمة من البيوت والأشجار ..

ومن موقع جديد المس إلى أى حد تدين دمشق بوجودها إلي تلك الواحة الفيحاء التي تحيطها من طريق دمشق - بيروت، الذي يخترق غوطة دمشق وبساتينها، والتي تنتشر فيها المطاعم والمقاهي فوق الربي والي جانب شلالات بردي، ويقضي فيها الدمشقيون عطلاتهم يحتسون القهوة ويدخنون النرجيلة ويلعبوز الطاولة في الهواء الطلق، وتري كيف توفر الغوطة لدمشق حاجتها من الغذاء ؟!

إن موقع دمشق قد خطه التاريخ والجغرافيا معا ..

يصفه الدكتور جمال حمدان بقوله . «تقع علي هامش الصحراء علي نقطة بين الرمل والطين، بين البدو والحضر، بين اللامعمور والمعمور، مما جعلها سوقا للتبادل بين البدو والزراع، وهي شامة علي خد الصحراء السورية، كونها نهر بردي الذي أقام أكبر واحة في الشام، ما وفر القاعدة لمدينة خالدة، وتقع في أهم محورين للحركة التاريخية والتجارية في الشام، وهما المحور الطولي علي طول اقدام المرتفعات الشرقية ابتداء من اسيا الصغري حتي الجزيرة العربية وإلي اليمن، والمحور العرضي الذي يتوسط ويحتل اخطر فتحة جبلية موضعا، وهي فتحة بيروت/ دمشق التي تسهل الاتصال بالساحل

والداخل عن طريق هذا الممر الجبلي، ومن هنا كانت ميناء صحراويا مهما منذ قت مبكر، وكانت بحق بوابة صحراء الشام وصحراء العرب، وبوابة بغداد بوجه خاص، وهى فى هذا كانت مدينة القوافل المثالية وكانت التجارة عنصرا محوريا في نشأتها وازدهارها ..»

ورغم أنها ليست الوسط الجغرافي لسوريا، فهي تتطرف نحو الركن الجنوبي الغربي، الا انها تتوسط قلب المعمور ..

وقد ادرك الكاتب البريطاني باتريك سيل هذه الأهمية لوضعها الجغرافي السياسي، فقال: «إن الذي يقود الشرق الأوسط لابد له من السيطرة علي سوريا لأسباب عديدة، منها موقع سوريا الاستراتيجي الذي يشرف علي الممرات الشمالية الموصلة إلي مصر، وعلي الطريق البري بين العراق والبحر الأبيض المتوسط، وعلي شمال الجزيرة العربية والحدود الشمالية للعالم العربي، فسوريا مركز مراقبة جيد، يمكن منه رصد سياسات الدول الكبرى !» .

دمشق داخل الاسوار

فى دمشق القديمة يجد العربى ذاته ..

ودمشق القديمة التي يحيط بها السور يتراكم ويتداخل فيها تاريخ خمسة عشر قرنا ، فيها تـ.اقبت الحضارات، والتحم المحاربون، والتقت الامبراطوريات القديمة والحديثة لقاء الصراع والدم..

ومازالت علامات دمشق العتيقة قائمة : السور وأبواب دمشق وقلعتها والجامع الأموى والمساجد التى تعود إلى عصور متتابعة،

والأسواق العربية وحمامات دمشق الشهيرة ، فالقلب القديم مازال ينبض بالحركة والحياة ، فى المقاهى والمطاعم والاسواق ..

والقلب يقاوم الحصار والزحف القادم من كل مكان ، زحف الشوارع الواسعة والبنايات الخرسانية الحديثة، ويتشبث أهل دمشق ببقايا التاريخ..

ويخفق القلب لهذه البقعة التي استمرت بملامحها علي مر التاريخ بارادة تاريخية لا تقهر ، وهي التي تهز الوجدان وتعيد للاذهان خلود دمشق ومجدها ، وتسمع حتي همسات جدرانها القديمة، ولسان حالها يقول ، هنا متحف حي يحفظ جزءا مهما من البقية الباقية من الحضارة العربية ..

وتكاد تكون دمشق نموذجا يحمل كل ملامح المدينة الاسلامية ، ومن أغنى المدن العربية بالفن العربى والطابع العربى ، ولقد كان للمثل الذى يجرى علي ألسنة أهل دمشق معنى خاص ، والذى يقول باللهجة الشامية «اللى مالو عتيق .. مالو جديد..»

والقلب ، اقصد دمشق القديمة تقوم على ربوة عالية من اربعة تلال صغيرة ، يقوم على إحداها الجامع الأموى، فيفرض هيمنته ودلالته التاريخية على دمشق كلها ، وتحيطه الاسواق وأحياء التجار والحرفيين ثم الضواحى التى تحولت إلى احياء بعد تراكم الوافدين إليها والتى كانت فى الماضى محطات للقوافل..

ولا يفوت زائر دمشق القديمة هذا الخيط الذى يربطها بأيام الأمويين..

فما زال يقطع دروبها الضيقة المسقوفة «الشامى» بسراويله الفضفاضة وعمامته المميزة ، يسير إلى جانبه بدوى لوحته الشمس وقد غطى رأسه بكوفية وعقال يقطع هذا التناسق أزياء اوربية حديثة يرتديها عدد من المارة ، والنساء السافرات يعبرن الطريق جنبا إلى جنب مع المحجبات بزيهن القديم ، وتغير الفارس الذى كان يمتطى صهوة جواده ، وأصبح يقود سيارته «السوزوكى» اليابانية .

ومازال جو دمشق له طعم خاص ومعبق بروائح مميزة، ومازالت دمشق القديمة تقسم إلى حارات وأحياء ، ولكن لم يعد التقسيم كما كان على اسس قبلية

ومازالت الأحياء القديمة تضم مسجدا وحماما وأسواقا وبابا يغلق خلال الليل ، لكل حى شيخ وحارس ، ومازالت هذه الأحياء حافلة بلمحات من العمارة العربية ، والشوارع الرئيسية مازالت لاتنفذ إلى المساكن ، بل تتفرع إلى دروب وهذه تتفرع إلى أزقة أو دخلات تصلك فى النهاية إلى البيت الدمشقى ، ومازالت الأحياء القديمة تختلط بالأسواق بعد أن ضاقت المدينة القديمة بسكانها ، ومازالت الأسواق مقسمة، سوق للخيل فى الناحية الشمالية ، وسوق الفحم فى الناحية الجنوبية ..

وكثيرا ما تستوقف المتجول في دمشق القديمة صور كأنها من القرون الوسطى ، مثلا ، باب ضخم لزقاق البرغل ، أو ترى بيوت الحي وقد تقاربت مشربياتها حتى تكاد تتلامس وتحجب الشمس عن الزقاق..

يخيل إليّ ان كل الأزقة تقود إلى أسواق دمشق وتنتهى بك عند الجامع الأموى ، وهذه الاسواق لها نفس ملامح الاسواق الشرقية والعربية الأخرى ، سوق للعطارين وآخر للخياطين وثالث للصاغة، وسوق الهال .. وهكذا .

وبنيت هذه الاسواق مسقوفة ، وأضاف إليها العثمانيون القباب، وتمتلىء الأسواق بكل ما تفاخر به دمشق من السيوف المحلاة بآيات من القرآن وأشعار كتبت بماء الذهب ، والمنسوجات الدمشقية الشهيرة مثل البروكار وأجود أنواع الحرير الدمشقى ، والمنتجات الدمشقية الخشبية المطعمة بالصدف..

ولم تفلت هذه الأسواق من زحف المنتجات الحديثة، الصوف الانجليزى والأجهزة الألكترونية والصابون من فرنسا وأدوات التجميل من ألمانيا وهكذا ..

وأنسب وقت لزيارة سوق الحميدية ، أيام الحج، عندما يتوقف الحجاج فى دمشق ، وهم فى طريقهم إلى بيت الله الحرام ، ومازال بعض الأفغان والأتراك والباكستانيين يمرون بمدشق فى طريقهم البرى إلى الحج ، والبائعون الشوام مهرة فى إغرائك بالشراء.

استمرت اسواق دمشق على مر العصور تجذب اهتمام زوارها ، فوصفوها وسجلتها لوحاتهم ، ومازالت الصورة القلمية التى رسمها السائح البريطانى بورتر فى القرن التاسع عشر قائمة ، يقول : «من الممتع التجول بين هذه الاسواق ومشاهدة البضائع المتعددة، وامام كل حانوت مصطبة، التجار يجلسون عليها بين بضائعهم، ويمارسون عمليات البيع بحذق ومهارة ، وحقا تستحق هذه الاسواق زيارة الأجنبى الذى يشاهد الأزياء العديدة والمعروضات الثمينة من السيوف الدمشقية، والبورسلين القديم، والدروع والاسلحة المطعمة بالذهب والفضة، والقباب الموشاة بالذهب ، وأنواع السجاد الشرقى الثمينة».

البيت الدمشقى

ونواة دمشق العتيقة ووحدتها الرئيسية هى البيت الدمشقى ، والذى قادنى إليه تلك القاعات التى التقيت فيها بعدد من المسئولين والأصدقاء ، وهى على نسق البيت الدمشقى القديم، وتحول عدد من هذه البيوت إلى مزارات ومتاحف وزرت منها بيت العظم ، والبيت الذى أعد ليكون متحفا يضم كل الصور واللوحات التى رسمت أو التقطت لدمشق على مر العصور . والبيت الثالث الذى زرته هو بيت النعمان عند باب شرقى والذى اقيم عام ١٨٦٥ ، وتراكمت فيه الفنون العربية من أزمنة مختلفة.

ويشعر اهل دمشق بالحزن والأسى عندما تضرب المعاول احد هذه البيوت الباقية وفيه بكمن كل عناصر الجمال والفن العربى ، وهو عالم

كامل صغير إذا تجولت فيه أدركت أن منزل الدمشقى هو قلعته وليس منزل البريطانى كما درج عليه المثل الانجليزى . فلكل بيت بهو داخلى تتوسطه نافورة حولها اشجار البرتقال والليمون والتمر حنة .

وطرازه هو خلاصة الفنون التى ارتقت مع الزمن وترجع أغلب البيوت القائمة حاليا إلى أيام العثمانيين وليس له شكل خارجي جذاب ، فقد أقيم لساكنه وهو عالى الجدران مفتوح القلب ، وهو مثل غيره من البيوت العربية في بغداد أو القاهرة، به باحات واسعة ، تطل غرفه عليها من الداخل ، و تظلل باحته الاشجار والرياحين ، وبه ايوانات وقاعات مزخرفة ، يقودك مدخله إلى الصحن المزين بالاقواس والزخارف الحجرية وغيرها من العناصر الفنية ، و يتكون من طابقين تمضى العائلات الشتاء فى الطابق العلوى الذى يكون دافئا لتعرضه للشمس ، وتمضى الصيف فى الطابق الأول الذى يكون رطبا معتدلا ..

وحتى الشرفات تتجه إلى داخل البيت ، أما إذا كانت إلى الخارج فتكون على شكل مشربيات تحجب سكان البيت عن أعين الفضوليين ! ، ولم يكن يرتفع مبني وسط هذه المنازل سوى مآذن المساجد وترى داخله الفنون الدمشقية ، الآيات 'القرآنيه والاشعار والحكم العربية تتعشق مع النحاس وعروق الفضة وتتعشق عروق الياسمين مع خشب السلم ، وترى اعمالا فنية بديعة من الصدف والموازييك .

وزود البيت الدمشقي منذ زمن بعين بمياه جارية تصل إليه فى نظام محكم ساعد عليه جريان بردى ونبع الفيجة وطبوغرافية دمشق ،

وتأتى المياه من المرتفعات المجاورة فى الغرب ، وتمر مياه بردى فى كل دار ومسجد ومدرسة . والتى تتميز بعذوبتها وبرودتها حتى فى أشد أيام القيظ! .

وتصل إلى «عالم» البيت الدمشقى ، عبر منعطفات ضيقة ، ومن خلال بوابات تغلق فى المساء فأى أمن وسكينة يشعر به ساكنه ..؟!

ويرجع نظام توزيع المياه إلى أيام الأمويين، ومازال اسم يزيد يطلق على القناة المتصلة بنهر بردى والتى شقت فى عهده ، وتوجد بعض الحمامات القديمة التى تشهد على هذا النظام ، وتشهد أيضا على الحياة الاجتماعية الغنية التى كانت تعيشها دمشق عندما لم يكن مألوفا ما يعرفه الناس من الاستحمام فى المنازل ، بل تقتصر الحمامات الخاصة على بيوت الحكام والامراء ، وينقل أحمد حلمى العلاف فى كتابه دمشق فى مطلع القرن العشرين صورة معبرة عن مكانة الحمام فى الحياة الاجتماعية يقول . «تدعو ام العروس اقاربها واقارب العريس إلى الحمام ، وتأخذ الحمام كله لحسابها ، لا يدخله سوى المدعوين من أقارب الزوجين، ويقيم فيه الجميع «السماط» ، وهو طعام خاص لجميع المستحمات، حتى اذا كان العصر ، خرجت العروس وحولها الجميع ترتفع اصواتهن بالزغاريد حتى دار ابيها ، بعد ان يعد أهل العروس من القريبات والصديقات للعروس مرتفعا تجلس عليه وتأتى «الماشطة» ترجل شعرها وتشبكه بأمشاط مختلفة اللون والشكل خاصة بالعروس،

وكلها مزركشة بالاحجار الكريمة، ثم «تحفف» وجهها ويديها ورجليها ، وتضع عليها المساحيق والعطور ، ثم تأتى بدهن اسود تلون به حاجبى العروس ، ثم تضفى على وجهها مسحوقا ذراته لامعة يسمى «عرق الستات» . فاذا انتهت مهمة الماشطة تقدمت الخياطة فألبستها ، ووضعوا عليها ستارا شفافا وامروها ألاتتحرك ولا تنظر إلى أطرافها ولا تبتسم ..! .

أما العريس فبدوره يستأجر الحمام لحسابه ويذهب إليه مع ذويه وأصدقائه ، ويستدعى الحلاق فيصلح شأنه ويعطيه «حلوان» حلاقة العريس ..» ويمضى يروى المناسبات المتعددة التى يشهدها حمام ذلك الزمان ، وقد استمر الحمام يقوم بوظيفته كملتقى اجتماعى فى المناسبات المختلفة حتى عهد قريب.

وقد كان آخر إحصاء لحمامات دمشق عام ١٩٤٠ يصل إلى سبعين حماما ، على ما ذكر المهندس الفرنسى ايكوشار ، بعد ان الف كتابا من جزأين عن حمامات دمشق وعمارتها ، وسجلت الآثار منها تسعة حمامات كمبان أثرية يمنع هدمها ..

الجامع الاموي

وكل دروب دمشق القديمة تقود إلى الجامع الأموى، فيها يلاحقك التاريخ أينما ذهبت وأهم أثر اموى، هو المسجد الجامع التى تعتبر زيارته متعة فنية وروحية والذى ينقلك مشهده إلى لوحة تتزاحم فيها

جحافل الفاتحين ، وقوافل التجار والبنائين ، وحلقات العلماء العرب والمفكرين والشعراء..

وللعرب قول مشهور : «لاشيء ابقى ذكرا من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا ..».

والمسجد الاموى أثر باق ، يمثل التعبير الفنى والحضارى عن دمشق الأموية ، يقودنى إليه طريق قديم ، يضيق ويزدحم بمرور الاعوام، اقف وجها لوجه امام علامة تاريخية مهمة..

وفى هذه البقعة الصغيرة التى لا تتجاوز مساحتها ٢٠٠ ياردة ، توجد آثار، ثلاثة عصور ، وثلاث حضارات تاريخية متميزة ، ما تبقى من معبد جوبيتر وضريح يوحنا المعمدان والمسجد الاموى.

أدخل إلى المسجد الاموى ، انتقل من صخب المدينة إلى صمت عميق ، لا يسمع فيه سوى إيقاع وبلاغة وألوان عمارة المسجد الأموى، ابواب المسجد الضخمة كأنها ابواب التاريخ ، اول ما يشد انتباهك عجلة خشبية كبيرة من العصر العثمانى فى باحة المسجد ..

ها هو المسجد الأموى الذى أبقى عليه الزمن فى حالة جيدة، وهذه هى نقطة البداية لمعظم التطورات المعمارية الاسلامية اللاحقة، انتقل نمطه إلى جميع ارجاء العالم الإسلامى.

وهو شقيق المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة فى القدس ، وتمتد تأثيرات عمارته إلى المسجد فى رحلة طويلة خلال القرون الأربعة

عشر الماضية، من الصين وحتى المحيط الاطلسى ، ويأتى هذا المسجد بعد مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس من حيث المكانة التاريخية ، وقد اقيم فى العهد الاموى جامع سيدى عقبة في القيروان وجامع الزيتونة فى تونس ، ويتكامل الجامع الاموى فى دمشق مع جامع قرطبة فى الاندلس مع جامع ابن طولون وجامع الازهر فى مصر.

واهم ما يميز الجامع الأموى تلك اللوحات التى رسمها الفنان العربى فوق جدرانه وعلى أعمدته ، وهى لوحات من الفسيفساء تمثل القرى والمدن التى تحف بها الاشجار والرياض والأنهار ، والتى كانت تغطى سائر جدران الجامع وأقواسه وما بقى منها ثروة فنية كبيرة ، هذا الفن الذى ولد وسط النهار وازدهر تحت انظار سكان دمشق ، واعتمد علي مصادر جديدة للابداع ، واستمد إيحاءه من عالم النبات ، وعالم الكائنات الحية، وعالم الاشكال الهندسية، وعالم الحرف الذى كتب به القرآن الكريم.

وتعددت النظريات حول لوحات المسجد الاموى، فبعضها يقول: إنها مشاهد من مدينة دمشق على مر العصور ، والبعض يرى أنها تمثل مشاهد النعيم كما جاءت فى القرآن ، فقد صور الفنان العربى القصور التى تجرى من تحتها الانهار ، ونظرية ثالثة تذهب إلى أنها تسجيل عدد من المدن والاحداث التاريخية كما يراه اهل ذلك الزمان . وتمضى هذه النظرية قائلة ان اللوحة فى الرواق الغربى تصور احداث انطاكية،

واخرى تنقل ما شهدته القسطنطينية، والثالثة تصور القدس ومبانيها وشوارعها وأسوارها ، ولوحة مهمة فوق برج تراكمت عليه مراحل التاريخ المتعددة..

وتظهر هذه الرسوم مذهبة ومرصعة بالأحجار الكريمة، وقد ترك لنا العالم الجغرافى المقدسى وصفا لتلك اللوحات التى لم تقو على مغالبة الزمن، وكان أحد الحكام قد سترها بطلاء من طين ، وبقيت محجوبة إلى ان كشف عنها عام ١٩٢٨ ، وقد طمرت عندما تغلبت النظرة المتخلفة للفن والتى صاحبت عصور الانحطاط والتدهور فى التاريخ العربى ..! .

اضافات للعمارة

وقد ابتكر هذا الجامع العديد من العلامات التى اصبحت تميز العمارة العربية، العقود التى تشبه حدوة الفرس محمولة على الدعائم والأعمدة والتى تصل إلى مائة نافذة محيطة بالصحن - نافذتان داخل كل قوس والمآذن والمحاريب ، ووحدات النقش والزخرف .. والجامع بكامله يتجه نحو القبلة، ويحتل قسمه الشمالي صحن مكشوف عليه قبتان جميلتا العمد والتيجان ، ووسط المصلى يقطع أروقته الثلاثة رواق مرتفع اطلق عليه اسم «النسر» تشكل القبة رأسه ، والرواق القاطع جسمه ، والأروقة عن يمين وشمال جناحيه ، وتعرف هذه القبة بقبة النصر..

ووسط المصلى بناء صغير هو ضريح النبى يحيى بن زكريا - يوحنا المعمدان ، والذى أدت الروايات التاريخية وجود رأسه مدفونا فى هذا المكان المقدس .

والواقف فى باحة المسجد الأموى تتلاحق امامه الصور التاريخية ، ومن هذه الصور التى حفظتها الذاكرة العربية ، موكب موسى بن نصير بعد انتصاره في الاندلس ، ذلك الموكب الذى احتفلت به دمشق ، فقد كان يضم اربعمائة من افراد العائلات الحاكمة القوطية، تزين رؤوسهم التيجان ، وتطوق خصورهم الأحزمة الذهبية ، وفى أثرهم جموع الأسرى يحملون نفائس الغنائم..

وشهد المسجد الأموى يوما مشهودا ، فلم يسبق أن شوهد مثل العدد من امراء الغرب والاسرى الأوربيين ذوى الشعور الصهباء «..وتلك الايام نداولها بين الناس.....» .

تطرح عمارة المسجد الاموى قضية ، كانت موضع بحث لدى المهتمين بالعمارة الاسلامية من المستشرقين ، وهى محاولة التأكيد على أن كل اضافة فنية تمتد إلى مدارس الفن التى سبقتها ، فهل هى تعود إلى الفن البيزنطى أو الساسانى ، وكأن لسان حال المستشرقين يقول : كيف يتحول عرب الصحراء إلى أعظم بنائين فى عصرهم ...؟ ويستبعدون امكانية خلق آراء هندسية ذات مفاهيم فنية دقيقة على العرب ! .

وقد كان من العسير على اغلبهم إدراك الطاقة الحضارية التى جاء بها الاسلام ، والتي جعلت الفنان العربى قادرا على امتصاص كل ما سبقه ، و إبداع اشكال فنية جديدة تتفق مع القيم الجديدة والحاجات المتجددة، وان هذه القدرة انعكست على الفنون وعلى غيرها من نواحى الحياة.

هل معنى ذلك صحة الرأي الآخر الذى ينفى عن الفن العربى أى تاثيرات خارجية ..؟

على العكس تماما ، فمعيار ازدهار الحضارة وما تبدعه من فنون يقاس بمدى قدرتها على التفاعل الخلاق مع ما سبقها ، التعامل المصحوب بالقدرة على الانتقاء والهضم.

ان هذا ما ينطق به «اول نجاح معمارى فى الاسلام» ، فقد كان جديدا تكرار وحدات فنية بغير نهاية، وابتكار اشكال هندسية متلاحقة توحى بحياة الصحراء ورتابتها ، ترى فى الأقواس والاعمدة والقباب شبها قويا مع تقوس النخيل فى الصحراء ، واطراد النسق الإيقاعى فى الزخرف بالنسبة للعين الشرقية مثل اللحن للأذن الغربية ، فهذا الفن القائم فى المسجد الأموى أحد نتائج التفاعل بين عقيدة ونظام حياة..

ماذا بقي من الامويين..؟

أخذت أبحث فى دمشق القديمة، فى طرقاتها وبين آثارها ، وفى بطون مكتباتها عن المجد التاريخى الذى عاشته يوم كانت عاصمة

لأقوى دولة فى عصرها ، تلك الدولة التي قامت بعد الانتقال بالعرب من الوضع القبلى إلى الدولة الواحدة، والتى حملت المضمون الحضارى والانسانى الذى جاء به الاسلام ، المرحلة التى عاشت انتقال الرسالة من الثورة إلى الدولة..

ودمشق كانت أيام الأمويين أجمل مدن العالم، وحاضرة العالم الاسلامى ، وكانت قبل الاسلام ، مدينة مزدهرة ، ومقرا للحاكم الرومانى ، وقامت عاصمة بنى أمية على أنقاض الدولتين الساسانية والبيزنطية ، وكانت فترة حكم دمشق فترة التجربة الكبري فى التاريخ العربى ، وعند قيامها كانت عربية لم يدخلها بعد جماعات قومية متعددة يوم ان كان الاسلام يطمح فى ان تنتشر رايته فى كل أنحاء العالم.

واقصى طموح – الكاتب – أن يقدم قراءة عصرية لهذه الحقبة التاريخية ، كما يتناولها «الرحالة» وليس كما يتناولها المؤرخون ، ساعيا لربط الحاضر بذلك الجزء من الماضى الذى مازال حيا ينبض ، نرى بعض وقائعه بنظرة القرن الخامس عشر الهجرى..

وجاذبية هذه القراءة تأتى من ان العديد من الظواهر السائدة اليوم تمتد إلى هذه الفترة التاريخية ، وان العديد من القضايا التي اثيرت والصراعات التى نشبت مازالت مفتوحة ...! وكثيرا ما يوجد بين ما يجرى من أحداث وبين هذه التى يدور رحاها اليوم خيط يمتد على طول القرون الاربعة عشر الماضية .

إذن فهى قراءة عصرية فى ملف قديم لم يغلق بعد ..

قراء ة تلتقط من الدراسات والمخطوطات «العبرة» ، من وسط الصراع الذى تشابكت فيه الأفكار مع السيوف والجياد فى نسيج واحد، عندما اصطدمت وتصارعت شخصيات كبيرة عملاقة، كل منها له دوره ومكانه الخاص فى فجر الرسالة الاسلامية، عندما كان جانب من هذه الاحداث يجرى في دمشق، بل وتتناول هذه القراءة شخصيات أضفى عليها دورها السابق على الصراع قداسة خاصة ، ورغم كل هذه المكانة فقد كان على أهل ذلك الزمان، ان يحددوا اختيارات شاقة ومواقف حاسمة..

وامامنا مصدران لهذه الفترة ، أحدهما ما رواه المؤرخون ، والآخر ما كتبه الأدباء من مؤلفات مثل كتاب الاغانى ، والعقد الفريد ، الذى ينقل تفاصيل الحياة الاجتماعية لهذه الحقبة التاريخية..

ولا ابحث هنا عن احكام اخلاقية ، أو اتبرع بشهادات البراءة أو الإدانة ، بل ابحث في موازين القوى وتطور الاحداث فى سياقها التاريخى..

وتزخر الكتابات القديمة بأحكام بالادانة من الشيعة على قتلة حفيد رسول الله ، وهؤلاء الذين ضربوا الكعبة الشريفة بالمنجنيق ، وأخرى كتبت في العصر العباسى متأثرة بأهواء الخلفاء العباسيين..

ولم يعد يجدى اليوم - أحكام البراءة أو الإدانة، ولم يعد يجدى تأجج صراعات مضى عليها كل هذه السنوات ، والتى انقسم خلالها المسلمون فى صراعات سياسية إلى سنة وشيعة وخوارج ومرجئة وغيرها من المذاهب التى مازالت قائمة! .

ولقد كان لانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة إلى الكوفه ، ثم من الكوفة إلى دمشق ارتباط وثيق بهذه الأحداث ، فالمدن مثل الانهار ، كم تجرى فيها من أحداث ؟ ، فهل يكفى اتساع دولة الاسلام سببا لانتقال العاصمة وتحرك الوسط الجغرافى من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق ؟.. ان السياق التاريخى يحكى القصة.

فبعد ان بويع على بن أبى طالب بالخلافة نقل عاصمة الخلافة وبيت المال من المدينة إلى الكوفة ، وخلال «الفتنة الكبرى » تنازعد «العاصمة » مراكز ثلاثة:

أحدها : دمشق وبيت المقدس ، والثانى : الكوفة والبصرة ، والثالث مكة والمدينة ، وكانت أقلهم حظا مكة والمدينة ، عندما بدا وكأن الجزيرة العربية قدمت إلى الانسانية رسالة ونبيا وجيشا مقاتلا، ثم عادت تلعب دورا معنويا باحتضان كل من مكة والمدينة المقدسات الاسلامية . وعدداً متزايدا من العلماء والفقهاء والصحابة وأبنائهم..

واستمر الصراع بين الكوفة وبين دمشق ، حتى تولى معاوية الخلافة عام ٤١هـ - ٦٦١م فى بيت المقدس ، ونقلت عاصمة الخلافة

إلى دمشق ، ولم تصبح القدس العاصمة لقربها من البادية . أما دمشق فتوافرت لها الشروط التى منها بعدها عن البحر ، عندما لم يكن العرب قد ألفوه ، ووقوعها بين الحضر والصحراء ..

واختار معاوية مقر حكمه بين عرب الشام ، بعد أن تولاها عشرين سنة عندما عينه عمر واليا عليها .. وبعد ان انتزع عمرو بن العاص مصر من شيعة على واستمر الحجاز فاترا فى علاقته بالخليفة الجديد ، أما العراق فوقف إلى جانب الحسن بن على..

وانتقل مركز العالم الاسلامى بالفعل إلى خارج الجزيرة العربية، واصبحت الشام قاعدة الدولة ، واعتبر معاوية وارث مجدها القديم.

معاوية فى الميزان !

من يكتب عن دمشق لابد له ان يتوقف عند شخصية معاوية ، فكانت شخصيته نقطة تحول فى التاريخ العربى كله ، وارتبط اسمه بدمشق ، ومازال قبره عند الباب الصغير جنوب دمشق العتيقة..

وقد استمر معاوية مثل سواه من الشخصيات التاريخية محل خلاف شديد على مر العصور، وكان توليه الخلافة حدثا بالغ الخطورة ، وانظر فى العبارة التى جاءت في تاريخ الخلفاء للسيوطى عن الامام ابن حنبل أنه سأل أباه عن على ومعاوية ، فقال : «اعلم ان عليا كان كثير الاعداء ففتش له أعداؤه عيبا فلم يجدوا فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيدا منهم له ..!!» وهى عبارة تكشف ذلك الصراع

التاريخى الذى بدأه معاوية بحق الثأر من قتلة عثمان ، ووصل به إلى الحكم عن طريق خدعة التحكيم ، وبحجة أنه ابن عم الخليفة المقتول ، وصاحب الحق فى الثار لمقتله ..! .

هذا ، بعد ان ظل معاوية واليا على الشام عشرين عاما ، فلم يعزله عمر على كثرة ما كان يغير العمال . ثم جاء عثمان وغير عمال عمر جميعا إلا معاوية ، وكان قد ورث عن ابى سفيان قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته ..

وولد معاوية بمكة قبل البعثة النبوية بخمس سنين ، واسلم يوم فتح مكة مع ابيه واخيه يزيد وامه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة..

ووصفه معاصروه بأنه ابيض جميل طويل احلج ، وقد اصابته لوقة فى آخر عمرة فكان يستر وجهه، وعرف عنه السمنة وكبر العجزين ، ولم يزل يفرط فى مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن القيام طويلا ، فكان يخطب على المنبر وهو جالس . وكان أول من جلس فى خطبة منبرية ...

أما عن صفاته فقد لخصها عباس العقاد فى عبارة واحدة : «رأس الدولة الاموية كان رجلا قديرا ، ولكنه لم يكن بالرجل العظيم .. » ، وعلى العكس يضعه ابن خلدون فى صف الخلفاء الراشدين ويقدم له المعاذير فى إسناد ولاية العهد إلى ابنه يزيد ، فى حين يشكك عدد من المؤرخين فى عدالة دولته ، بعد أز قامت على الغصب والقهر ..

وتتوالى الأحكام ، فيقول عنه صاحب الفخرى : «كان معاوية عاقلا في دنياه ، لبيبا ! عالما ، حليما ، ملكا ، قويا ، جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا، عاقلا حكيما فصيحا ، بليغا، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان اغلب عليه ، وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة شغوفا بها..»

ويحدد المستشرق نيكلسون معالم شخصيته بقوله:

«كان سياسيا محنكا، لا يقل فى مضمار السياسة عن ريشيليو وقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من ان يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة فى جميع القوى المعارضة ..» .

أما اوسبرن فيقسو عليه بقوله : «كان أول الخلفاء الأمويين داهية مذبذبا ، قاسى القلب ، لا يحجم عن أية جريمة يكون اقترافها ضروريا لتأمين سلطانه ، وكان القتل طريقته المعتادة فى التخلص من أعدائه فهو الذى حرض على دس السم لحفيد الرسول، وعلى قتل الاشتر النخعى مالك بن الحارث، احد قواد على الابطال بالطريقة ذاتها ..» .

ولكى يضمن انتقال الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد لم يتردد فى ان ينكث بالعهد الذى قطعه للحسين بن على ، ومع ذلك فقد كان بعيد النظر ، حكم دولة المسلمين ، وبقيت الخلافة فى عائلته قرابة تسعين سنة..» .

ما له وما عليه

وبقى السؤال الذى تردد على طول التاريخ ، وهو هل يعتبر العهد الأموى ضمن دولة الاسلام واستمراراً لعهد الخلفاء أم أنه خروج عليه..؟

وكانت أيسر الاجابات ان مجرد تحول الحكم إلى الوراثة هو خروج عن دولة الاسلام . وهى نظرة من يرى الامور بين الابيض والأسود ، ويتجاهل مئات الالوان بينهما ، فبعد ان مضى عصر* النبوة والخلفاء الراشدين ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ودخول جماعات مختلفة قومية ودينية ، انتقل الاسلام من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة ، وعاد إلى الظهور من جديد الصراع الانسانى بين المثل العليا والطموحات البشرية بين الشرائع والطبائع! .

وفى حياة معاوية دليل على ما أقول ، فهى حياة تزخر بما له وما عليه:

فى عهده شهدت الدولة الأموية الموجة الثانية من الفتوحات، والتى أعقبت الموجة الاولى فى عهد الخلفاء الراشدين.

وقد قام معاوية طوال مدة حكمه بمحاربة الروم فى البر والبحر فى همة وبلا انقطاع ، مما لانجده عند من جاء بعده ، وقد طرق عاصمة أعدائه «القسطنطينية» مرتين.

وفى عهده وخلال حكم الأمويين ، تم وضع الاطار العام لمجتمع عربى اسلامى ، وظهر تفكير تشريعى فقهى اسلامى ، وظهرت وظيفة

المحتسب الذى يوكل إليه مراعاة الاخلاق والسلوك العام ، وقدم الاسلام للعالم تنظيما جديدا لحياة الناس ، وتبقى دائما فجوة تتسع أو تضيق بين النظرية والممارسة الفعلية .

وانتعشت في عهده كتب السير والتاريخ ، فكان معاوية يشغف إلى سماع سير الابطال وتاريخ الشعوب، ويروى المسعوى عن معاوية ، انه كان يستمر إلى ثلث الليل فى اخبار العرب وايامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم ويحضر الدفاتر التى بها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، ويقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والاثار وأنواع السياسات..

وقد استخدم قصاصا من اقاصى اليمن هو عبيد الجرهمى ليحدثه بأخبار السابقين ، والذى ألف كتاب «الملوك وأخبار الماضين».

استطاع معاوية ، بعطاياه ومواهبه ، ان يكسب العديد من خصومه السابقين ، وكان يجادلهم ويسمع بصبر كلامهم القاسى ، وكان يقول . يا بنى أمية، فارقوا قريشا بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما ، فارجع وهو لى صديق، إن استنجدته انجدنى ، وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، وفى العقد الفريد .. قدم معاوية المدينة بعد

عام الجماعة «٤٠ هـ» فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا ابنة اخى: إن الناس اعطونا طاعة واعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلما تحت غضب ، واظهروا لنا ذلا تحته حقد ، ومع كل انسان سيفه ، ويرى موضع اصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولان تكونى ابنة عم امير المؤمنين خير من تكونى امرأة من عرض الناس ..»

وكان من عادات معاوية ان يجتمع بعد صلاة الجمعة فى المسجد إلى رؤوس القوم يباحثهم ن على المنبر ، الذى كان بالنسبة إليه منصة للحكم ..

وانظر فى هذا القول الغريب الذى جاء فى الأثر .. «قلوبنا مع على.. وسيوفنا مع معاوية » ! .

وكانت ممارسات معاوية السياسية درسا فى الحكم والسياسة، يفوق ما جاء فى كتاب «الامير» لميكيافيلى ، وكان لا يلجأ إلى القوة إلاّ كارها ، ولم تظهر فى الدولة فتنة إلاّ كانت جرثومتها سياسة التفرقة التى اتبعها ، وكان لا يطيق ان يرى رجلين ذوى خطر على وفاق ، ويقول: «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا »، وأيامه شهد المسلمون مجموعة من التغيرات السياسية العاصفة ، وخرج الأمر من ورع الخلافة إلى أبهة الملك ، وكان الخلاف

حول ظاهرة السلطة وفلسفة الحكم هو اول خلاف ، واعظم خلاف ، واطول خلاف ..

وسانده فى سياساته فلسفة القضاء والقدر لدعم نظريته السياسية، وكان ظهور الفكر الجبرى تبريرا لانتقال السلطة ، وتغير طبيعتها ، اذ كان معاوية يقول : «ولو لم يرنى ربى اهلا لهذا الأمر ما تركنى واياه ، ولو كره الله ما نحن فيه لغيره ، وانا خازن من خزان الله تعالى ، اعطى من أعطاه الله ، وامنع من منعه الله ، ولو كره الله امرا لغيره .. !!»

وجاء الرد من العالم الفطن حسن البصرى (١١٠ هـ ـ ٧٢٨م) بعد ذلك فى عهد عبد الملك بن مروان ، والذى انكر تعارض القدر مع حرية الانسان ، واحتج على ظلم الولاة الذين يبررون أعمالهم بالقدر .. !

وكان أهم أسباب الثورة على دولة بنى أمية ، أنها قامت على الأخذ من جانب الحاكم، حصل الحاكم على السلطان والأموال ، وعاد تيار العشائرية التى لا يتفق مع طبيعة الدعوة الجديدة ، وانتقلت الأمة الى «الملك» ، وطبع بنى أمية الحكم بطابع العرش القيصرى البيزنطى التى كانت تقاليده سائدة فى الشام .

وترك لنا التاريخ حكم على معاوية من اولئك الذين اسقطوا الدولة الأموية ، من العباسيين ، فبعد القضاء على الأحياء من البيت الاموى ، فى مذبحة تشبه مذبحة المماليك ، عندما دعوا إلى مأدبة صلح مزعوم . وأجهز خلالها عليهم جميعا ، ولم يسلم حتى الاموات من الخلفاء السابقين . فنبشت قبورهم ، وجلد بعضهم قصاصا من ثأر قديم ..

ومع كل هذا العنف ، وفى ظل هذه العاصفة الهوجاء ، لم يمس كل من قبر معاوية بن ابى سفيان ، والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز .

ولا يفوت كل من يتناول الدولة الأموية إلا أن يلاحظ أهم ما حارب به العباسيون الأمويين ، التأثير على المؤرخين حتى يصبغوا لون الأمويين بلون قاتم مظلم ، ولون العباسيين بلون زاهر ناضر .

ورأينا ما كان بين الشاميين والعراقيين من قتال ، عندما إنحاز الشاميون إلى معاوية والعراقيون إلى على ، وترامو بالأقوال كما تراموا بالسهام ! .

وازدهرت فى أقل من خمسين عاما - من آخر أيام الدولة الأموية الى قيام الدولة العباسية ، أغلب العلوم و كانت قد دونت ونظمت سوا فى ذلك العلوم العقلية من علوم الرياضة والمنطق والفلسفة فالشام أقرب الى الجزيرة العربية ، ونزل عرب الجزيرة أطراف الشام وسكنوها ، وقد عرف العرب الشام والشاميين ، لذلك انتقل اليها ريادة الشعر ونشأ النثر حول القصور والدواوين فى دمشق ، وزعيم ذلك هو عبد الحميد الكاتب.

وكان من الطبيعى ان يكون غلبة العلم والفن تبعا لغلبة السياسة والقوة .

المتحف المسكون

نعود إلى دمشق ، إلى المتحف المسكون ، إلى البقعة التاريخية التى يحيطها السور فى العديد من أجزائها ، ويروى جانبا من تاريخ المدينة

العريقة ، والتي تكملها ابوابها التسعة والتي لم يبق منها سوى سبعة أبواب ليس من بينها باب النصر .. !

بدأت جولتي مع السور عند باب توما ، الذي يرتفع عنده السور بأحجاره الضخمة ويصل إلى ما يزيد على خمسة أمتار ، ويختلط السور فى العديد من أجزائه بمبانى المدينة ، وعلى يمين باب توما تشاهد أحد أحياء دمشق المتواضعة ، والذى رأيته من أجمل مناطق دمشق ، بيوت دمشق القديمة تطل على نهر بردى فى محاذاة السور، ولكل بيت جسر خاص يصله بالطريق ، ويتلوى السور ويتعرج مع النهر فى منظر خلاب ، يختلط فيه الجمال بالتاريخ .. وعلى هذا الجانب من السور كان النهر يستخدم كخندق للدفاع عن المدينة .. وتتبعت السور ما وسعنى ذلك ، بعد ان تغيرت العديد من أجزائه ، وقد حمى نهر بردى هذا الجانب من السور ..

وعاش السور مع دمشق أيام سعدها وأيام شقائها ، فتهدمت اجزاء منه عام ١٣٢ هـ عند هجوم العباسيين على المدينة ، وأعيد تحصينه فى عهد نور الدين عام ٥٤٩ هـ ، واقيمت له ابواب لم تكن قائمة مثل باب الفرج وباب النصر وباب السلام ، وأقيم فوقه ابراج دائرية ، وبقيت من أبراجه برج نور الدين الواقع جنوب باب الجابية فى خان السنانية ، وبرج الملك الصالح ايوب الواقع شرق باب توما ، واستفاد المجددون من أبوابه القديمة فأصلحوها واستعملوا بعضها ،ومنها البابان اللذان

يصلان إلى طرفى الشارع المستقيم الذى يقطع محور دمشق ويصل الباب الشرقى بالباب الغربى .. وأعيد ترميم السور مع توالى العصور .

وتظهر قلعة دمشق شامخة من مواقع متعددة ، وهى تقع فى الزاوية الشمالية الغربية من دمشق القديمة ، وتمتد من باب الفرج فى السور الشمالى الى محل باب النصر عند مدخل سوق الحميدية ..

وتحكى القلعة حقبة تاريخية مهمة من تاريخ دمشق ، فقد عاصرت مواجهة الغزوين الصليبى المغولى ، وفيها أقام نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس من حكام مصر والشام ، ومن هذه القلعة قاد صلاح الدين جيوشه إلى حطين وانطلق منها الظاهر بيبرس لتطهير البلاد من التتار ، إنها مازالت تحتفظ بأكثر ابراجها واسوارها

وأخيرا تم ترميمها ، وأقيم أمامها تمثال صلاح الدين الأيوبى .

كل يوم ثوب جديد ..

ابتعد عن مجال دمشق القديمة ، وادخل إلى دمشق الجديدة ، دمشق العمارات الشاهقة والشوارع العريضة ، اجوس فى أحيائها ، واجلس فى فنادقها ، وأتجول فى أسواقها ..

ودمشق هنا فى تغير مستمر ، ولها كل يوم ثوب جديد ، تنمو بسرعة تفوق أى توقع ، ويظهر حزام وراء حزام من الأحياء الجديدة ، ومن علامات تغيرها ، الجسور التى تقام فوق مفارق الطرق المزدحمة ، والمبانى الحكومية الجديدة .

أما الأحياء الجديدة والتى تمتد فى حى المزة ، وتقيمها جمعيات البناء التعاونية ، وينتقل إليها أثرياء دمشق الجدد ، فيتوافر لها الشوارع العريضة والمتنزهات والمبانى الفاخرة ..

وعندما التقيت بأحد العائدين إلى دمشق والذى قضى عشر سنوات يعمل فى الخارج ، وعاد اخيرا ليستقر ويتزوج ، قال لى : «إنى لا أكاد اتعرف على دمشق الجديدة ، كل ما ألفته تغير ومنذ وصولى الى المطار عندما لم أجد مطار المزة القديم ، بل اصبح المطار الجديد يبعد عن دمشق ١٦ كيلو مترا ، ثم هناك ما احدثه التوسع العمرانى والتهامه للمنطقة الخصبة من غوطة دمشق كان يمكن ان تمتد الأحياء الجديدة نحو الشمال الشرقى لدمشق .!» .

وأخذنى أحد ابناء دمشق فى جولة بالسيارة ، وكانت هذه المرة فى الأحياء التى تقع بين دمشق القديمة ، وتلك الأحياء الجديدة ، إنها الأحياء التى تقف بين القديم والجديد ، ويشتد فيها الحوار بين القديم والجديد ، بدأت الجولة من حى المهاجرين الذى يقوم تحت سفح جبل قاسيون فى الطرف الغربى من الصالحية ، والذى نزله قديما المهاجرون من مسلمى كريت ، واستمر نقطة جذب للأسر الدمشقية الموسرة ، ثم انتقلت إلى أحياء الجسر وعرنوس والشهداء ، وهذه الأحياء أقامتها الجالية الفرنسية أيام الاستعمار ، وهى تمتد بين الصالحية ودمشق القديمة ، وقد أقامها الفرنسيون على الطراز الغربى ولكنها لا تخلو من نفحات الطراز الشرقى ..

اما السوق الحديث فقد أقيم فى شارع الصالحية ، والذى فيه أحدث الموديلات وجميع المنتجات ، وانتقل إلى هذا الشارع المؤسسات الحكومية والتجارية وأصبح حى الاعمال ، ويقطع حى الصالحية عدة شوارع مثل شارع ابو رمانة ، شارع السفارات الاجنبية . وارستقراطية دمشق التى بدأت تغادره إلى الأحياء الجديدة ، بعد ازدحامه وانتقال الشركات والاجانب إليه ، حتى يصل شارع الصالحية إلى الأحياء الواقعة على سفوح قاسيون .

ويمضى مرافقى شارحا .. «فى الوقت الذى أقيمت فيه أحياء المهاجرين والاكراد على سفوح جبل قاسيون ، ترعرع حى الميدان جنوب دمشق ، والذى تميز بطابعه الدينى والتجارى ، واسمه يعود إلى أيام الامويين ، فقد كان اسمه قديما «ميدان الحصى» ميدان فسيح لسباق الخيل ، وقد تكون من قدوم مهاجرين عرب من المغاربة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، هربا من الاستعمار الفرنسى والايطالى ، وقد اقاموا خان المغاربة ، والذى اخذ يمتد طوليا ، ونزل هذا الحى أيضا عدد من تجار نجد ، واقاموا فيه سوق الجمال ، وسكنه أيضا جنود ابراهيم باشا بعد عودته إلى مصر عام ١٨٤٠ ، وعرف حيهم بحى المصاروه ..

ويعرف هذا الحى بمواقفه الوطنية ، وقد هدم الفرنسيون جزءا منه عند اشتداد الثورة ، ومازال هذا الحى يحمل طابع القدم والعراقة ،

ومازال يجذب أبناء الريف القادمين إلى العاصمة ، وجميع حاراته وأزقته متشابهة ، ضيقة ومتعرجة ، وينتهى جنوبا عند باب مصر ، الذى كان ينطلق منه المسافرون إلى مصر والحجاز .

أما إذا اتجهت شرقا فى الطريق المؤدى إلى حلب ، فستقابل حى القصاع ، وهو الحى الذى مازال يقطنه الارمن بالقرب من باب شرقى..

سكان دمشق

«مدينة دمشق كانت تشبه لوحة من الفسيفساء ، تعددت ألوانها ، وتنوعت مصادرها، أما دمشق الجديدة ، فلم تعد تقيم وزنا لهذا التركيب القديم ، بل تصهر المجموعات المختلفة فى بوتقة واحدة .. ، وهو ما تلحظه عندما تسير فى دروبها ، وتسمع من الرواة قصص الأحياء التى يقطنونها ..

ودائما كانت البادية والريف مناطق طرد بشرية إلى دمشق ، يتراكمون فى أحياء على أطرافها ، حول نواة من القادمين الاوائل ، فمثلا تركز المسلمون الشيعة فى حى الشيعة فى محلتى الخراب والجورة ، ولهم مزاراتهم الخاصة فى مسجدى السيدة زينب والسيدة رقية ، اما الاسماعيليون فيسكنون فى الجزماتيه وزقاق الحشاشة فى حى الميدان، والدروز يسكنون فى زقاق التيامنه فى حى الميدان ، ويسكن أقليات دينية أخرى فى شرق المدينة ، المسيحيون فى القصاع وباب توما وباب شرقى ، وفى الجنوب من باب شرقى يقوم حى اليهود

.. وكذلك حال الأقليات الأخرى ، فرغم تفرقها فى أرجاء المدينة ، لا تزال الأحياء التى سكنتها فى الماضى تحمل اسمها إلى اليوم ، وهكذا نجد على سفوح جبل قاسيون حى الشركس وحى الأكراد .. ! .

وترى دمشق فى حالة تغير مستمر ، ولها كل يوم ثوب جديد ، يظهر حزام وراء حزام من الأحياء الجديدة ، تقام بها الجسور والانفاق عند مفارق الطرق .

ينتقل الى الأحياء الجديدة أثرياء دمشق من الطبقات الجديدة ، وتمتد بعد حى المزة ، وتحافظ الأحياء الجديدة على قدر من الذوق ومعالم العمارة العربية ، ففى بعض الأحياء لا تتجاوز العمارات ثلاثة طوابق .

ومن المبادرات الجادة لعلاج مشاكل العاصمة والحفاظ على طابعها القديم ، وخلق توازن بين القديم والحديث ، تأسست جمعية اصدقاء دمشق ١٩٧٧ ، وتتكون من عدد من الشخصيات الدمشقية .

وفى حديث طويل مع أحد أعضاء الجمعية ، قال : نراقب بأسى التغيرات السريعة التى تقع فى دمشق ، المبانى العالية التى تطاول السحاب ، الفنادق الكبيرة التى تفتتح - افتتح حديثا فندق الميريديان وفندق الشيراتون - وحمامات السباحة التى انتشرت وأرى الحياة العصرية تهدد الحياة ذات الطابع الخاص التى كانت تميز دمشق .. »

ويتم هذا إلتوسع دون دراسة كافية لاثاره ، وفى ظل فوضى التخطيط ، وتضارب مدارسه ، فمثلا ادخل الفرنسيون الميادين الواسعة

والشوارع العريضة ، ثم أخذت دمشق عن النظام الامريكي فكرة فصل منطقة العمل عن منطقة السكن ، ومن النظام الالماني اخذت فكرة فصل مناطق العمل والانتاج الصناعي عن الأسواق ودور السكن ، وبالفعل نقلت الكثير من المصانع الى القابون وباب شرقي ، والذي فات واضعي المخطط العام أهمية الحفاظ على الشخصية الدمشقية الخاصة ، والنتيجة عدم الالتزام بالمخطط العام ، والذي سبق وحدد المنطقة الخضراء ، ولم يلتزم به احد ، وقد وضع عام ١٩٦٨ وساهم في وضعه المهندس العالمي الفرنسي ايكوشار وخبير ياباني هو يون شويا ، ووضع هذا المخطط آخذا في اعتباره التغيرات المتوقعة حتى عام ٢٠٠٠ ، ولكن سرعان ما تغيرت كل أسسه فمثلا بالنسبة لعدد سكان دمشق ، توقع المخطط العام ان يصل عددهم إلى مليون ونصف عام ٢٠٠٠ ولكنهم وصلوا عام ١٩٨٠ الى ٢,٥ مليون نسمة ، يضاف اليهم نصف مليون يدخلون دمشق نهارا للعمل ، اى ضعف تقدير المخطط العام ، ومن ناحية أخرى حدد المخطط العام ، مناطق التوسع العمراني عند اطراف المدينة ، وعلى سفوح الهضاب المحيطة بدمشق ، ولكن الأحياء السكنية التهمت مساحات كبيرة من الارض المزروعة .. » .

وكل ما نستطيع ان نفعله في جمعية اصدقاء دمشق ان نلقى المحاضرات ونقدم الدراسات ونخلق الوعي عند محبى دمشق وساكنيها ».

وتلك المشاكل التى تواجهها دمشق هي في الواقع نفس المشاكل التى تعانى منها أغلب العواصم العربية والتى تبدأ من مشاكل الهوية

والطراز ومواجهة النمط الغربى الغلاب فى تطوير المدن ، الزيادة الكبيرة لسكان العواصم ، والضغط على المرافق والخدمات وما يتبعه من مشاكل التموين والانتقال والمرور والهاتف ، واخيرا الارتفاع المتصل فى الاسعار ..

دمشق من فوق مقعد حلاق

الصدفة وحدها هى التى كشفت مخطوط كتاب البديرى الحلاق، والصدفة أيضا هى التى أظهرت ما يزيد على ٢٨ ألف صورة للشام ، أما كيف قادت الصدفة الى كتاب البديرى الحلاق فلذلك قصة ..

أراد أحد الشيوخ «أن يشترى بعض العطارة فوضع له العطار ما باع فى ورقة مكتوبة ولما عاد الشيخ الى بيته فتح الورقة وقرأ ما فيها ، وأدرك أنها جزء من مخطوط تاريخى ، فعاد إلى العطار واستطاع أن يحصل على بقية الأوراق .. »

أما الصور فقد عرفت أول مرة عندما وصلت بعثة امريكية الى دمشق فى محاولة تحقيق ثروة من الصور التى تم العثور عليها ، وقد تبين أن بعض هذه الصور قد تم شراؤها من تاجر بريطانى ، ثم أودعت منذ عام ١٨٨٩ فى مخزن متحف هارفارد وبقيت فى الصناديق بعد أن نسى كل شىء عنها ، وفى عام ١٩٧٠ وقع انفجار فى سقف الطابق العلوى لمبنى المتحف خلال مظاهرات الطلبة احتجاجا على حرب فيتنام، وعندما ظهرت الصناديق التى لا يعرف احد محتوياتها . وقام

أمين المتحف بفتح هذه الصناديق المجهولة ، أذهله قيمة ما عثر عليه ، فهذه الصور تنقل تفاصيل البيئة الشامية ، ويمكن من خلالها الكشف عن عمارة دمشق ، وحياتها الاجتماعية فى فترة مهمة من التاريخ ، واعتبرت هذه الصور من أكبر وأقدم ما عثر عليه .

وجاءت البعثات إلى دمشق تسعى لمقارنة الصور بما شهدته دمشق من تغيير ، كما تسعى إلى تحديد الأماكن والأشخاص التى تظهر فى صور هارفارد .

والخطوط والصور يتناولان حياة دمشق خلال الفترة العثمانية ، ويكمل كل منهما الآخر ، صحيح أن بينهما فترة زمنية ولكنها استمرار لذات المرحلة التاريخية ، أما كتاب «حوادث دمشق اليومية» فهو ليس للبديرى وحده فالبديرى قد جمع مادته من أفواه الناس الذين يترددون على محله ، وكتبها وصنفها بأسلوبه ثم جاء الدكتور عزت عبد الكريم فقدمه وحققه .

يتناول سجل البديرى الحلاق فترة من الحكم العثمانى للشام والذى امتد أربعة قرون ، ومادة هذه الفترة التاريخية نادرة ، أو لعلها موجودة فيما تزخر به الوثائق التركية التى مازالت مجهولة لنا بالاضافة إلى ما كتبه بعض الرحالة الأجانب مثل فولتى فى رحلته إلى كل من مصر والشام بين سنتى ١٧٨١ ، ١٧٨٥ م . ولم يكن قصد البديرى الحلاق تدوين تاريخ بلده ، ولكنه كان يسجل الأحداث التى ينفعل بها خوفا من

النسيان ، أو لعل حرفة الأدب.قد أدركته فجعلته يسعى إلى التعبير عن مشاعره فيما يجرى من حوله والتنفيس عن عواطفه ، وخلال سجله اليومي كتب رأيه فى الناس والأحداث التى شهدها ، فجاءت يومياته صورة فريدة نادرة وصادقة لقطاع من حياة أهل الشام في أواسط القرن الثامن عشر ، ولمدة وصلت إلى واحد وعشرين عاما بين سنتى «١١٥٤ ، ١١٥٧ هـ» و«١٧٤١ ، ١٧٦٢ م » .

ولا يفوت قارىء اليوميات أن يلاحظ ذلك التشابه الذى يصل الى حد التطابق بين صور الحياة فى دمشق كما يقدمها الحلاق ، وصور الحياة فى القاهرة كما يقدمها الجبرتى وليس هذا غريبا فقد كانت دمشق والقاهرة وبغداد أجزاء من الدولة العثمانية واسعة الأرجاء .

ولا يفوته أن يلاحظ أيضا مدى المظالم والمآسى التي تعرض لها أهل الشام فى هذه الفترة ولعل إحدى الصور التى كتبها تقدم نموذجا لدراما التاريخ .. وما تعرض له أهل الشام من عسف وقسوة .. ويحكى أنه «فى نهار الأحد بعد العصر خامس عشر جمادى الثانية من هذه السنة ضربت مدافع ، فسألت الناس عن الخبر ، فقيل: إن سعد الدين باشا العظم شقيق أسعد باشا جاءته رتبة وزارة ، وجاء «طوفى» خصلة الحصان التى ترفع للتكريم، فهرعت أكابر الشام لأجل تهنئة أسعد باشا ، وكان أسبقهم إلى الباشا فتحى افندى دفتر دار الشام فلما رآه الباشا قام ودخل لدهاليز الخزنة فتبعه فأخرج أسعد باشا صورة أمر

أطلعه عليه فأخذه فتحى افندى وقرأه وإذا به يتضمن الأمر بقتله ، وقال له الباشا : ما تقول فى هذا .. ؟ فقال : سمعا وطاعة ، لكن أنا فى جيرتك فخذ من المال ما أردت واطلقنى . فقال له الباشا : ويلك يا خائن . أنا لم أنس ما فعلت فى نساء عمى ثم أمر برفع رتبه وقطع رأسه ، ووضع فى رقبته حبلا وسحب إلى خارج السرايا وقطع رأسه وطيف بجثته فى شوارع الشام ثلاثة أيام ، وأمر الباشا بالاحاطة بداره وماله والقبض على أعوانه ، وقتل بعض خدمه ، ثم ضبط الوزير تركته وأموال اتباعه جميعا .

حلاق دمشق.. بعد لص بغداد..

وقبل المضى فى تقديم الصور/المختلفة من يوميات مؤرخنا نتوقف عند تلك الشخصيات الفذة التى كانت من عامة الناس ، مجرد حلاق بسيط عزف بقلمه أنين وشكايات أهل الشام بكل تفاصيلها ، وقدم صورة حية لأهل ومشاكل زمانه ..

والحلاق كان اسمه وحرفته التى اشتغل بها ، وذكر فى عدة مواضع من يومياته اعتزازه بهذه المهمة . يوم كانت الحرف لها احترامها وتقديرها وكان لطائفة الحلاقين مكانها الظاهر فى المجتمع الدمشقى ، وكان يوكل إليهم مهنة التطبيب وختان الأطفال ، ورغم هذا فقد مضى صاحب الكتاب مغمورا لم يحفل به أحد ، ولم يدون سيرته مؤلف .

وأكسبته مهنته ميزة الاختلاط بمختلف الطوائف والفئات . مما مكنه

من معرفة الأخبار فى زمن لم تعرف فيه الصحافة والاذاعة ! ولا يفوتنا أن يذكر أن المؤلف اقتصر على تدوين ما يجرى فى دمشق وحدها دون سائر بلاد الشام وحكى تولية الباشوات وكبار أصحاب المناصب وعزلهم ومصادرة أموالهم مثل المحتسب والدفتردار والقاضى والمفتى وأغوات العسكر ، ونقل أنباء الحج وما كان يواجه قافلته فى الطريق ، وأطنب فى فتن الأخبار ، وارتفاع الأسعار واضطراب الأمن ، وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وغزو الجراد ، وتوقف عند عالم أو متصوف أو نقيب حرفة ، وتابع ظواهر الطبيعة . من ريح عاصف وكسوف وخسوف وزلازل .

وقليلا ماذكر ما يتناقله الناس عن فتنة فى بغداد أو حرب بين الدولة العثمانية وفارس أو بين اشراف الحجاز .

والمؤرخ ينقل إلينا أحداث دمشق كوحدة سياسية وإدار واقتصادية قائمة بذاتها زاخرة بالحركة والنشاط . لها أدوات الحك الخاصة بها ولها قلعتها وسورها وأجنادها وعلماؤها ومتصوفوها وجوامعها وأحياؤها وحاراتها ، وطوائف حرفها ، يمكن لها أن تكفى ذاتها بمواردها الخاصة .

هذا بعد أن رسمت الدولة العثمانية الحدود وتركت حرية تنظيم الناس فى طوائف يمارسون فى ظلها قدرا من الحرية ، والذى عليهم عبء إعاشة الحكام والخضوع لهم .

أما العلماء ورجال الدين ، فيجد عندهم الشعب ملاذه ، ويجبرهم أحيانا على تصدر الحركات الشعبية ضد مظالم الحكم ، فإذا لم يستجيبوا صب عليهم غضبه .

ومما يلفت النظر أن أكثر باشوات الشام الذين اختارتهم الدولة العثمانية حكاما خلال الإحدى والعشرين سنة التى سجل البديرى أحداثها ، أما لقى مصرعه أو انتهى حكمه بالنفى والمصادرة ، ويحكى البديرى ما قاله باشا صيدا لأسعد باشا العظم ، عندما رآه يشن حربا ضد الدروز ، ناصحا له بالكف قائلا . هذا أمر يعود علينا وعليك بالتلف، ولاترضى الدولة به ، فرجال الدولة العثمانية يريدون العمار للبلاد ويكرهون الجور، والفساد قادرون على إرسال عشرة وزراء فى يوم واحد ولكنهم لايقدرون أن يعمروا فى عشر سنين قرية إذا خربت، وعندما عاد أسعد باشا واستمر فى الحرب وانتصر وجمع ثروة طائلة وبنى العمائر الشاهقة واستكثر من أسباب القوة، وحج بالناس أربع عشرة حجة فى أمن وسلام لم يشفع له هذا كله، وإذا بالنجم يهوى وينقل الباشا من دمشق فجأة ثم يقتل وتصادر أمواله وأملاكه، بعد أن خنق فى الحمام بأمر مشابه لذلك الأمر الذى نفذه فى فتحى أفندى ..!!

ويروى البديرى عن سليمان باشا أنه كان حاكما قويا صاحب خيرات ورغم ذلك ما أن تأخر وصول فرمان التقرير له بالولاية حتى «لغطت الارازل والأسافل بالقول والفعل وأظهروا بدعا كثيرة من محض الحرام» ومازال على تلك الأحوال حتى جاء الفرمان .. وعندما خلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم بدأ حكمه هادئا خانعاً حتى صفيت الدولة أموال عمه وأهانت حريمه وأهله والباشا لا يحرك ساكناً حتى احتقره العسكر وراحوا يطلقون عليه ألفاظ السخرية، ويسمونه «سعديه خاتم» حتى وجد الباشا الفرصة الملائمة فأمعن فيهم فتكاً وتشريداً فهابه الجميع ..!

وهذا قاض عادل عرف عنه الاستقامه والقناعة ولكن لما كان لايأكل الرشوة ولايميل فى دعوى فقد مال عليه أهل الشام .. وسعوا حتى عزلوه كما هى عادتهم قديماً ..!!

وهو بذلك يصور مدى ما وصلت اليه أزمة الحكم وانعكست على المجتمع فى كل ولايات الدولة العثمانية والذى قدمها بعد أن عاش وسط دوامة أحداثها اليومية، وأخذ يراقبها من موقعه فى «صالون الحلاقة» ومن خلال الأحاديث التى ينقلها إليه رواد محله، يسجل ما يرى وما يسمع .

وينقل هنا صوراً غنية بالدلالة ففى هذه الفترة التى يتحدث عنها والتى كانت دمشق تعانى من ظلم حكامها وعسفهم، بدأت الخطوة الأولى لعصر النهضة فى أوروبا، وخلال هذه الفترة كانت الدولة

العثمانية تسعى بكل ما أوتيت من قوة، وبالنظم التى وضعتها على الحفاظ على الأمر الواقع فى هذه الولايات .. واجهاض وملاحقة أى محاولة للتغيير أو التقدم .

شدة الغلاء .

وتتلاحق خلال يومياته الصور الاجتماعية المختلفة، وكأى مواطن بسيط يئن ويشكو من شدة الغلاء وارتفاع اسعار المواد الغذائية من خبز وكعك ولحم وسمن وجبن ومواد الوقود من فحم وحطب فأخذ يسجل أسعارها مرة أو أكثر كل عام ، وكان يدرك أن ارتفاع الأسعار وانخفاضها هو المقياس لعدالة الحكم أو فساده، وذلك عندما يرجع الغلاء إلى جشع الحكام وتكالبهم على تخزين المؤن وإهمال المحتسب التفتيش على الأسواق، كما سجل المظاهرات التى كان يقوم بها العامة للشكوى من الغلاء حتى انهم كانوا يواجهون الباشا ويغلظون له القول، ويقصدون الأعيان والعلماء بالسب والإهانة ويتهمونهم بأنهم يساعدون الحكام ضد الشعب، ويحكى كيف هجموا على القاضى وضربوا رجاله واضطروه إلى الهرب فوق أسطح المنازل ..!

ويلاحظبين سطور كتاب البديرى التداخل فى ذلك الزمان بين العلم والتصوف ، فالصلة قوية بين أهل العلم والمتصوفة، وأغلب علماء ذلك العصر لكل منهم حرفة يحترفها من صناعة أو تجارة ،

قصة سلمون ..!

وزخــرت يومياته بنقد المجتمع الدمشقى لما شاع فيه من فساد بمختلف طوائف العسكر وانفلات النظام، مما أشاع فى دمشق جواً من الفساد فكثرت «بنات الهوى» وتبرجن وجاهرن بالمعصية فى الشوارع ومعهم الدالاتيه «العسكر» والفساق ولا أحد يتكلم بقيل وقال، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن المنكر والصالح فى هم وكرب، والفاجر الطالح يتقلب فى لذيذ النعم، «ثم يدعو الله بالفرج ، ويحكى قصة تنقل صورة اجتماعية معبرة حول المفاهيم السائدة، قصة فتاة منهن أسمها سلمون ..» افتتن بها اغلب النساء حتى صاروا ينسبون اليها كل شئ جميل فيقولون هذا المتاع سلموني، وهذا الثوب سلموني .. وهكذا .. فأصدر المفتى فتوى بقتلها فقتلت ، وأصدر الباشا أمراً بأن كل من وجد بنتاً من بنات الحظ فيقتلها ودمها مهدور .. !

هـذا بعد أن تجرأن وكسبن نفوذاً كبيراً، حتى لقد أقامت إحداهن مولداً احتفالاً بشفاء غلام من الترك عشقته، ودعت «شلكات البلد» وهن المومسات ومشين أسواق الشام حاملات الشموع والقناديل والمباخر، يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف والناس وقوف صفوف تتفرج عليهم وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، وماثم ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون .. «الله أكبر ..!» .

ولجأ الأهالى للباشا وعرضوا عليه أن ينفيهن أو يجمعهن فى مكان ولكنه أبى خشية أن يدعون عليه فى الليل والنهار !.

وفضل الباشا أن يرتب على كل واحدة منهن عشرة قروش فى الشهر وجعل عليهن صوباشيا «أى حرساً» .

وقد ضاق مؤرخنا أشد الضيق بهذا الجو الفاسد ونعى على الحكام إهمالهم ، وابدى غيرته على الاشراف الذين كثيراً ماكانوا هدفاً لعدوان العسكر فكانوا يردون العدوان بمثله وكثيراً ماذهبت دماؤهم هدراً، ويصرخ البديرى نفس صرخة الجبرتى قائلاً : «انظروا يا مسلمين إلى هذا الظلم وقولوا « ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف » .

طوائف العسكر

تدور المظالم وتتركز حول العسكر الذى عانت منهم الشام عندما سمحت الدولة لكل وال ولكل صاحب عصبية أن يجمع ما يشاء من الجند وتعددت طوائف الأجناد فوضع رجال العصابات وقطاع الطرق محل الجنود، وبدأت المنازعات بين طوائف العسكر .

وها هو البديرى يستعرض طوائف الجند :

– جند الدولة وعرفوا باسم «القبوقول» وهم حرس السلطان من «انكشارية» الدولة .

– الانكشارية اليرلية، أى المحلية وهم من أبناء الشام .

– اخلاط شتى يستخدمهم الباشا وقت الحاجة كالمغاربة والاكراد والتركمان ويطلق عليهم اسم «اللوند أو اسم الدلاتيه» .

وكانت الطوائف تتبع كل منها رئيساً والرياسة متوارثة «كان يذهب منهم فى كل سنة طائفة إلى حلب وينصب عليهم سردار من كبرائهم ، وتقووا فى حلب وفتكوا وجاروا حتى رهبهم أهلها وصاهرهم كبراؤها واستولوا على أكثر قراها، بحيث قلت أموال السلطنة وصارت أهالى القرى أرقاء لهم ! . «كثيرا ما يقول لهم الباشا « تبا لكم من أعوان » ولمن اتخذكم من أنصار تأخذون العلايف والمال وتهربون من الحرب والقتال والمتطوعون يقاتلون لله ورسوله ويتسابقون للحرب مع ما قد فعلت بهم من الفعال من قتل وسلب وخراب ديار ..»

ويحكى أنه عندما أراد الباشا أن يسجل على أهل الشام اعترافاً بأن الأمر لايصلح إلاّ بجند الدولة، خرج يوماً من دمشق فدعا إليه علماء المدينة ليسلمهم زمامها أثناء غيابه فاعتذروا إليه قائلين : «يا أفندينا .. نحن أناس منا علماء ومنا فقراء ومنا مدرسون وصناعتنا مطالعة الكتب وقراءتها فقال لهم : «هذا اقراركم، كيف وأنتم الأعيان..؟» فقالوا بسخرية «حاشا لله، إنما أعيان الشام القبقول» فتيقن الباشا أن البلد لاتصلح إلا بهم !!! .

والآن وبعد أن تجولنا بين بعض صفحات يوميات البديرى ، ونقلنا صوراً متعددة للحياة في دمشق ، نتجول فى شوارع دمشق العتيقة وأزقتها نبحث عن الخيط الرفيع الذى يربط الماضى بالحاضر، ونجيب على سؤال : ما الذى تبقى من دمشق العثمانية، وما الذى بقى من دمشق التاريخ ؟ .. كما وصفها البديرى .. المؤرخ الحلاق .

وهل زال إلى غير رجعة عصر الباشوات، وعهد الحكومة الموزعة السلطان، وعهد العصبيات، وزعماء ورؤساء الأجناد ..؟

ويحكى البديرى الحلاق جانباً من جوانب دمشق وتعاستها، عندما يؤرخ للوقائع التى دارت عبر هذا السور وإلى جانب أبوابه، وخاصة الباب الصغير، عندما مزقت دمشق قتال الأجناد، أيام كان القتال بين الطوائف وليس ضد العدو الغاصب، ومن أجل السلب والنهب وليس من أجل استرداد الحقوق، ويقول مؤرخنا

«جاء خبر قتل متسلم دمشق «نائب الباشا» قتله عرب الزبيد وقتلوا من جنده جماعة من العسكر، فساروا حتى وصلوا للعرب المذكورة، ففاجأهم المتسلم وجنوده، على حين غفلة بالقتل وغيره و أرادوا أخذ أموالهم ومواشيهم فردوا عليهم رداً غير صبور فقتلوا المتسلم المذكور وجماعة من عسكره، فحين بلغ هذا الأمر أكابر دمشق اجتمع الديوان وأمروا منادياً ينادى : من أراد طاعة الله والسلطان ممن له قدرة وقوة

على الركــوب فـلا يتـخلف ، فـالغـارة على عـرب الزبيد الذين قـتلوا المتسلـم وعسكره، فـخرجت الانكشــارية والسـباهيه والزعمـاء، وعينوا نائبـا بدمـشق ثم سـاروا للعـرب، ورجـعــوا ومـعـهم جسـد المتسلم «المقـتـول» وهو فـى حـالة عـبرة لمن اعـتبر ثم غسلوه فـى سـراية الحكم ودفنوه فـى باب صـغير» أحـد أبواب دمـشق فى الجـزء الجنوبى من سورها إلى جـانب جبانة تضم رفـاة الصـحـابى الجليل بـلال » والمقـتول كان اسمـه ابراهيم وهو مملوك سليـمـان باشا ابن العظم حـاكم الشـام وكـان له ظلم وعدوان وجـرأة على الخـاص والعـام، وكـان يأمـر بالقـبض على كل من رآه بعد العشــاء ويأمر بتقـييده فى الحــال بالحديد ، إلى أن يأخذ منه الكثير من المال وإذا أذنب أحد ذنباً ولم يقدر على القبض عليه يقـبض على أحـد من أهله أو قـرابته ويلزمـه بمال عظيم، وإذا نـهاه أحد عن تلك الأحداث يحرد ويطلب الارتحال ولازال بظلمه وعنوه إلى أن أخذه الله .

أفراح دمشق

أمـا أفـراح دمـشق فـهى تثير مثل أحزانها الدهشة يقول الحـلاق فى غـرة ربيـع الأول من هذه السـنة :شـرع حـضـرة والى دمـشـق الشـام سليـمـان باشـا العظم فى فـرح لأجل ختان ولده العزيز أحـمد بك، وكـان فى الجنينه التى فى مـحلة العـمـارة وجـمـع فـيـه سـائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية

والأغوات ما لايحصى ، واطلق الحرية لأهل الملاعب يلعبون بما شاءوا، من رقص وخلاعة وغير ذلك، ولازالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة فزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام، بإيقاد الشموع والقناديل ، زينة ماسمع بمثلها، وعمل موكب، ركب فيه الأغوات والشربجيسة « الأعيان » و الأكابر والانكشارية، وفيه الملاعب الغريبة، من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك وثانى يوم طهر ولده أحمد بك وأمر من صدقاته انه يطهر من أولاد الفقراء، وغيرهم ممن أراد فصارت تقبل الناس بأولادهم وكلما طهروا ولداً يعطوه بدلة وذهبين ، وأنعم على الخاص والعام الفقراء والمساكين بأطعمة وأكسية وغير ذلك ، مما لم يفعل احد بعض ما فعل ، ولم نسمع أيضاً بمثل هذا الاكرام والانعام على الخاص والعام .

وما زال للافراح فى دمشق اهتمام خاص ولكن ليس على هذا النحو..

وقد شهدت القلعة دمشق بعض الأحداث التى يرويها البديرى الحلاق ، فهى التى هرب إليها القاضى عندما عمت الثورة البلاد يقول :

«قامت العامة من قلة الخبز وغلو الأسعار وهجموا على السرايا رافعين أصواتهم بالبكاء والتضرع، قائلين ما يحل من الله قلة الشفقة

على العباد الذين تضرروا بالغلاء وأنت حاكم الشام ومسئول عند الله وعن هذه الأحوال، فقال لهم أسعد باشا كم : اذهبوا إلى المحكمة واشكوا حالكم إلى القاضى .

فأقبلوا نحو المحكمة، واصطرخوا فيها يشكون حالهم وما أصابهم وما واقع بهم، فخرجت جماعة القاضى بالعصى وطردوهم، وكان ذلك بأمر نائبه، فهجمت العامة ورجموهم بالحجارة فأمر القاضى وأعوانه أن يضربوا بالبارود فضربوهم، فقتلوا منهم رجلاً شريفاً وجرحوا منهم جماعة، فغارت العامة عليهم، وساعدهم بعض الانكشارية فهزموا القاضى وقتلوا باشى جوقدار وبعض أعوانه، ونهبوا وحرقوا بابها، وسكرت الناس البلد، فركب بعض الأغاوات ورد الناس، واما القاضى فقد هرب من فوق الأسطح هو ونائبه وجماعته، فأخذه بعض الأكابر وصار يأخذ بخاطره، فحلف القاضى لايسكن هذا الشهر إلا بالقلعة، فجمعوا مال القاضى ومتاعه والذى نقص منه فرضوه على خزينة «الانكشارية» وعلى بعض الأكابر والأعيان، وارضوا القاضى وصالحوه وإلى المحكمة ردوه ..»

ويروى الحلاق فى موضع آخر مايقع عندما يتقاتل الأجناد المختلفة ونتيجة القتال على أحياء دمشق وسكانها « الذى لاينالهم سوى » نهب المال وسب العرب وسب الدين، وغير ذلك من الفظائع،

ولما زادوا عتواً وفتكاً، لم يراقبوا حضرة الحق جل جلاله ، ارسل الله ريحاً شديدة على الشام ما رؤى مثلها فى سالف الأيـام ..!! فقلعت الأشجار من أصولها ورامت غالب الجدران، حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت.



لوحة لبغداد رسمها د. أولفرت داير الهولندى فى القرن السابع عشر، وترى السور والقباب والقوافل والحصون والابراج، وتظهر بغداد خلف السور كما يظهر الجسر على نهر دجله.

الفصل الثالث

بغداد
رحلة فى المكان والزمان

نهبط الآن فى مطار بغداد الدولى .. على المسافرين ربط أحزمة المقاعد والامتناع عن التدخين.. هذا ما أعلنته مضيفة الطائرة ولكن ما لبثت الطائرة ، أن دارت دورتين وأوضح قائدها أنه قد داهمت بغداد عاصفة ترابية يتعذر معها هبوط الطائرة. ورجعنا إلى مطار الكويت فى انتظار نهاية العاصفة ، وفى نهاية ١٢ ساعة شاقة وصلنا إلى بغداد .

كانت هذه بداية عاصفة لرحلة بغداد وليست البدايات دائما مثل النهايات .

عشت تجربة بغداد المعاصرة وغصت فى بغداد التاريخ، التى كانت عاصمة الدولة الاسلامية العظمى، والتى كان لها دور متميز فى الحضارة العربية، والتى استمرت فى العصور المظلمة مستودع البقية الباقية من حضارة الاسلام .

منذ لحظة وصولى الى بغداد شاهدت حركة تغيير واسعة، فأنت أمام مدينة ترتدى ثوبا جديدا ، وورشة عمل فى كل مكان، شوارع جديدة وانفاق وجسور ومبان حكومية على الطراز العربى واحياء جديدة بمراكزها التجارية تزحف خارج بغداد القديمة، وانعشنى ذلك الاتساع فى الرقعة الخضراء ونمو الحدائق العامة وحركة التشجير المستمر على امتداد العاصمة امتدادا دائريا لتستوعب افواج المهاجرين القادمين من الريف بحثا عن العمل فى المشارع الجديدة ..

وفى غمرة حركة التشييد والبناء استمرت صورة بغداد التاريخ هاديا ومحركا، وانعكس ذلك على المشاريع التى تحافظ على طعمها

الخاص وشخصيتها المميزة . وفى كل زيارة منذ سنوات وسنوات اتجول فى شوارعها الجديدة وازقتها وعلى ضفاف نهرها، ابحث عن معان العمارة و الشخصية العربية التى شهدت اوج ازدهارها هنا ..

وبغداد من اقدم المدن العربية واغناها بالتاريخ واميزها بشخصية نفاذة، وهى إحدى العواصم العربية التى تجمع بين النهر والنفط ، بين الزراعة والصناعة، بين الحضر والبادية مما وضعها امام مستقبل بلا حدود وتستمد نكهتها الخاصة من نهر دجلة الذى يتلوى ليقسمها ويجعلها مدينة ضفتين تربطهما الجسور المتعددة ، واحتفت بغداد بالنهر فأعدت له الكثير من المشاريع .

وبعد النهر والنفط يأتى موقعها الفريد الذى تكشفه الجغرافيا ويؤكده التاريخ، فبغداد بؤرة العراق تتوسط الشمال والجنوب، وهى افضل منطقة للعبور بين البحر المتوسط وإيران وتتوسط ايضا الشرق والغرب فتقع على خاصرة الرافدين مع جنوح نحو الشرق وهى قلب التجمع السكانى او كما قيل «شمس وسط اقمارها» فتقف بين كفتين ممسكة بالتوازن العمرانى وهى من أكبر عواصم العرب سكانا فيبلغ تعدادهم ما يعادل ربع سكان العراق..

ويؤكد شخصيتها أنها عاصمة دولة تخوم عربية كانت مسرحا لصراع حضارى جبار، فعلى أرض العراق تحددت نتائج معارك تاريخية كبرى وبقى التاريخ له اهتمام ومغزى خاص لدى سكان العراق فما زالت حلاوة انتصاراته فى حلوقهم ومرارة هزائمه فى قلوبهم .

وتشهد بغداد حوارا صامتا وصاخبا بين القديم والحديث يشترك فيه الحجر والبشر، تقف الأحياء القديمة إلى جوار الاحياء الحديثة، والأسواق التقليدية إلى جوار الاسواق المعاصرة ، ويشارك في هذا الحوار الدائر الفنان التشكيلي بريشته وازميله بعد أن حقق نجاحا ملحوظا في مزج الاصالة بالمعاصرة ، فاستوحى من التراث اغلب اعماله .

واختار لحظات بغداد التاريخية وشخصياتها وقصصها مادة لاعماله، فعكس التعلق بمراحل التألق التاريخي ، ونقل اعماله من القصور إلى الشوارع والحدائق والميادين وعلى ضفاف نهر دجلة.

وخلال جولة سريعة في بغداد .. تظهر معالم التغيير. اقف في شارع ابو نواس على نهر دجلة رئة الحي التجاري المكتظ بالسكان بين الشارع والنهر رقعة خضراء تنتشر فيها المقاهي والكازينوهات التي تقدم لروادها المشروبات المختلفة والسمك المسجوف أكلة بغداد الشهيرة، وتنتشر على ضفة النهر اعمال الفنانين التشكيليين : الشاعر العربي ابو نواس الذي ارتبط اسمه وشعره بليالي بغداد يمسك في استرخاء كأسه بيده، وإلى جانبه رمز اشهر رواية عربية الف ليلة وليلة، تمثال لشهريار وشهر زاد يتسامران .

في هذا المكان يتزاحم سكان بغداد وزوارها عند الغروب ..

وفى مواقع اخرى من بغداد تقف تماثيل الكندى والمتنبى والجاحظ وابن سينا والفارابى والرا ى، وكل مفكرى الدولة العباسية، ينظرون الى المدينة الصاخبة، من خلال اعمال فنية متقنة .

بناء بغداد

ووقفت امام تمثال نصفى ضخم فى أحد الميادين المحيطة بحديقة الزوراء ، وهو تمثال ابى جعفر المنصور مؤسس بغداد، وهذا التمثال يحكى فى صمته قصة بناء بغداد قصة العنفوان الحضارى عندما ينعكس فى اختيار موقعها، تلك الخبرة الانسانية المتراكمة لدى العرب وهي بداية الارض الصلبة بين مسطحات ما بين النهرين الرخوة مما جعلها تستغل النهر كطريق متحرك وكشارع رئيسى تحاول كل مدينة ان تطل عليه ..

وتروى كتب التاريخ كيف تفقد ثانى الخلفاء العباسيين المواضع المقترحة لعاصمة الدولة الجديدة بعد أن بعث الرواد ليرتادوا مكانا وصفه وحدده لهم ، «بأن يكون رافقا بالعامة والجند . موقعا ترتفق به الرعية ويوافقها ولا تخلو عليها فيه الاسعار ولا تشتد فيه المؤونه فإنى ان اقمت فى موضع لا يجلب إليه من البر والبحر غلبت الاسعار وقلت المادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس ..»

وبعد معاينة الموضع قال . مررت فى طريقى بموضع اجتمعت فيه هذ الخصال فأنا راجع إليه وبايت فيه ، فإن اجتمع لى ما أريد من

طيب الليل فهو موافق لما اريده لى وللناس، فبات فيه وقال لمن معه هذا موضع ابنى فيه ، تأتيه المادة من الفرات ودجلة، ولا يحمل الجند والعامة إلا مثله .. فانت متوسط للبصرة وواسط والكوفه والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل، وهى علي الطرق المهمة.. شرعه الدنيا كل ما يأتى من الرقة والشام والثغر ومصر والمغرب فيها يحط وينزل ..

والقصة تحكى عن طراوة جو بغداد فى الصيف والشتاء وفى الليل والنهار وهو غير قائم الآن، فبغداد شديدة الحرارة فى الصيف وقارسة البرد فى الشتاء .

ويبدو ان الطقس مثل الحياة ، كل يوم هو فى شأن . والكتب القديمة تزخر بأوصاف بغا ـ وحسن اختيارها ومنها قول ابن طباطبا . تجيك الميرة فى السفن والقوافل من مصر والشام وتجيك الآلات من الصين فى البحر ومن الروم وأنت بين انهار لا يصل عدوك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت لا يصل عدوك..

وجاءت بغداد مبتكرة وفريدة فى عصرها وقدم إليها كل من يفهم شيئا فى البناء .. من كل أرجاء العالم الاسلامى وطلب المنصور أن يرى المدينة كيف تكون .. ؟ فخطت له بخطوط هندسية ووضع على هذه الخطوط حب القطن وصب عليه نفطاً توقد فيه النار فتأملها والنار فيها فتحققها وعرف رسمها . واختار الخليفة جماعة من الخبراء منهم الإمام ابو حنيفة النعمان ليشرف على البناء .

وبنيت على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة والجامع تحيط به قصور القادة ورجال الدولة وكانت حصنا جبارا وقلعة ذلك الزمان وجعل لها أربعة ابواب كبار ، كل بابين متقابلان والطريق بينهما يقسم المدينة إلي قسمين إذا جاءها قادم من المشرق دخل من باب خراسان ومن الحجاز دخل من باب الكوفة واذا جاء من المغرب دخل من باب الشام واذا جاء من فارس والبصرة والبحرين دخل من باب البصرة . وبنى للمدينة سورين تفصل بينهما ارض خالية للدفاع وأحد السورين أعلى من الآخر بما يقارب النصف، وعرض السور لدى قاعدته عشرة امتار وحول السور ١١٣ برجا للمراقبة والحراسة ، ولم يكتف بذلك بل حفر حول المدينة خندقا عريضا عميقا وأجرى فيه الماء من قناة وجعل للأبواب الاربعة دهاليز اربعة، وللأسوار اربعة ابواب مضاعفة من الحديد ، ويلاحظ ان هذه الابواب تفردت بظاهرة معمارية مهمة هى الازورار. فكان الداخل من الباب الخارجي لا يدخل مباشرة الى المدينة ولكن ينحنى إلى اليسار فى دهليز يفضى إلى الباب التالى وزاد على ذلك حفر نفق يمتد تحت الارض فرسخين خارج المدينة أعده فى حالة محاصرة العدو، ولم يعرف ذلك لمدينة قبل بغداد ، ومن خصائصها الأخرى انه بنيت مدورة لئلا يكون الخليفة فى وسطها فى موضع أقرب من الآخر[1] .

وسميت المدينة «مدينة المنصور» نسبة إلى بانيها جعفر المنصور ومدينة السلام ودار السلام ، والزوراء لازورارها عن القبلة . والمدورة

لاستـدارتهـا ، والروحـاء لطيب هوائهـا ولكن الاسم الذى بقى على كل لسان هو بغداد .

ونعـود من الزمـان إلى المكان، ومن التـاريخ إلى الحـاضـر، الى شوارع بغداد ..

نعود إلى شوارع السعدون، الشارع التجارى فى قلب العاصمة والذى امتلأ بالعمارات الجديدة والعصرية وازدحم بالفنادق بعد أن لم يكن به سوى فندق واحد من فنادق الدرجة الأولى هو فندق بغداد، فى أحد الميادين تمثال جميل لمرجانة جارية على بابا وهى تصب الزيت على رؤوس اللصوص فى الجرار فى تشكيل بديع مستوحى من القصة المشهورة ..

وهكذا تنتشر اعمال الفنان العراقى، الذى زين بغداد كما لم تزير عاصمة عربية أخرى ..

النفاذ الي التاريخ

وجولة أخرى فى الاحياء القديمة المكتظة مثل الكاظمية والأعظمية والاسواق التقليدية كسو ، الشورجة تكمل صورة بغداد، انها سوق تشبه العديد من الاسواق العربية: سوق الحميدية فى دمشق وخان الخليلى فى القاهرة وفى هذه الاحياء تقف المبانى العتيقة محتفظة بارادة تاريخية لا تقهر ، المساجد البغدادية المميزة . شارع الرشيد أهم شوارع بغداد التاريخية ، التاريخ القديم والحديث معا به أهم الآثار التاريخية العباسية والتى ابرزها المدرسة المستنصرية فى سوق

الصفافير، والقصر العباسى الملاصق لوزارة الدفاع والبيوت البغدادية القديمة المنتشرة والمتهالكة

وهنا جامع الحيدرخانة احد معاقل الحركة الوطنية العراقية. وهو الذى شهد مواكب المناضلين والشهداء منذ ثورة العشرين التى كانت الرد على إعلان الانتداب البريطانى بعد أن ساهم العراقيون فى القتال ضد الاتراك، وبدلا من الحصول على الاستقلال حكمت القوات البريطانية حكما عسكريا قاسيا ..

وتمضى فصول التاريخ وتمر مواكبها بشارع الرشيد وفى اواخر عام ١٩٣٦ يقوم الجيش العراقى بانقلاب وطنى بقيادة بكر صدقى، والذى لم يكمل العام، ويتبعه رشيد عالى الكيلانى رئيس الوزراء بثورة ضد بريطانيا، وتنزل قوا الاحتلال إلى بغداد بعد شهر من اعلان الحرب العالمية الثانية.

ويشهد شارع التاريخ أعنف الثورات وأعظمها فى مواجهة معاهدة بورت سموث عام ١٩٤٨ تلك الثورة التى أدت إلى إلغائها.

ويدور الزمن دورة تاريخية ويشهد شارع الرشيد فصلا جديدا بقيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التى أنهت الحكم الملكى وأخرجت العراق من حلف بغداد، وتوالت الأحداث التى كان محورها وزارة الدفاع بشارع الرشيد وشهدت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم ثم إقصائه.

الاصالة والمعاصرة

تقوم ادارة الحفاظ على التراث بترميم الآثار كما تعمل علي حصر الدور البغدادية القديمة لصيانتها وترميمها فقد نجح المولعون بالتراث والذين يتأملون بشغف بقايا الماضى من انقاذ بعض المبانى الأثرية من براثن الاهمال ، وفى الوقت نفسه استمر الحوار وقال البعض · إن مهابة بغداد القديمة العباسية أو العثمانية ليست لها أية علاقة بالمناظر المتنافرة التى تراها فى احيائها القديمة ويتساءل البعض الآخر هل تفرغ هذه الاحياء من سكانها لتتحول إلى متاحف ؟ وهل المطلوب ان يتحول بيت النقيب وخان مرجان إلى مطعم سياحى كما يخطط البعض من المهتمين بالسياحة وجذب الاجانب .. ؟! ويستمر الحوار ليتناول مستقبل الأحياء القديمة والمبانى الأثرية.. نفس الحوار فى القاهرة ودمشق وغيرهما من عواصم العروبة ..

ولكن الحل العملى والغالب هو أن تكون العمارة العربية موصولة بالماضى فما بنطبق على الماضى الشامخ والتراث الثقافى ينطبق على البناية العتيقة فى وسط حيها .. فمنظر البناية بمعزل عن اطارها الانسانى أمر خاطىء وإنقاذ البناية ينطلق من تطوير الحى بأكمله وبعث حياة نشيطة وملائمة من حولها ، فالأصالة ليست تقليد القديم بقدر ما هى البحث والتجديد فى إطار الشخصية الخاصة المميزة..

ولعل الطريق الصحيح هو السعى الدءوب للوصول الى الثوابت التى تمكن المعمارى من استعـ ـال المتغيرات من أجل الحفاظ على الطراز

العربي المميز ، فاكتشاف سر القديم وسر استمراريته وبقائه على مر العصور هو الحل العملي لمعادلة الأصالة والمعاصرة، وهو بلا شك يساعد على وقف التشوهات المنتشرة في المدن العربية والناتجة من التناقضات القائمة بين ماضٍ خلاق وحاضر يتسم بالتقليد ..

الشارع البغدادي ..

وبغداد تعاني من الزحام الشديد، والسير فيها لا مثيل له في الفوضى، كل سائق يمشي على هواه ويسرع بشكل طائش، آلاف السيارات في الأحياء القديمة وفي شارعي الرشيد والسعدون التي تكاد تختنق، رغم كل محاولات الانضباط وانتشار رجال المرور الذين يتقاضون بصرامة الغرامة من كل من يخالف قواعد المرور، ورغم بداية اقامة الانفاق مع مفترقات الطرق ..

والمحاولة جادة لفرض الانضباط في الشارع البغدادي وتصل إلى الحد الذي يقص فيه شعر الشاب إذا تركه مرسلا ..

فمعدل زيادة السكان السريعة في بغداد أدى الى تفاقم مشاكل الخدمات، من مشاكل الإسكان إلى توفير السلع التموينية، كما ان امتداد بغداد الحديثة لتشكل دائرة قطرها ٣٠ كيلومتراً زاد من صعوبة حلها. فما زالت بغداد شبه دائرة تذكرنا بمدينة المنصور المدورة. ويرجع هذا التوسع الأفقي والنمو الدائري الى أن ساكن بغداد يفضل العيش في مسكن خاص بحديقة مستقلة، وكأنه الحنين الجارف إلى الريف، وفشلت كل محاولات خلق عادة سكن العمارات . تستخدم

بغداد الباصات ذات الدورين، وبقيت مشكلة الانتقال تنتظر مشروع «المنوريل» ليضع حدا لمشاكل الحركة فى عاصمة واسعة الأطراف، ورغم الالتزام الصارم بتحديد الحكومة للاسعار إلا أن الاختناقات التموينية تتكرا نتيجة التزايد المستمر لسكان بغداد والقوة الشرائية المتنامية ...

عاصمة الدولة الاعظم ..

والتاريخ مازال قويا فى بغداد المعاصرة عندما اقترنت بغداد بالدولة العباسية وكانت مركز الدنيا وعاصمة اقوى دولة فى العالم، ولا يتسع المجال هنا لسرد تاريخ الدولة العباسية ولا استعراض تفاصيل خمسة قرون حافلة، وإنما قراءة جديدة بعيون مفتوحة لبعض فصوله، وتقديم لمحات من هذا التاريخ الذى يمثل جزءا مهما من تاريخ العرب وحضاراتهم .

فحتى الآن عندما يذكر العصر العباسى، يتبادر إلى الذهن تلقائيا الخليفة هارون الرشيد وسرور السياف والوزير والقاضى العادل و تلك الصور الشعرية والخيالية لقصص ألف ليلة وليلة وصور قيان بغداد، المغامرة والمتعة وتبقى اجواء الحضارة المزدهرة والعلم والتجارة ودروس السياسة فى خلفية الصورة لايلتفت إليها سوى عدد قليل من المؤرخين والباحثين ، ويكفى انه كان ضمن دراستنا فى الجامعة فى قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة تاريخ الفكر السياسى الذى تتبعناه لدى الإغريق والرومان وانتقلنا إلى مدارسه ونظرياته الحديثه ، ولم يكلف

احد نفسه بأن يقدم لنا دراسة من الفكر السياسى فى هذه المرحلة المهمة من التاريخ . هذه الحقبة التى حق لهم فيها القول بأنهم كانوا فى تاريخ البشر شيئا مذكورا فى عصر أوسع دولة عربية اسلامية موحدة، وأطول مدة عرفتها اسرة فى ذلك التاريخ ، العصر الذى انتشر فيه العرب فى الشرق والغرب فاتحين ومتوطنين ، العصر الذى تحولت فيه العربية لغة العرب إلى لغة عالمية فى الدين والسياسة والعلم والحضارة والتى كانت العربية وعاء الثقافة الانسانية والتى ضمت ثقافات جميع الشعوب التى دخلت الاسلام وكانت العربية هى أداة الوصل بين أمهات الكتب القديمة واللغات المعاصرة ..

كان على قمة العالم الدولة الاسلامية المسيطرة على مقدرات اكبر عدد من الشعوب . الحضارة العربية الاسلامية فيه هى المهيمنة تنظم السلم والحرب وتسيطر على الفكر والفن والانتاج ، قدمت للعالم رؤياها الخاصة فى كل جوانب الحياة وقامت ما بين قلب أسيا فى التيبت حتى أمواج المحيط الاطلسى . وورثت مهام الامبراطوريتين الرومانية والفارسية معا..

وفى هذه المرحلة تم تطبيق مجموعة من القيم والمفاهيم الانسانية والحضارية التى جاء بها الاسلام والتى اخفقت هذه الدولة فى تطبيق بعضها احيانا ونجحت فى أحيان كثيرة . وفى كل الاحوال قدم العرب تجربة انسانية انعكست على كل شئون الحياة، ففى العصر العباسى

الاول عادت المبادىء الإسلامية فتأكدت من جديد وتجسدت فى مؤسسات عالمية تسودها الشريعة، وترتع فى بحبوحة القوة والثروة والثقافة .

ولم يكن قد مضى على صدر الاسلام سوى قرن وثلث من الزمان تولى الخلفاء الراشدون فترة تزيد على ربع قرن والامويون قرابة القرن واستمرت الدولة العباسية خمسة قرون بدأت فى القرن الثانى الهجرى وانتهت باجتياح هولاكو لبغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م..

والتنقيب فى صفحات التاريخ العباسى له مغزى مهم إذا تبينا ان العديد من الظواهر التى نحياها تمتد جذورها إلى هذه الفترة التاريخية.

وقد تحركت عاصمة الدولة الاسلامية مع تحرك الوسط الجغرافى لها . فمع اتساعها انتقلت من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد فبعد امتداد الدولة الاسلامية الى المناطق الشرقية فى آسيا، ومع انتقال طرق التجارة العالمية الى العراق كان من الضرورى ان تكون العاصمة على محور يمتد من خليج البصرة إلى الموصل .

والآن.. أين بغداد المنصور والرشيد والمأمون ..؟

لم يبق من بغداد تلك سوى بعض الاثار العباسية فاندثرت وضاعت من الزمن مدينة المنصور المدورة وقصر الخلد وقصر باب الذهب وجامع المنصور والقبة الخضراء والسور وما احاط به من الدور .

وبقى يتحدى الزمن القصر العباسي على نهر دجلة جنوب وزارة الدفاع بعمارته العربية ونقوشه وإيوانه الذى أقامه الناصر لدين الله العباسى ٥٧٥ - ٦٢٢هـ وكان منذ ثمانية قرون دارا للعلم جمعت فيها الكتب والمخطوطات من كل مكان والمدرسة المستنصرية التى شهد رواقها وقاعاتها ازدهار العلم والمعرفة والتي افتتحت عام ٦٣١هـ، وبقى من سور بغداد باب واسط (باب خراسان) احد ابواب بغداد القديمة ثم منارة جامع الخفاقين وهى من أقدم المنائر القائمة ذات القبة المخروطية، ومنها ايضا مقبرة الشيخ السهروردى صاحب الطريقة السهروردية وهى من آثار بغداد التى تجذب إليها المهتمين بالعمارة العربية ..

ويرجع دارسو الاثار ندرة الآثار العباسية لتدمير التتار لبغداد ولطبيعة مواد البناء التى اقيمت بها بغداد فقد كانت من الآجر وايضا لجو بغداد ورطوبة الارض التى تتلف المواد البنائية ، كما أنه كثيرا ما كان يغرقها فيضان نهر دجلة حتى تم التحكم فى تقلبات النهر بانشاء سد الثرثار هذا رغم حرص عرب ذلك العصر على إقامة قصور ومساجد تخلد مع الزمن سيذكر الطبرى نقلا عن المأمون قوله لأحد مهندسيه : «إذا بنيت لى بناء فاجعله ما يعجز عن هدمه ليبقى طلله ورسمه ..

ونقل عن العرب قولهم «لا شيء ابقى ذكرا من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا »

ولهذا عاشت آثار سامراء التى كانت عاصمة لثمانية من خلفاء بَنى العباس وبقيت منارة الملوية والمسجد الجامع من أهم الاثار المعمارية للعصر العباسى قائمة تتحدى الزمن ..

بغداد تستقبل سفير الروم

وتتتابع الصور من حياة بغداد العباسية الزمان : احد ايام القرن الرابع الهجرى والقرن العاشر الميلادى وبالتحديد سنة ٣٠٥هـ .

المكان : قصر الخليفة المقتدر بالله . الذى شهد استقبال سفير امبراطور الروم قسطنطين التاسع، اذهل الاستقبال الضيوف ، ففى وسط الحديقة شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم وعليها طيور من الفضة تصفر بحركات خاصة، والشجرة وسط بركة مدورة وعلى يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا لبسوا الديباج والشجرة فروعها من فضة وأغصانها من الذهب ..

والبحيرة من الزئبق الذى يحمل اربع زوارق مذهبة ، ومحاطة بأربعمائة نخلة غطيت جذوعها بخشب الساج المنقوش .

وفى الحديقة مائة من السباع ، مع كل سبع مروضه واربعة أفيال مزينة بالديباج وعلى كل منها ثمانية رجال ، ومجموعة اخرى من الزرافات والفهود والنمور .

ويعكس ما رواه المبعوث مدى الرفاهية والغنى الذى كانت تتمتع به الدولة عندما تكدس فى عاصمتها كل ذهب العالم الوسيط وبعد ان اتجهت الى التجارة الخارجية مع الشرق الاقصى مما فتح امام بغداد سيلا من التقدم والرخاء الاقتصادى .

- ومن صور هذا العصر ازدهار العلم والثقافة فكانت بغداد مركزا مهما يقصدها الطلاب من كل مكان، يقوم فيها الدرس فى المساجد الجامعة التى كانت مكانا لتلقى العلوم .

وصاحب هذه النهضة العلمية حركة ترجمة واسعة ، وقام الفكر الاسلامى من امتزاج الثقافات ونما على اساس الأخذ والعطاء ، ولم يوجد من يتهم فكرا بأنه مستورد، وترجمت امهات الكتب إلى العربية حتى أنه فى أيام القتال بين الروم والعرب قام التبادل الحضارى بينهما ، ويروى التاريخ كيف لم ينس المسلمون خلال غاراتهم على الروم زمن الرشيد والمأمون أن يسعوا للحصول على كتب العلوم المختلفة من انقره وعمورية ولم يكتف الخلفاء بإحضار الكتب ولكنهم احضروا العلماء، فإذا ذكر للمنصور احضاره بعض علماء الطب من الهند فقد نقل عن المأمون انه ارسل رسالة الى تيوفيل امبراطور الروم يطلب فيها السماح للعالم الرياضى ليو بزيارة بغداد ويعرض فى مقابل ذلك الصلح الدائم وألفى قطعة ذهبية .

- وفى مبنى مهيب أقيم بيت الحكمة الذى جمعت فيه الكتب من كل انحاء العالم ، وبعث الخليفة المأمون إلى حاكم صقلية كتب الفلاسفة ونفائس العلم من مكتبة صقلية ، وجمعت الكتب بلغاتها وبدأت ترجمتها وكان يعطى وزن ما يترجم ذهبا ، كما أمر بأن تشترى المصنفات اليونانية من آسيا الصغرى، وارسلت بعثة الى ملك الروم لترجمة العلوم المخزونة هناك ، ولم يكتف العرب بالترجمة وإنما تجاوزوها إلى التحقيق والإضافة .

وفى عصر المأمون استهل ابو يوسف الكندى فيلسوف العرب وأحد عقولهم الكبرى فى تاريخ العالم نشاطه الفكرى ، بما قدمه من دراسات فى التاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية، وعني بعلم الحرب فوضع رسالة ذكر فيها مايزيد على خمسة وعشرين ضربا من ضروب السيوف وفقا لمصادر انتاجها من اليمن الى سرنديب (سيرالانكا) وحتى فرنسا وروسيا .

– وشهدت هذه المرحلة التاريخية معارف نظرية جمة ويعجب المرء كيف لم تطبق هذه المعارف النظرية فى الحياة اليومية، وهذه المعارف ذاتها التى طبقت فى اوروبا بعد عصر النهضة وقامت على أساسها الثورة الصناعية ، فمثلا وجدت العجلة التى استخدمت فى الحروب ولم تستخدم في المواصلات . وعرف النفط واستعمل للوقود للإضاءة ولكنه لم يتحول إلى الصناعة . ومن المدهش كتاب احمد بن موسى بن شاكر فى علم الحيل والذى طرح مائة مسألة نظرية وقدم الاجابة عليها جميعا ولكن يلاحظ ان ٢٠ مسألة تطبيقات عملية لمعارف نظرية تتعلق بالحرب و ٨٠ مسألة للالعاب والتسلية ..! .

وهذه الظاهرة نفسها هى التى حولت جابر بن حيان اعظم الكيمائيين العرب من كيميائي الى ساحر ! .

وربما يرجع ذلك إلى عدم نشوء الحاجة التى تحول هذه المعارف النظرية إلى تطبيقات أو لعله طبيعة المجتمع الذى كان يقوم علي

الخاصة ، ويبقى تفسير هذه الظاهرة قابلا للبحث والدراسة وشهد هذا العصر ظهور الاصمعي والفراء . والكسائي والخليل بن احمد في اللغة والمبرد والجاحظ في الادب وابو نواس وابو العتاهية ومروان بن ابى حفصه والعباس بن الاحنف في الشعر وابراهيم بن الخليفة المهدى وابراهيم الموصلى وابنه اسحاق في الموسيقى وفي العلم والطب والفلك آل بختيشوع واولاد شاكر وحنين بن اسحق والخليفة المأمون وابن ماسويه وابن البطريق وغيرهم، وظهر فقه المذاهب الاربعة.. وكان هؤلاء هم اعلام التقدم الفكرى في عصرهم بأكمله ..

ونشأت الجمعيات العلمية مثل جماعة اخوان الصفا التى كانت رسائلهم عامرة بالحكمة والفلسفة والرياضيات والطبيعيات ووصف المعادن والنبات والحيوان وظواهر الطبيعة، وبلغت رسائلهم اثنتين وخمسين رسالة وكانت بمثابة دائرة معارف موسوعية تحيط بمعارف العصر .

وازدهرت مدرسة بغداد الفلكية سبعة قرون، بدأت مع تأسيس مدينة السلام وحدد العرب مدة السنة بالضبط ، وأقدم فلكيو المأمون على قياس خط نصف النهار الذى لم يوفق له الاوربيون إلاّ بعد الف سنة كما ذكر العالم الفرنسي جوستاف، لوبون، يقول : إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله، فقد دام عملهم في حقل الحضارة بعد زوال سلطانهم السياسى .

وشـهـد هـذا العـصـر من المنجـزات صناعـة الورق والتى بدأت فى سـمرقند وانتقلت إلى بغداد فى عـهد الرشـيد ومنها إلى الشـام ومصـر والأندلس، وقـدم العـرب أداة حـفظ الثـقـافـة والعلوم ونـشـرها الـواسع والرخيص .

وحـفلت بغـداد بعـدد كـبـير من خـزائن الكتب وكـان لهـذه الخـزائن انظمـة خـاصـة بالمطالعـة والإعـارة والاسـتـنسـاخ وبيع الكتب وتجليـدهـا وتزويقها ونقشـها والاعتماد على النسـاخ ..

وفى عـصر الرشـيد تتلاحق الصـور الموحيـة.. فقد تجمعت كل روعة فترة الاسـتـقرار فى عـهده والتى يمكن اعـتبـار سـيـرته مكملة للمـيراث الفكري للانسـانية .

ونقلت روايات ألف ليلة وليلة صـورة عصـر الرشـيد إلى أذهان العالم . حـتى أصـبـح الرشـيـد لدى الغـربيين يمثل نواحى الجـلال والعظمـة العربية..

وازدهرت الموسيقى والغناء بفضل اهتمام الخلفاء والوزراء حتى ان صاحب كتـاب الفـخـرى فى الآداب السلطانيـة يقـول : من اشـهـر المغنين فى ذلك العـصـر ابراهيم الموصلى وابنه اسـحق وكـانا من رجـال الادب وكتب اسحق رسالة مطولة فى الغناء صحح فيـها انغامه واحتفظ بالغناء القديم ، وانتشـر الغناء فى هذا العصـر انتشـاراً كبيرا حتى اصـبـح من حاجات الناس الاساسية .

لقد لعبت القيان دورا كبيرا في حياة بغداد الاجتماعية ، يقول ابو حيان التوحيدى فى كتاب الامتاع والمؤانسة : إن عدد الجوارى اللائى يحترفن الغناء فى بغداد بلغ حسب إحصائه اربعمائه وستين جارية وكان الناس يترددون على المحال العامة للسماع للمغنيات . وكانت العناية بتعليم الجوارى تزيد على تعليم الحرائر وكان ثمار هذا الجو كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى .

– وظهرت فى عصر الرشيد شقاوات بغداد عندما جمع الامام جعفر الصادق الفتوة وتولى رئاستها واشترط للانتماء لها مكارم الاخلاق ، وكان يواجه بها الظلم والطغيان وعندما داهمت بغداد الفتنة بسبب الحرب بين الامين والمأمون قاد سهل بن سلامة الانصارى الفتو لقتال الشطار الذين اخذوا يمارسون السلب والنهب ، وازدهرت الفتو فى عصر الخليفة الناصر لدين الله، ووضع لها نظاما خاصاً ، وعين لفتيانها المراتب وألبسهم سراويل الفتوة البيضاء التى لايزال يلبسه ابناء البلد فى الأحياء الشعبية حتى اليوم ..

عندما انتقلت الخلافة إلى العراق بعد قيام الدولة العباسية كان العراق أوفر حضاره ، وسبق واعتزت العراق على الشام بعلومها فاختلاف الحياة الاجتماعية فى العراق عن الحياة الإجتماعية فى الشا جعلت الحاجة ماسة لنوع من العلوم أصبح ضرورياً ، فدجلة والفرا تحتاج إلى نظام للرى لا تحتاجه الشام والجزيرة العربية وانعكس ذا على طريق تحديد الخراج .

واتسم العصر العباسي بقدر من حرية الفكر ، فنرى عدداً من المؤرخين نقدوا أعمال العباسيين وألفوا هذه الكتب في ظل حكمهم واستطاع كثير منهم أن يتحرروا من تأثيرها ، فهذا الطبرى يروى عن مؤرخين أفصحوا عن آراء وأخبار لاترضى الخلفاء ، فقد ذكروا السفاح وسفكه للدماء ، وعابوا على المنصور شحه وقتله الكثير من الناس ظلماً ، وسجلوا الأبيات التي هجا بها بشار الخليفة المهدى ووصفوا مجالس لهوهم ، ومن صور الحرية، ما كان يتناوله المعتزله لأحداث التاريخ ، وما يحللون من أفعال الصحابه .

لذا أصبحت العراق من أهم مراكز الحياة العقلية .. وجاء في الأثر .. أن بغداد فخرت على البصرة والكوفة معا ، ويقول الجاحظ عن بغداد .. «إن الدنيا كلها معلقة بها وصائرة الى معناها .. وجميع الدنيا تبع لها ، وكذلك أهلها لأهلها وفتاكها لفتاكها ..»

وظهرت عصبية جديدة للقطر ثم للبلد ، فالعراقيون يتعصبون للعراق على الحجاز ، والحجازيون يتعصبون للحجاز على العراق .

وهكذا وكانت جميع الحركات والمدارس الفكرية - بمقاييس هذا الزمان تتلاطم وتتصارع فى بغداد ، وتضم أنصاراً لجميع المذاهب ، وأهم حركتين هما الحنابلة و الشيعة ، يسكن أنصار الشيعة ، حول سوق الكرخ ، ويسكن السنة حول بيت الكرخ والقبله حتى اليوم .

والصورة هذه المرة من الصين ومن سجل تاريخ الامبراطور كوانج تونج، وتعكس دور العرب في المجتمع الدولي .. يقول :

في عـهد دولة تانج وفد على كانتـون عـدد من الغرباء وكـان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس امم فى معابدهم تمثال أو صنم وكانت مملكة الاسـلام قريبـة من مملكة سهند وفيـهـا نشـأت ديانـة هؤلاء الغرباء التى تختلف عن ديانة بوذا وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشـربون الخمر ولا يأكلون الذبائح التى لا يذبحـونـهـا بأيديهم واسـتـأذنوا الامـبـراطور وحصلوا منه على إذن بالاقامة في كانتون ، وبنوا دورا جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذى في بلادنا وكانت لهم ثروة عظيـمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بانفسهم ..

وعندمـا قـامت فى عـام ٧٥٦م اضطرابات فى الصين واجـبـر امـبراطور الصين على التنازل عن العرش لابنه طلب الابن النجدة من الخليـفـة العـبـاسى المنصـور، فـأجـاب بارسـال قـوة عـسكرية نجح بمساعدتها في استرداد عاصمته من ايدى الثوار ، وتضيف المصادر الصينيـة ان قوة النجدة العباسية لم تعد الى بلادها وبقيت فى الصين وتزوج أفرادها هناك واستقروا . ومرت بغداد بأيام عز وأيام انكسار، وسيطر عليها يوما عام ٣١٥هـ - ٩٢٧م العيارون، وأعملوا فيها النهب وظهر بعدها لص بغداد ابن حمدى ، على رأس جماعة تنهب أموال أغنياء بغداد حتى أعيى السلطان أمره.

هل الدولة العباسية ثورة ..؟

ونصل الان الى السـؤال التالى : هل الدولة العباسية كانت تطورا طبيعيا واستمرارا لما قبلها ام ثورة على ما سبقها ؟. لنعرف ما اضافته الدولة الجديدة فى التاريخ العربى والاسلامى ..

تذهب اغلب المصادر الى أن انتقال الخلافة من بنى امية الى بنى العباس هو الانتقال من عصر تاريخي الى اخر وانه انقلاب جذرى وثورة فى كيان الدولة العربية الاسلامية وقيام أول انقسام فى عالم الاسلام؛ الدولة العباسية فى العراق والدولة الأموية فى الاندلس ، ولكن هذا التغيير كان فيه من الدهاء والقدرة السياسية اكثر مما فيه من الانقلاب . وهو انتقال الحكم من اسرة الى اخرى مع تعديلات فرضتها سنة التطور وهى تختلف بذلك عن ثورة الاسلام العميقة فى الجزيرة العربية عندما غيرت المفاهيم والقيم وانعكست على البنية الرئيسية للمجتمع العربى . والعديد من انظمة العباسيين كانت استمرارا او تطورا لمؤسساته. فمع اتساع الدولة الاسلامية ودخول شعوب متعددة فى الاسلام ، استجاب العباسيون الى ذلك الواقع الجديد ، وعادت المبادىء الاسلامية فتأكدت من جديد واندحرت فكرة ارتباط الاسلام بجنس مسيطر هو العرب. وتحولت الدولة الى دولة قوميات متعددة بعد أن كانت فى العصر الاموى واحدة القومية. وبرز دور الشعوب الأخرى تحت راية الاسلام واختفت التفرقة التى ظهرت فى العهد الاموى فكانت اسلامية اممية يقوم فيها العرب بدور الحكام ويلعبون فيها دورا رئيسيا مع بروز الشعوب الاخرى على اساس وحدة الاسلام الذى يجمع بين المواطنين جميعا . وكان من علامات قوة الدولة العباسية ما حدث داخلها من امتزاج حضارى خلاق ، وتعزيز ظاهرة التفاعل الحضارى

بين العرب وسواهم من الشعوب والحضارات الاخرى وخاصة مع فارس وتركيا والهند. وظهر ذلك فى نظام الضرائب الذى لم يعد يفرق بين العرب وغيرهم. اذن كانت الدعوة العباسية استجابة لدخول شعوب متعددة فى الاسلام واتساع رقعة الدولة التى امتدت فى المناطق الشرقية فى اسيا ..

وصاحب ذلك الاتساع قيام الدعوة العباسية السرية فى الامصار التي نظمت صفوفها تنظيما دقيقا صبورا استمر ربع قرن تحت شعار الدفاع عن آل البيت امام الاضطهاد الذى لحقهم امام القوة الاموية والتى ادت الى عدد من النكبات والهزائم الدامية اهتز لها الضمير العربى واشاعت السخط والغضب، ونجح العباسيون فى استغلال ذلك ونالوا ما اخفق فى تحقيقه شيعة على. وفشلت كل المحاولات التى قاموا بها. وقد شكلت فجيعة البيت العلوى إحدى الصور التاريخية المؤلمة، والتى كانت نتيجة المثالية الشديدة التى تصرفوا على اساسها. وتسرب الانقسام الى صفوفهم فكل فرقة تدعو لاحد ابناء البيت العلوى. وهى قصة الذين يقدمون التضحيات دفاعا عن مبادئهم ومن أجل التغيير. فيأتى غيرهم ليحصد ثمن تضحياتهم فعادة لا ينتصر الاكثر اخلاصا او الاشد صدقا وانما الاكثر كفاءة والأشد براعة. فكان العباسيون هم الاكثر دهاء والابرع سياسة والاكثر واقعية . يعيشون حياة ظاهرها قائم على رواية الحديث والتفقه فى الدين وباطنها قائم على دراسة

الاحوال الاجتماعية والتيارات السياسية. يجندون لتأييد الدعوة جماعات واتجاهات متباينة الاهداف. ترى كل من هذه الجماعات فى الدعوة العباسية تحقيقا لمصالحها الخاصة وحلا لمشاكلها.

وظهرت كفاءتهم في الاستجابة للواقع الجديد واختيارهم لخراسان لانطلاق دعوتهم ، وكبؤرة للعمل السياسى. فقامت الدعوة على محور جغرافى مثلث يمتد ما بين الحميمة فى الاردن وبين الكوفة فى العراق حتى خراسان فى اقصي الشرق الاسلامى . واختيرت الكوفة لبدء النشاط العباسى ، فهى جغرافيا متوسطة الموقع بين الشام والبلاد الشرقية .

وهكذا اتبع العباسيون سياسة عملية واقعية ويذكر صاحب الفخرى: ان الدول العباسية ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان اخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة او رغبة .

فقد قام بنو العباس على اساس انهم يريدون احياء السنة وحكم العدل وارجاع الخلافة الحقة. وارتدى خلفاؤهم البردة واحاطوا انفسهم بالفقهاء وحاربوا الزنادقة ، وصاحب هذا تغير فى نظرية الحكم فبعد أن كان الخليفة الاموى اشبه بشيخ قبيلة يستمد قوته من رضى رؤساء القبائل، اصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة من الله. وتعبر عن ذلك بوضوح خطبة ابى جعفر المنصور : «ايها الناس انما انا سلطان الله

فى ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتاييده . وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وارادته، واعطيه بإذنه فارغبوا الى الله وسلوه ان يوفقنى للرشاد والصواب وأن يلهمنى الرأفة بكم والاحسان اليكم» .

ومع نهاية عصرهم ادعوا ان السلطة ستبقى فى ايديهم والا «فسيختل نظام العالم وتحتجب الشمس ويمتنع المطر..»، وكان النفوذ الدينى المختلط بالسياسة هو السبب فى العمر الطويل الذى تمتعت به، كما كان السبب فى احترام الفرس والترك للخليفة العباسى .

ومع استمرار الدولة العباسية حقق العصر العباسى الاول تألقا ونجاحا فى الميدان السياسي، اما بعد ذلك من مراحل العصر العباسى فقد استمر العطاء الحضارى مع المصاعب السياسية التى بدأ يواجهها العباسيون . فبعد البزوغ والعنفوان جاء التدهور والاضمحلال، وتحولت الظواهر التى كانت من علامات القوة الى علامات وهن وضعف، فبعد أن كان اتساع الدولة احد مزايا الدولة العباسية اصبح احد اسباب ضعفها، فمع اتساع الدولة وضعف السلطة المركزية وبدائية وسائل الاتصال والمواصلات بدأت أوصال الدولة تتقطع والذى عبر عنه ابن الفوارس بن الخازن المؤرخ المعاصر لتلك المرحلة بذكره قول الموفق العباسى: هذه السنة مصر وساير الشامات فى يد خمارويه بن طولون . والجريرة مع اسحق لا فضل فيها عنه، وقنسرية والعواصم مع أبى الساج .وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن احمد، وطخارستان وبلخ وسمرقند فى يد داود بن هاشم بن ليجور، ونيسابور

فى يد رافع، وسجستان وكرمان وفارس واصفهان فى يد عمرو بن الليث، واضاف : ليس فى الدنيا (لنا) غير سقى الفرات ..

● وبعد انتصارهم الحاسم على البيت العلوى ارتبط تاريخ الدولة العباسية بالصراع السياسى بين آل بيت الرسول وبين البيت العباسى الذي ينتمى الى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى البيت العلوى الذى ينتمى الى على بن ابي طالب، والذين رأوا فى النصف الثانى من القرن الثالث ان ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية . وبعثوا دعاتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية حتى قامت دولة لهم فى المغرب، ومن المغرب مدوا سلطانهم الى مصر وسوريا والجزائر والحجاز واليمن .

وهذا الصراع زلزل اركان الدولة واحد اسباب تفككها ومنه نشطت الفرق المختلفة مثل الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة، وخلاله ظهرت الحركات الصوفية والقرامطة وثورة الزنج .

من الوحدة الي الانقسام .. !!

●وفى مرحلة شيخوخة الدولة العباسية تحولت ظاهرة القوة المتمثلة فى الامتزاج الحضارى بين الشعوب الاسلامية الى ظاهرة ضعف، وظهر الاصطلاح الذى تردد كثيرا فى كتابات هذه المرحلة وهو «الشعوبية»، وبداية ظاهرة الانقسام فنشب بين العرب أنفسهم تنافس بين المضريين واليمنيين ثم بين العرب والفرس والترك، ويلاحظ ان هذا الصراع كان يشتد ويخفت مع ضعف الدولة وقوتها ، وتجد ملامحه

فيما قام به ابو جعفر المنصور عند قتله أبى مسلم الخراسانى ، وظهر فى عصر الرشيد متمثلا فى نكبة البرامكة ويعود ويطل برأسه من جديد فى الصراع الذى نشب بين الامين والمأمون.. وقد ظهر تعبير «الشعوبية» فى العراق لأن تنوع الشعوب تركز فيها بوصفها مركز الدولة وعقدة الطرق التجارية من بحرية وبرية وانتقل اليها معظم العلماء والحركة الثقافية سواء العربية أو علوم الأوائل من الاغريق والفرس والهند ، وشهد الصراع بين القوة العربية والقوى الاخرى. وافرخت فيه نقمة عبرت عن نفسها بالتحاق بعض المناوئين بالثورات وتبنى كل فكرة مناوئة للحكم ..

ومن اهم اسباب هذه الظاهرة ما قام به الخلفاء انفسهم عندما سعوا الى تدعيم سلطتهم عن طريق احدى الجماعات القومية الضعيفة وتقويتها والاعتماد عليهم ظنا منهم ان ليس لهم آمال وان الخلفاء متى اصطفوهم يستطيعون الاعتماد عليهم ولكن سرعان ما يتميزون ويشكلون قوة تسعى الى الاستئثار بالنفوذ والسلطة وهذا ما حدث من الاتراك وكان احد اسباب انتقال العاصمة من بغداد إلى سامراء. ووصل نفوذهم إلى الحد الذى يولون فيه الخلفاء ويعزلون من يعترض طريقهم. وتحولت البيعة الى مظهر شكلى فقدت فيه معنى الاختيار وغدت مناسبة للاعتراف بالخليفة وليس اختياره .

ولم يعد حديث الهمداني مجديا حين قال : «انه من ميزات بغداد ان السلطان آمن من أن يغلب عليها رئيس لبعض الاراء كغالبية الطالبين

كثيرا بالشيعة. فى اهل الكوفة. وذلك ان من مخالفى الشيعة من يقرن بالشيعة . وبها من مخالفى المعتزلة من يقرن بالمعتزلة ، وبها من مخالفي الخوارج من يقرن بالخوارج. فكل فريق يقاوم ضده ...»

وهى لعبة خطرة ثبت انها عادة ترتد على من بدأها، ودفع الخلفاء ثمنا غاليا لارتكابها، وهكذا لعبت السياسة بالعقيدة، واصاب الدولة العباسية داء الانقسام واخطاره . واخذت وحدة الاسلام السياسية تتفكك، وتظهر فى الاقاليم اسر حاكمة تعترف شكليا بسيادة الخليفة وتحكم باسمه ..

مشكلة ولاية العهد !

كما أن مشكلة ولاية العهد ارهقت الدولة العباسية واضعفتها، فلم يوضع نظام ثابت متفق عليه لتداول السلطة ، وتحولت الى نزاع مستمر فى قمة البيت العباسى، فلا اخذ بفكرة ولاية الابن الاكبر ولا بفكرة اختيار عميد العائلة وكبيرها، وكان الخلفاء تحت تأثير عاطفة الابوة يعهدون بالولاية الى ولدين أو أكثر من ابنائهم مما يزرع بذور الشقاق فى الاسرة فالذى يصل الى الحكم يفضل ابنه على اخيه. هذا ما قام به ابو جعفر المنصور عندما فضل ابنه المهدى على ابن اخيه عيسى بن موسى، وارتكب ذات الخطأ المهدى فجعل ولاية العهد بعد ابنه موسى لابنه هارون مما ادى الى موت الهادى مسموما. وتعود وتظهر المشكلة مع الهادي عندما صمم على نقل الخلافة الى ابنه جعفر وطلب من اخيه

هارون التنازل عنها . ومع بلوغ الازمة حول ولاية العهد الى الذروة يموت الهادى وهو فى الثالثة والعشرين . ويكشف الطبرى خبايا الحادث بقوله :

كانت وفاته من قرحة فى جوفه من قبل جوار لأمه الخيزران عندما امرتهن بقتله لاسباب منها ان الهادى نابذ امه ونافرها . ويضيف : حدثنى بعض الهاشميين ان سبب موت الهادى انه لما جد فى خلع هارون واخذ البيعة لابنه جعفر .افت الخيزران على «هارون» فدست اليه من جواريها ، ولما مرض قتل بالفم والجلوس على وجهه ..

وهى من اغرب الروايات التاريخية التي تقتل فيها الام وليدها من اجل السلطان .. وتعود نفس القصة فتتكرر عندما يأتى الرشيد ويأمر بتولية ابنائه الثلاثة الامين ثم المأمون ثم المعتصم. وتتكرر المأساة ويقتل المأمون الأمين فى صراع مسلح دام خمس سنوات أنهك الدولة العباسية ومزق البيت العباسى ..

الأفول .. !!

وتمضى ايام بغداد ..

وكان اجتياح هولاكو لبغداد عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨ م بداية النهاية للدور المتألق الذي قامت به بغداد فى العالم، وبداية ظلام طويل تقاذفتها خلاله امواج الحروب وانتد ت من احتلال لاحتلال وعاشت مرحلة تدهور استمر زهاء اربعة قرون . وتوالت على سكان بغداد الاحداث وبقيت بغداد تنتقل بين الحكام والمذاهب. مرة ينتشر المذهب الشيعى وينتقل

الكثير من الفرس الى بغداد ويضعف المذهب السنى ويأتى حكم الاتراك العثمانيين فى النصف الاول من القرن العاشر للهجرة فى عهد السلطان سليمان. ويرتفع المذهب السنى على ما دونه من المذاهب. ويعود كرة اخرى المذهب الشيعى، عندما يحتل الشاه عباس الكبير بغداد فى الثلث الاول من القرن الحادى عشر للهجرة. ويعود حكم الاتراك العثمانيين باحتلال السلطان مراد الرابع بغداد ١٦٣٨م ليدعم المذهب السنى، وفى كل هذه الدورات يضطهد اهل بغداد من الذين يخالفون الحاكم الجديد المذهب ..

وبدأت مع الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧ م مرحلة جديدة فى تاريخ بغداد وشهدت الصراع الحضارى مع الغرب. فالعاصمة التى كانت احد مراكز الاستقطاب الفكرى والاشعاع الثقافى للحضارة العربية اصبحت وجها لوجه امام الحضارة الغربية الغازية...

والعراق الحديث أقامه البريطانيون من ثلاث ولايات عثمانية هى الموصل والبصرة وبغداد، وفى البداية رفضت واشنطن الاعتراف بها، ولم تعترف بها إلا بعد عقد كامل، وبعد موافقة لندن على منح شركات النفط الأمريكية حصة من حقول كركوك.

وتروى جيرترود بل البريطانية، انها عندما سعت لتوحيد العراق، حذرها أحد أعضاء الارسالية التبشيرية الأمريكية من أنها تتجاهل وقائع تاريخية عميقة الجذور، وكتب اليها قائلا - كما جاء فى كتاب سلام ما بعده سلام لمؤلفه دافيد فرومكين - «إنك بمحاولتك رسم خط حول العراق - يصل طوله إلى ٣٣١ كيلو مترا - وتسميته كيانا سياسيا انما تصطدمين بأربعة آلاف سنة من التاريخ، فامبراطورية آشور كانت تتطلع دوما غربا وشرقا وشمالا. اما بابل فكانت تتطلع جنوبا، ولم تكونا إطلاقا وحدة مستقلة، وعليك أن تتمهلى وتأخذى الوقت الكافى لتحقيق دمجهما، وهذا يجب أن يتم تدريجيا، فلا يوجد بعد مفهوم الأمة».

وتستمر بغداد تخوض الصراع وتحمل معها دورها التاريخى القديم المتالق..

وما أقرب اليوم من البارحة، فطالب تشرشل حكم بلاد الرافدين بالطائرات.. «فبضع قواعد جوية محمية حماية جيدة سوف تمكن سلاح الجو الملكى البريطانى من القيام بالسيطرة عليها.. دون الحاجة الى الاحتفاظ بخطوط مواصلات طويلة تستنفد الجهد والمال ...» .!

وهو ما تطبقه القوات الأمريكية والبريطانية اليوم.

هذه إطلالة على بغداد الحاضر وبغداد التاريخ، لعلنا نمسك بأبعاد وآثار الأزمة العراقية الراهنة.

نسعى خلالها لا لمجرد الاكتفاء بما يظهر على السطح، بل نغامر بالغوص فى الأعماق، لعلنا نصل إلى حقيقة ما يجرى، نبحث جذور السياسات لا وسائل تنفيذها.

نتناول الثوابت قبل المتغيرات، على أن تكون محاولة للتفسير تبعد عن أن تكون محاولة للتبرير.

بغداد وصدام الحضارات
(٢)

ولتكن البداية تلك الظواهر التاريخية اللافتة للنظر، فمنذ أن قضى هولاكو على الدولة العباسية، لا تكاد تمر حقبة تاريخية إلا وتعاني العراق من الضرب أو الحصار أو كليهما معا، والتى كان آخرها، بما لا يخفى، عملية «عاصفة الصحراء» وبعدها «ثعلب الصحراء».

والملاحظ أيضا، أن العراق كانت دائما مسرحا لصراع حضارى جبار.

هل يرجع ذلك إلى أنها دولة تخوم عربية، تقوم على الحدود الفاصلة أو الحدود الواصلة مع غيرها من دول المنطقة غير العربية ؟..

ولنتوقف عند المشهد الأخير..

نرى العراق، وهى القوة العربية الثانية، تتعرض للعدوان، ويتقلص دورها، وتتبدد مواردها، ونبحث عن الدوافع الحقيقية لما يجرى، وهل نكتفى بما يعلن وتبثه أجهزة الإعلام المختلفة، من أن الهدف هو القضاء على الرئيس العراقى صدام حسين، ستدفع دول الجوار جميعها ثمنا غاليا لعدم الاستقرار الذى تشهده المنطقة أو من احتمالات تقسيم العراق !

خاصة وأن المسألة أبعد، وأعمق من الظاهر من الأمور.

ويدعي البعض أن هدف العدوان هو القضاء على أسلحة الدمار الشامل، فهل يتم ذلك بملاحقة العقول والقضاء على العلماء أو إجبارهم

على الهرب من البلاد، والذين يصل عدد من يعمل منهم فى مجالات علمية ما يقترب من نحو سبعة عشر ألف عالم فى التخصصات العلمية المختلفة !

ويزعم البعض الآخر أن هدف حملة «ثعلب الصحراء» حماية دول الجوار، فهل تملك العراق بعد كل ما لحق بها من تدمير قدرة على شن الهجوم على جيرانها، بعد أن تحولت دول الخليج إلى ترسانة عسكرية مدججة بالسلاح ؟.. أما القول إن ما يجرى هو عقاب العراق على غزو الكويت، فلا يجوز أن يتجاوز العقاب الفعل الأصلى، فالعقاب من جنس العمل، ولابد أن تكون له نهاية، وهل قتل النساء والأطفال والشيوخ فى معركة من جانب واحد يمكن أن تكون له أية صلة بحقوق الإنسان أو الشرعية الدولية ؟!

إن الهدف من هذا العدوان ليس نظام الحكم، وإنما قوة العراق التى تمثل جزءا رئيسيا من القوة العربية، وإذا لم تسمح الضرورات الجغرافية السياسية والاستراتيجية بتقسيم العراق، فهذه الغارات المستمرة على مناطق حظر الطيران تهدف إلى إبقاء العراق فى حالة من الضعف والعجز، فليست لهذه الغارات أية علاقة بقرارات مجلس الأمن لا نصا ولا روحا، وهى معركة استنزاف مستمرة، تقصد ضرب البنيتين التحتية والفوقية ويدفع ثمنها شعب العراق لآجال طويلة.

●●●

فهل هى مجرد مصادفة، أن تستهدف الطائرات المغيرة بغداد الرشيد فتصيب بقذائفها «المدرسة المستنصرية» القائمة منذ العصر العباسى، كما تصيب «القصر العباسى»، وكأن الغارات تستهدف ليس العلماء الحاليين وحدهم بل تستهدف أبا حيان التوحيدى والجاحظ والحلاج والمتنبى وأبا تمام وأبا حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل واليعقوبى وابن عبدالحكم والفارابى والكندى وابن ماسويه والمقدسى وابن حوقل، وابن سينا والبيرونى والقائمة طويلة من فقهاء وعلماء العصر العباسى.

●●●

أما المشهد قبل الأخير ففيه قسمت العراق فى العصر العثمانى إلى ثلاث ولايات هى بغداد والبصرة والموصل، ثم قامت العراق بتكوينها الحالى، كإحدى نتائج الحرب العالمية الأولى، ورغم قيامها على قواعد مضطربة وأسس واهية إلا أنها بعد اكتشاف النفط وما صحبه من أطماع وصراع، ومع انتهاء الدولة العثمانية جاء الاحتلال البريطانى عام ١٩١٧م ، وأعلنت العراق محمية بريطانية عام ١٩٢٣م ، وقامت منذ اللحظات الأولى باعتبارها «دولة أزمة»، وأعلن استقلالها الشكلى عام ١٩٣٢م .

وتعمدت السياسة البريطانية ألا تجعلها ثابتة أو مستقرة، ووضعت هذه السياسة خميرة ما تعانيه اليوم العراق، وكان شعب العراق آخر

من يقول رأيه في شئونه لذا بقي يعبر عن نقمته بصور شتى، وإحدى صورها ذلك العنف الجارف الذي شهده تاريخها الحديث.

ولم يغب عن تلك السياسة العزف على وتر الزهو القديم لشعب العراق، فيعلن الجنرال مود بعد بضعة أيام من احتلال بغداد.. «أن أمنيتنا أن تتفقوا كما كنتم في الماضي، عندما كان العالم كله يتعلم من حضارة وفكر أجدادكم وعلومهم وحرثهم، يوم كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا»..!

ومن يومها أخذت السلطات البريطانية تكرس الوضع العشائري والاختلافات المذهبية، وقامت برسم حدود مصطنعة، وأخذ سكين الاستعمار الحاد يقوم بالجمع والطرح، وزاد من ظاهرة الأقليات التي قدمت لها بريطانيا حمايتها، وخاصة الآشوريين الذين نزحوا من تركيا إلى العراق خلال الحرب العالمية، ولم يكن عددهم في الثلاثينيات يتجاوز ثلاثين ألف نسمة، وقام الآشوريون بتشكيل ميليشيات ضد الأهالي في الموصل وفي كركوك.

وبالنسبة للحدود التركية العراقية، كانت ولاية الموصل تابعة للنفوذ الفرنسي في اتفاقية سايكس - بيكو، وتنازلت فرنسا عن الموصل لبريطانيا في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠م ، وأخذت الحكومة التركية تطالب بولاية الموصل، وبعثت عصبة الأمم بعثة إلى المنطقة، وجاء في تقرير البعثة أن سكان المنطقة من الأكراد والعرب، وأن الأكراد والعرب

هما العنصران اللذان يسكنان بكتل كبيرة متماسكة فى المنطقة، وضمت أخيرا الموصل إلى العراق.

وفى الحدود الجنوبية للعراق وضعت خميرة الصراعات الملتهبة فى الجنوب، ويروى الشيخ خزعل قصة المؤتمر الذى تقررت فيه هذه الحدود، عندما عقد فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٢ م مؤتمر العقير الذى رسمت فيه الحدود بين العراق ونجد وبين نجد والكويت، والذى رأسه السير برسى كوكس ومثل الكويت الميجور مور، وبعد جلسات خمس أبلغ السير برسى كوكس المجتمعين أنه سيخطط الحدود بنفسه، وأخذ قلما أحمر، ورسم عليه خطا للحدود يبدأ عند نقطة على الخليج تصل إلى جبل عنيزان الواقع بالقرب من الأردن، وأعطى العراق مساحة من الأرض تدعي نجد ملكيتها، وأعطى لنجد ثلثى أراضى الكويت، وإلى الجنوب والغرب من الكويت رسم منطقتى حياد أو صراع، سميت الأولى منطقة الكويت المحايدة، وسميت الثانية منطقة العراق المحايدة.

وبذلك أزيح وانتقل شمالا العراق التاريخى، وحرم من أى منفذ يطل علي البحر. وبقيت قضايا الحدود قابلة للانفجار، ووقعت كل الأطراف فى الفخ البريطانى، واستمرت المنازعات تستنزف كل الأطراف.

وتحمل العراق بعد النفط وتوافر المياه احتمالات كبيرة فى تنميتها، لذا تجاهلوا شعب العراق وأخذوا يبحثون عن مرشح لتولى عرش العراق من خارجه، فرشح برهان الدين نجل آخر سلاطين آل عثمان،

ورشح بعده والى بشتكوة بصفته شيعيا جعفرى المذهب، واستقر اختيار بريطانيا أخيرا على الملك فيصل ابن الشريف حسين بعد خروجه من دمشق مهزوما فى معركة ميسلون، والذى تولى العرش فى العراق فى مؤتمر القاهرة فى ١٢ مارس سنة ١٩٢١ م .

وتعاملت السياسة البريطانية مع العراق لا بحكم أنها كيان تاريخى راسخ، ولكن باعتبارها كيانا جغرافيا يفرض عليه حاكم من الخارج، مع الإصرار على التأكيد ى كونها كيانا جغرافيا يضم فسيفساء من القوميات، العرب والتركمان والأكراد، كما يضم مذاهب شتى، السنة والشيعة والصابئة واليزيدية والآشوريين .

وهنا نتوقف قليلا، فكثيرا ما يقول البعض، إن العقل العربى يميل إلى الهروب من واقعه، ويبحث خارج الواقع عن مسئول عن ما يواجهه من مصاعب، ويجنح إلى تبرئة نفسه والإيغال فى اتهام الغير، وتضيع منه الفرص المتاحة لمواجهة مصاعبه، وهو قول صحيح فى بعض الأحوال، ولكن ليس صحيحا دائما، فها نحن نرى خميرة كل المصاعب التى يواجهها العراق، مصاعب تم التخطيط الأجنبى لها بدقة، وكثيرا ما يستهدف هذا القول ستر ما تقوم به الدول الكبرى، ويسعى إلى إعفاء الاستعمار من مسئولية أفعاله.

●●●

وأين ذلك كله من المشهد التاريخى، عندما كانت عراق التاريخ تحتل مكانها الراسخ فى الوجدان العربى؟!

فبعد المجد التاريخى، شهدت العراق سلسلة من الكوارث تعكس الفجوة بين الحلم والواقع، فعلى أرضها قامت الفتنة الكبرى ولقى مصرعه كل من على ابن أبى طالب ابن عم النبى، ثم الحسين ابن على حفيد الرسول فى مأساة فاجعة وصراع بين الحق والقوة، بين الحلم والحقيقة، ومازالت الذاكرة العراقية تختزن مأساة كربلاء، عندما تحالف الشر وانتصر على الخير، وحوصر حفيد سيد الخلق، ولم يسعفه أحد بشربة ماء، ولم يتنازل عن دعوته، ودفع حياته ثمنا لتمسكه بما يراه حقا.

وبعدها أخضع الحجاج شعب العراق بالحديد والنار.

وتعددت المرات التى دمرت فيها بغداد، ومن المعروف أن انسلاخ قوم من مرحلة فى تاريخهم إلى مرحلة أخرى، يترك ما يعوق الرؤية الدقيقة لأحداث الماضى، ويخضع الحاضر لعملية رد الفعل الذى يخل بتوازن التقدير للماضى، ويضعف القدرة أحيانا على استخلاص عبر التاريخ.

ولكن يبقى أثر الجغرافيا السياسية والاستراتيجية على الأحداث، وأثر الخبرات المتراكمة التى يختزنها شعب العراق.

فدمرت بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م على يد هولاكو، وأحرقت قواته قصور بغداد ورموزها، ونهبت مبانيها، ودمرت خزائن كتبها، وقذفت أهم المخطوطات العربية فى نهر دجلة، ودمرت سدودها وقنواتها، وتحولت بساتينها الخضراء اليانعة إلى صحراء جرداء.

أليس هذا ما قامت به «عاصفة الصحراء»؟

وبينما تقوم بغداد من جديد وسط كل هذا الدمار، جاءتها ضربة بربرية أخرى على يد تيمورلنك، الذى حول بغداد إلى خرائب وأنقاض، مثل ما قامت به العملية العسكرية «ثعلب الصحراء» !

وبقيت بلاد الرافدين بعدها خاضعة لسيطرة الإمارات والدول غير العربية خلال سبعة قرون، حكمها خلالها الأتراك العثمانيون أربعة قرون.. وتصارع طويلا الفرس والترك على أرض العراق، وخلف هذا الصراع أحقادا وانقسامات داخل العراق، وسيطر الأتراك العثمانيون فى المراحل الأولى من الصراع عام ١٥٣٤م زمن السلطان سليمان القانونى، بعد أن دمر الفرس مرقد «الإمام الأعظم» أبى حنيفة النعمان فى الأعظمية، وغدت العراق الجبهة الأمامية للدولة العثمانية فى مواجهتها للدولة الصفوية، ومرة أخرى عاد الصفويون لاحتلال العراق ما بين سنة ١٦٢٢ م وسنة ١٦٣٨م، بقيادة الشاه عباس، وأخذ الصراع بين الفرس والترك بعدا جديدا وأصبح كأنه صراع بين السنة والشيعة، وكلما تغلب طرف هدم الرموز المذهبية للطرف الآخر، حتى عقدت بينهما معاهدة أرضوم عام ١٨٤٧م، تخلت خلالها إيران عن السليمانية فى مقابل تخلى الدولة العثمانية عن المحمرة (خرمشهر) والساحل الشمالى لشط العرب.

ومازالت العراق تعانى حتى اليوم من آثار هذا الصراع الدموى القديم، والذى كان من نتائجه النزاع على شط العرب الذى كان من بين الأسباب التى فجرت الحرب العراقية الإيرانية، وأثر تراكم مرارات تلك الفترة على العلاقات بين السنة والشيعة.

وكـــان مـــن نتـائج ضـعــف الحكومـات تـغلـغـل القـبـائل مـن الصـحـراء المتاخـمـة للـعـراق، وتوالـــى هـجـرات العـشـائر مـــن أواسط جـزيـرة العرب إليـهـا، مما غلب البـداوة، كـمـا أن من آثار هذه الفترة أيضا انتقال الحوزة العلمية الشيعية إلى كربلاء ثم النجف، ونشأ وضـع فـريد، أن الشيعـــة العـرب أكثر علـمائهـم مـن الإيرانيين، فـأخـذت قـوافل الإيرانيـين تـصل تبـاعـا إلى العـراق من أجل زيارة العـتبـات المقـدسـة أو طلبا للعلم أو من أجل دفن مـوتاهم فى النجف الأشرف.

وورث العراق الحديث نتائج كل صراعات هذه المرحلة.

●●●

ومن آثارها احتياجها الدائم إلى سلطة مركزية قوية تضم الجميع تحت عباءتها، وأن تقوم العراق على أساس المواطنة وحدها بصرف النظر عن العرق أو المذهب، وحق الشعب فى اختيار حكامه.

وإذا كانت السياسة البريطانية قد جعلت من العراق «دولة أزمة» فمازالت بريطانيا هى العقل الاستراتيجى الذى يخطط للغرب تجاه العديد من دول الشرق الأوسط، وكما استخدمت أدواتها فى المرحلة الاستعمارية السافرة التى رسمتها بدقة لتطويع العراق، مع فهم دقيق لتاريخها وأوضاعها التى ساهمت بسياستها فى إقامة الكثير منها،

فعندما اشتدت الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال، هاجمتها من الصحراء العشائر، وإذا امتنعت الغراق عن التصديق أو الموافقة على سياسة جائرة، هددت بضياع ولاية الموصل، وإذا عارضت مطلبا بريطانيا، قامت حركة انفصالية فى شمال العراق، أو فتنة داخلية فى الجنوب !!

وقد استخدمت هذه الأدوات للحيلولة دون أن تصبح العراق ـ ثانى دولة عربية ـ جزءا من القوة العربية، ولكى تحول دون الدخول فى قضايا العرب وعلى رأسها قضية فلسطين.

ولعل الوصية التى تركها الملك فيصل الأول، ونشرها عبدالرزاق الحسنى فى كتابه «تاريخ الوزارات العراقية» تمس مباشرة المشكلات الأساسية التى صاحبت تكوين العراق الحديثة، وتكشف مصاعبها.

يقول: «إن العراق من جملة البلدان التى ينقصها أهم عناصر الحياة الاجتماعية وهو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهو مبعثر القوى، تنقسم قواه على بعضها البعض، يحتاج ساسته، إلى أن يكونوا حكماء مدبرين، وفى عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لأغراض شخصية أو طائفية أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معا، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالى، لا ينقادون إلى تأثرات رجعية أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل.

وفى العراق ـ نضيف وصية الملك فيصل ـ أفكار ومنازع متباينة جدا وتنقسم إلى أقسام : الشباب المعاصرون بمن فيهم رجال الحكومة والمتعصبون والسنة والشيعة والأكراد والأقليات غير المسلمة والعشائر والسواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة دون مناقشة.

فالعراق دولة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثمانى، وهذه الحكومة تحكم قسما كرديا، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونها بدعوى أنها ليست من عنصرهم، وأكثرية شيعية منتسبة عنصريا إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التى كانت تلحقهم من جراء الحكم التركى الذى لم يمكنهم من الاشتراك فى الحكم ومنعهم التمرن عليه، والذى فتح خندقا عميقا بين الشعب العربى المنقسم إلى هذين المذهب . كل ذلك جعل هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لأنهم شيعة، ويسوقون هذه الأكثرية للتخلى عن الحكم الذى يقولون إنه سيىء بحت.

وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر كردية، شيعية، وسنية، لا يريدون إلا التخلى عن كل شكل حكومى، بالنظر إلى منافعهم ومطامع شيوخهم. هذا كله عبر دسائس آشورية وكلدانية ويزيدية،.. كما أن العقول البدوية والنفوذ العشائرى للشيوخ، وخوفهم من زوال نفوذهم حين يقوى نفوذ الحكومة، كل هذه مصاعب كبيرة تواجه الحكومة..».

هذا ما كتبه أول حاكم للعراق الحديث، ووصيته أن يملك حاكم

العراق قبضة قوية في ظل وضع ديمقراطى، كما يرسم صورة واضحة لمصاعب العراق الحديث.

●●●

يأتى بعد ذلك دور الجغرافيا السياسية والاستراتيجية، فيقع على حدود العراق كل من إيران وتركيا، فعندما استسلمت العراق خلال الحكم الملكى للضغط الغربى وانضمت لحلف بغداد، وسايرت كلا من تركيا وإيران الشاه، سكنت المشكلة الكردية وهدأت العشائر فى الوسط والشيعة فى الجنوب، كما حرمت العراق من منفذ يقودها إلى البحار المفتوحة.

وجاءت الثورة العراقية فى ١٤ تموز سنة ١٩٥٨م ، وانسحبت العراق من حلف بغداد، فواجهت حكوماتها المتعاقبة العديد من المصاعب كما تعرضت لضغوط كبيرة، ولم تنعم هذه الحكومات يوما بالاستقرار، خاصة بعد أن حولت وجهها نحو العرب، وبدأت تواجه تمرد الأكراد فى الشمال، وبعد أن أخذت الدولة تسعى لاستثمار أموال النفط فى التنمية، وكانت مؤهلة لنهضة كبيرة فهى تملك النفط والمياه وقادرة بإمكانياتها وبأكبر احتياطى نفطى فى العالم أن تحقق انطلاقة كبيرة، وبالفعل انتشرت الجامعات وزادت البعثات العلمية فى الخارج.

●●●

وعندما اندلعت حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران بتحريض أمريكى، تدفقت عليها المساعدات، وحصلت على الدعم من أماكن

عديدة، وقويت عسكريا رغم فقدانها الكثير من شبابها، ولما توقفت الحرب كان من الضروري أن تغرق العراق من جديد في مشكلاتها، وأن تعود إلى حجم لا تتجاوزه.

فلكي يتم فرض إسرائيل على المنطقة يجب أن تظل العراق غارقة في مشكلاتها وكانت حرب الخليج الثانية، وكما انشغلت الجزائر بمصاعبها وحمامات الدم الذى فجره الإرهاب وهى الجناح الغربى للقوة العربية ، أجهضت قوة العراق وفقدت عافيتها فى الجناح الشرقى.

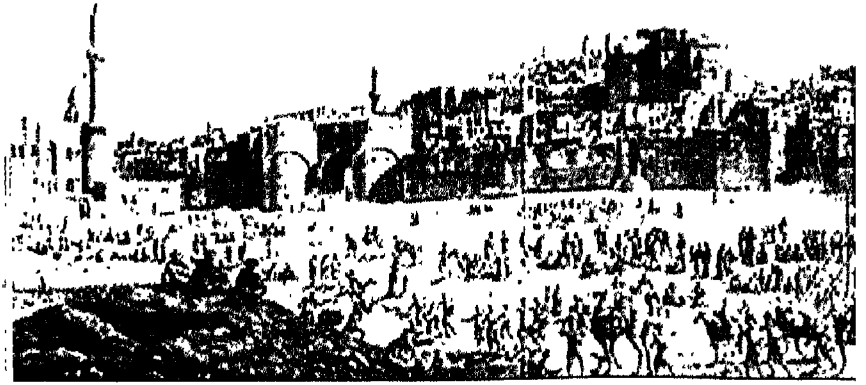
وهل ننسى فى هذا السياق البغضاء التي يكنها الصهاينة نحو العراق، فيحكى العهد القديم خروج اليهود مرتين إحداهما من العراق على يد الآشوريين والكلدانيين قبل ما يزيد على ألفين وخمسمائة عام والأخرى من مصر، وجاء فى العهد القديم أن الشعب اليهودى نزح إلى فلسطين مرتين، الأولى من بلاد الرافدين بقيادة إبراهيم الخليل، والثانية من مصر بقيادة النبى موسى.

وجاء أيضا .. «قطع الرب من إبرام ميثاقه قائلا... لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

فهل جاء وقت الثأر؟.. صراعات قديمة وأحقاد جديدة تخدم موازين قوى جديدة.. ومنافسات حادة على السيطرة والهيمنة، استغلت فيها

أخطاء الحكم العراقى وخطاياه، لحصار شعبه وتجويعه وإضعافه.

ولن يسمح الغرب بالنهوض من جديد لتلك الإمبراطوريات القديمة التى هددته، سواء الـدولـة العباسية أو الأموية أو العثمانية.



لوحة تسجل أحد المناظر للقلعة وميدان الرميلة ، ويظهر على اليسار باب العزب أحد الأبواب الخمسة ، كما سجلها كتاب وصف مصر ورسمها الفرنسى دوتر .

الفصل الرابع

القاهرة الفاطمية

(١)
الصمت والهدير

نشأت فى القاهرة، وتجولت فى أحيائها، وتشربت روحها، وأصعب المهام أن تتناول الضوء والظلال فى حياتها، فالألفة كثيرا ما تخفى بعض جوانب الصورة، ورغم أن أبناء البلد هم أولى الناس بفهم بلادهم.

فأحوم حول الموضوع، أتأمله من جوانبه المختلفة.

وأشعر أنه بعد تلك الرحلة فى المكان والزمان والتى تناولت كلا من المدينة ودمشق وبغداد: لابد أن تأتى القاهرة، الوسط الجغرافى والسياسى للبلدان العربية، التى يمتزج فيها الحاضر بالتاريخ. يدفعها ماضيها الى الأمام ويشدها واقعها الى الخلف.

وفى النهاية أسلمت للقاهرة عقلى وقلبى، ولا يمكن أن أتجاهل شعورى عندما أجوب أحياءها، وأشم روائحها، وأرى ألوان وأطياف حياتها، وأسمع الهدير وصمت آثارها.

سيقع فى هواها من يعرفها، وينضم إلى عشاقها، فكل حجر فيها مشبع بعبق الماضى، وكل شبر منها يحمل بصمات أهلها، فأنت فى أحيائها القديمة أمام وظائف وأدوار لا مجرد مبان وأسواق.

ولم يستطع التتار الجدد بمعاولهم، ولا أكداس العمارات الشاهقة، ولا عشوائية الشوارع الطارئة ولا الأحياء التى نبتت كالفطر وتضخم

بالسرطان، لم يستطع كل ذلك أن ينال من طابع القاهرة الأصيل، ولم تحجب الأسطح العالية مـدنها العديدة، ولم تتمكن الضجة الهائلة من أن تخنق أصوات هذه المآذن التى يخشع لها القلب وتطرب الآذان عند مولد كل فجر.

هنا يتعايش القديم والجديد، في تناغم أحيانا وفى تنافر فى أكثر الأحيان.

يتغزل فيها د. جمال حمدان قائلا : «إذا عدت المدن والعواصم فى العالم، فالقاهرة فى العشر الأولى بالتأكيد، وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا فلعل القاهرة هى أم المدن جميعا، وقليلة جدا هى المدن التى يمكن - كدمشق - أن تنافسها فى الصدارة، يكفى أن نقول إنه قد يعادل مجـ ع تاريخ حفنة ليست قليلة من عواصم غرب أوروبا .

مبان عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية فى فن العمارة، تصون داخلها أمثلة جميلة، تحكى فى صمت قصة أجيال من البنائين العظام، بناة الحضارة، عملوا فى تبتل وورع، ومضوا .. لم يسجل اسمهم أحد، ولا يعرفهم أحد، فلم تخلق القاهرة فى يوم وليلة، وإنما هى عصارة الفن والحب لأجيال متعاقبة، ولهذا تفتن القاهرة زوارها.

وأسواق مازالت متشبثة بأمكنتها، شاخت ولكنها مازالت تملك حيوية الشباب » .

القاهرة الرومية

والقاهرة الرومية هى التى أقامها الخديو اسماعيل على غرار باريس ... وقد لا يعرف الكثيرون انه تم تعديل مسار نهر النيل كجزء من تجميل القاهرة، ونقل مجرى النهر بعد آلاف السنين من الثبات فكما يشق نهر السين باريس أصبح نهر النيل يشق القاهرة .

وكان مجرى نهر النيل يشق طريقه فى المنطقة الغربية ممتدا من قرية الجيزة القديمة التى تقع عند نهاية كوبرى عباس الحالى، وتجرى مياهه محاذية لشارع الدقى الحالى مارا ببولاق الدكرور والعجوزة وامبابة.

وكان أول عمل فكر فيه الخديو اسماعيل بعد توليه الحكم هو إعادة تخطيط القاهرة وتعميرها، وطلب الخديو من نابليون الثالث بأن يساعده على تكليف المهندس المعمارى العالمى «هاوسمان» الذى سبق وقام بتخطيط باريس.

وجاء هاوسمان إلى القاهرة وطلب منه إسماعيل أن يعكس فى تخطيط القاهرة وتعميرها صورة باريس، وكانت حديقة الأزبكية صورة حديقة لوكسمبرج الباريسية، وحدائق الأورمان هى غابة بولونيا، واتخذ نهر النيل مساره الجديد فى أواخر عام ١٨٦٥ م ،استغرقت عملية التحويل ثمانية عشر شهرا ...

ومن نتيجة حفر النهر لمجراه الجديد قامت منطقة الزمالك الحالية التى تحولت إلى شاطىء للنزهة ، وأصدر اسماعيل قرارا بألا تقام به

أية مبان سوى الزمالك ، وهو لفظ ألبانى معناه العشش ، ومنه اتخذت الزمالك اسمها الحالى .

واشتمل التخطيط الجديد اقامة أول جسر على نهر النيل ، وكان قبلها يتم عبور النهر على قنطرة من القوارب المصفوفة . وبدأ العمل فى اقامة كوبرى قصر النيل عام ١٨٦٩ م ، واستكمل بناؤه خلال عام ونصف عام ، وكلف الخديو أحد المثالين الفرنسيين لصناعة تماثيل ميادين القاهرة وعمل أربعة تماثيل لأربعة سباع من البرونز وأقيم كل تمثالين منها على مدخل من مدخلى الكوبرى .

وأقيمت القاهرة الجديدة بتخطيطها الفرنسى ، وفى البداية لم يقطنها سوى الأجانب ، وبدأ التجار وكبار الأعيان ينتقلون اليها بعد تكدس القاهرة القديمة ، ومن أجل توافر المياه والكهرباء والصرف الصحى ... أى أن قوة الطرد من القاهرة القديمة كانت أشد من قوة الجذب إلى الأحياء الجديدة .

أقيمت القاهرة «الرومية»، إذاً، فى عصر اسماعيل. وحتى نهر النيل قد غيروا مجراه فيها. أما القاهرة العتيقة ، فقد تحلقت حول القلعة ، وأقيمت حول الأزهر الشريف . وعند أقدام قلعة صلاح الدين ، الجمالية والموسكى والغورية . وانحسر القلب بالتدريج وانتقل الى مكان جديد ، فالنشاطات التجارية والاقتصادية مع التحول الحضارى ما بين الحربين ، أخذت تقضى على المتاجر الوطنية المتوسطة والصغيرة ، وسعت العاصمة دائما الى البعد عن النيل حتى تتجنب عنفوان النهر وفيضانه، وأقدم أثر إسلامى ابن طولون اقيم على ربوة عالية .

كانت القاهرة فى ماضيها مدينة محدودة النطاق، وكانت لها أسوار وأبواب ، وكان حراسها يطوفون أرجاءها يطمئنون على سكانها ، ثم ينادون «ناموا أيها الناس، فأنتم فى أمان » . هذا ما يصفه الكاتب أحمد أمين فى سيرته الذاتية «حياتى » .

أقول تعانى القاهرة ، التى كانت يوما عاصمة الدنيا ، من التكدس والزحام ، وغياب الذوق العام ، ومن قذارة بعض شوارعها ، تحاصرها المتاعب بعد أن تضخمت ، وتحولت من مركز التحديث وقلب التطوير إلى عقبة كأداء أمام التطور والتغيير، فكل دروب مصر تصب فى القاهرة ، وهى تقف عاجزة عن وقف زحف القادمين ، وتاريخ التمدن هو فى حقيقته تاريخ المدن ، تنتقل الحداثة من العاصمة إلى خارجها ، أى أن حل مشاكل القاهرة هو المدخل الطبيعى والوحيد لحل مشاكل مصر كلها، وهو المدخل الحقيقى لمواجهة القرن الحادى والعشرين.

وأصبحت القاهرة نتيجة المركزية الشديدة عبارة عن «رأس كبير وجسم هزيل» تقعده الأحياء الشعبية ، وتتضخم العاصمة على حساب البلد ، ويعانى القاهرى من هذا التكدس والازدحام ، وأخذت مؤسسات القاهرة ومرافقها تئن وتنهار تحت ضغط الازدحام .

وتدهور العديد من احيائها كبيئة صالحة للحياة الكريمة ، ولم تخطط القاهرة فى القرن الماضى إلا لكى تكون مدينة متوسطة الحجم ، ولكنها فاقت فى نموها كل التوقعات وتعددت لذلك همومها ومشاكلها، الازدحام وأزمة الاسكان ومشكلة الانتقال بين ارجائها، وأصبحت أشد

فهناك مشروع محدد وميزانية مرصودة ، مما يجعل الحلم الذى نادى به العديد من الكتاب قريب المنال .

فهذا الشارع وما يحيطه من حارات ومن رموز ، مثل واضح لما كانت عليه القاهرة العتيقة ، وهو أغنى مناطق العالم بالآثار الإسلامية ، ومبانيه تضم كل مراحل تاريخ مصر الإسلامية ، الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين .

ويحظر المشروع الجديد مرور السيارات والشاحنات ، ويقرر نقل الورش والعشوائيات الى خارج هذه المنطقة ، وإزالة التعديات الفظة التى لحقت بهذه الآثار ، والعمل على ترميمها وإعادة الرونق والحياة لها .

وهو يذكرنى بروما تلك المدينة الجميلة ، وأحد عواصم الفنون فى العالم ، وروما القديمة كلها حارات وأزقة ، تتعايش فيها موائد المطاعم والسيارات ، كل محل له ذوق خاص يتصل بطابع الحى ، فكل إيطالى فنان .

وتذكرنى هذه المنطقة بأحياء الجمالية والموسكى ، واختارت روما القديمة أن تكون عتيقة ، البيوت لا يجوز تغيير طرازها الخارجى والألوان يعاد طلاؤها بذات الألوان القديمة ، ويستطيع صاحب البيت أن يعمل ما يريد داخل المبنى ، ولكن عليه أن يحافظ على واجهة المبنى كما هى ، أو يجددها كما تجدد وترمم الآثار ، أى أن يبقى على طرازها ويحافظ على المواد والطرق التى أقيمت بها ، ولعل سر النجاح فى روما

القديمة ، أنها نظيفة لنفسها ، قبل أن تكون نظيفة للسياح ، ويجد السياح فيها متعة خاصة .

وأكثر المناطق المؤهلة للإحياء ، والتى إذا لاقت العناية والرعاية تتحول إلى متحف مسكون ، هى المناطق التى يمر بها شارع المعز لدين الله الفاطمى ، والذى يعبر عن مراحل مختلفة من تاريخ مصر الإسلامية، ولكن أبرزها هو العصر الفاطمى ، وماذا إذا تركوا آثار شارع المعز لدين الله تتحدث ؟!

هذا المشروع ليس جديدا .. وتمتد المطالبة به إلى ما يزيد على قرن من الزمان ، فهو قائم منذ عام ١٨٨١ م . أى قبل الاحتلال البريطانى لمصر ، فقد طالبت لجنة الحفاظ على الآثار بإقامة حرم لهذه المنطقة ، ونادت بترميم آثارها ، ومن يومها لم تتوقف الجهود من أجل الحفاظ على هذه الآثار ، ولكن المدهش أنه كلما زادت المطالبة زاد تدهور هذه الآثار ، وعانى الحى مع الزمن من الشيخوخة والعشوائية .

ومن يراجع مضابط المجلس النيابى فى عهود متلاحقة ومختلفة ، يلاحظ عدد المرات التى أثير فيها موضوع الحفاظ على الآثار الإسلامية فى شارع المعز ، وكثرة الوعود التى قدمتها الحكومات المختلفة فى قاعة البرلمان !

واتخذت الحكومة قرارات مهمة للحفاظ على هذه الآثار فى السبعينات وتقضى هذه القرارات :

١ - تكوين هيئة مهمتها الحفاظ على هذه المنطقة وترميمها من الأموال المتاحة محليا ودوليا .

٢ – إصـــدار قــرار بوقف أى هدم أو بناء لأغـراض تجـارية فى المنطقة التاريخية من المدينة .

٣ – منع استـخدام الأسـمنت المسلح فى ترمـيم أو إعادة بناء فى المنطقة التاريخية إلا بإذن مسبق (وللأسف كم من التراخيص أعطيت بعد هذا القرار ؟!)

فقد تحولت هذه القرارات بالتدريج إلى مجرد حبر على ورق !

ويبدو أن طاقة الإنقاذ أضعف من عاديات الزمن ، وطاقة الصيانة والترميم أضعف من عناصر الانهيار . والاستجابة أضعف من التحدى.

وبعد دورة تاريخية ، تعود الآثار الإسلامية إلى الخانة الأولى التى بدأت منها ، فأصبحت لأول مرة تواجه خطر الانهيار ، هذا مع وجود هيئة الآثار التى من مهمتها الحفاظ على الآثار وترميمها ، وبعد قيام كلية الآثار مع قاعدة أكاديمية واسعة للبحث عن كل جديد ، وتخرج كلية الآثار كل عام المؤهلين لوضع الخطط والبرامج للحفاظ عليها ، كما تقوم جمعيات أهلية لذات الغرض ، ولكن ظهر أخيرا أن كل هذا لا يكفى ، وتنقصه الروح التى تسرى وتدفعه الى الهدف .

فى معظم الدول الأوروبية هناك شوارع أثرية تجذب السياح وطلاب المعرفة .

وسبق ونادى الكتاب والمفكرون بضرورة الحفاظ على الآثار ، من أمثال على باشا مبارك وعبد الله عنان وحسن عبد الوهاب وعبد الرحمن زكى ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين ويحيى حقى وغيرهم .

والحفاظ على الآثار والحفاظ على روح مصر الخاصة ، هو الذخيرة الضرورية لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل ، والبداية الحيوية التى يمكن أن تعيد للقاهرة بهاءها ، وتعيد إليها بعض الحس الفنى المفقود ، وسط زحام التكدس والفوضى. كما يخلق نجاح هذا المشروع لدى المواطنين آلية القيام بدلا من منطق اليأس والقعود ، ويؤكد أن الشعلة تبقى حية تحت الرماد ، إن اختفت بعض الوقت ، تعود وتتألق من جديد! فلقد أضاءت روح مصر العالم يوما فى تاريخها القديم ، وعادت وظهرت لمحات من الفن والعلم في مصر الإسلامية ، وبقى الكثير الذى يمكن أن تقوله هذه الآثار تاريخية .

وكثيرا ما تردد منطق أعوج يقول : إن الحاضر أهم من الماضى ، وأن مشاريع التطوير ستقوم على حساب الذين يعيشون اليوم ، و «أن الحى أبقى من الميت» ، رغم أن هذا المشروع يضمن لسكان الحى مساكن وورشا جديدة ومناسبة ، وأن مثل هذا المشروع له فوائد اقتصادية جمة ، إضافة لدوره الثقافى وخاصة عندما يصبح نقطة جذب .. وسيكون نجاحه حافزا الى اختيار مناطق تاريخية أخرى مثل حصن بابليون والكنيسة المعلقة وجامع عمرو بن العاص .

فما ستفقده القاهرة من آثار – إذا استمر الحال على ما هو عليه – لا يمكن تعويضه ، ولا يقدر بثمن . وإذا لم نسارع بتنفيذ هذه المشاريع فسيقضى التكدس والإهمال وما أحدثه الزلزال الأخير وارتفاع مياه

الصرف الصحى ، إلى فقدان ما تبقى من آثار القرون الوسطى ، وضياع جزء مهم من تراث الإنسانية .

وإذا انطلق الخيال وتصورنا تلك المنطقة التى يقوم فيها الأزهر الشريف والمسجد الحسينى مع شارع المعز بآثاره وبواباته . وجعلنا من كل ذلك حرما لا تدخله المركبات وخلا من الورش والعشوائيات ، وظهر طرازه المعمارى ، وعادت مقاهيه وحماماته الى العمل ، واستبدل الخان بالفندق ، وتوافرت فى محلاته السلع والفنون اليدوية ، فستصبح واحة لا نظير لها ، ومنطقة جذب للتواقين الى المعرفة التاريخية ، وللسياح من كل أنحاء العالم .

فن ظهر في مصر

وكتابة «الخطط» فن ظهر وتاس على ضفاف النيل ، فن اختصت به مصر الإسلامية ، وهو فن يبدأ من وصف الأثر وينتهى ببعث الحياة فيه، بعد أن يحتفي ويحنو على كل أثر وحجر ، ويقودك المقريزى كاتب الخطط برشاقة من الحجر إلى البشر ، ولعل مشروع إحياء الشارع الأعظم ما هو إلا التطبيق العملى لهذا الفن ، يقدم ما أبدعته العقول فى الماضى ، وما أنتجه وجدانهم الفني ، وما شيدوه من مبان تحدد ملامح حضارتهم .

وهكذا كانت الخطط والآثار عند المقريزى ، وهكذا كانت الخطط التوفيقية .. فما نرجوه هو تحويل الشارع من باب الفتوح إلى باب النصر ، إلى منطقة أثرية لها حرمتها ، ويواجه التعديات التى تحاصره، ويزيل الأكشاك والحوانيت التى تغطى أهم الآثار الإسلامية ، مع خطط طموحة لترميم وإعادة الحياة لهذه الآثار ، بعد أن طال عليها الإهمال ، وارتفعت المياه الجوفية ، وتحولت دروبه إلى ورش لإصلاح السيارات والجرارات أو قيام المشروعات التجارية التى لا تدرك أهمية وقيمة هذه الآثار . فهذه المنطقة بعد أن هاجر منها القلب ، وانتقل قصر «الحاكم» من قلعة الجبل ، تحولت بالتدريج الى مخازن وتجارة الجملة ، أو متاجر محلية أو ورش ، وفقدت عزها القديم وأصبحت خليطا تطغى فيه المصالح على دورها التاريخى ودورها الثقافي ، تقوم فيها دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء ، وبقى التاريخ منقوشا على حوائط مبانيها،

ومكتوبا على نواصى أزقتها ودروب حواريها، وحان الوقت ليسترد هذا الشارع عزه القديم ..

هنا بدأت القاهرة المعزية ، وكان هذا الشارع يوما سرة القاهرة وقصبتها ، ومبانيه المتجاورة تضم كل مراحل تاريخ مصر الإسلامية ، وكأنها الطبقات الچيولوچية: الفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون.

وتحكى مبانيه التاريخية لحظات المجد وأيام الانحسار .

ولم تعد المعرفة التاريخية هذه الأيام تقتصر على المدرسة ، ولا الكتاب ، بل أصدق من كل ذلك ما تركه الأجداد من آثار .

ويدهش من يتجول فى عواصم العالم ، من الحفاوة الهائلة بكل آثار الماضى ، مهماً قل شأنها ، وعندما لا يجدونها ، يصطنعونها اصطناعاً

ولسنا فى حاجة مثلهم لكى نقيم مجرد «ماكيت» لعمارة الماضى فمازال لدينا عدد كبير من المبانى التاريخية ، إذا رممت سيخرج إلى النور متحف مسكون ، عندما ينجح مشروع ترميم آثار شارع المعز ، عندها يتمتع زائر شارع المعز بقراءة جديدة للتاريخ ، وعندها ستتكلم آثار الشارع الأعظم ، ويعيش زائره صور التاريخ الحى ، يثير خياله ويوحى إليه ، ويؤثر فيه ، ويرفع من حسه الفنى والتاريخى، ويولد إنسان جديد قادر على فهم العصر والتعامل معه ، ويخرج من أسوار الحاضر وسدوده إلى آفاق المستقبل .

ومشروع ترميم الآثار ، مشروع اقتصادى علاوة على فائدته الثقافية ، عندها يتحول شارع المعز إلى نقطة جذب مهمة للسياحة من

كل أنحاء العالم ، ويستطيع المشروع أن يجذب مؤسسات دولية للمشاركة فى عمليات الترميم ، مثل مؤسستى أغاخان واليونسكو ، بوصف هذا التراث تراثا إنسانيا ، وقد سبق وساهمت اليونسكو بالفعل فى إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبو سمبل ، كما تساهم اليونسكو فى مشروع إنقاذ مدينة فاس المغربية .

وحان الوقت لنتجول فى هذا الشارع ، محتذين فى جولتنا بفن الخطط القديم .

فهذه المنطقة التى أنشأها جوهر الصقلى وجعل حولها سورا ، يحدها بابا الفتوح وزويلة .

وقدم لنا چاك پرك المستشرق الفرنسى دراسة قيمة حول شارع المعز ، وكيف أن تعرجه يعتبر عملاً معماريا يهدف إلى حماية رواده من أشعة الشمس الحارقة طوال فصول العام .

وعرف هذا الشارع طوال تاريخه باسم الشارع الأعظم ، وتغير اسمه عام ١٩٣٧ م وأطلق عليه اسمه الجديد ، ولم يكتسب الشارع الأعظم أهميته باعتباره الشارع الرئيسى فى القاهرة فقط ، بل لأنه إتصل بباقى أجزاء العاصمة من القطائع والعسكر والفسطاط ، فامتد خارج باب زويلة جنوبا حتى جامع السيدة نفيسة ، وامتد شمالا خارج باب الفتوح واتصل بحى الحسينية ، وترك لنا المقريزى وصفاً شيقاً لهذا الشارع ، أكد فيه أنه قصبة القاهرة ، وأنه عامر بالمتاجر

والأسواق حتى بلغ عدد حوانيته من الحسينية حتى السيدة نفيسة اثنى عشر ألف متجر، ووصف قصوره ومساجده وحماماته وأسبلته وتكاياه وصفاً كاملاً .

يصل طول الشارع من باب الفتوح حتى باب زويلة حوالى ألف وخمسمائة متر ، ويسهل قطعه سيراً على الأقدام ، ويتمتع هذا الشارع تاريخيا بمكانة خاصة ، وكانت له تقاليد مرعية ، منها عدم مرور حمل تبن أو حمل حطب ، ولا يسوق به أحد فرساً ، ولا يمر به سقاء إلا وراويته مغطاة ، وكان على أصحاب الحوانيت أن يعلق كل منهم على حانوته قنديلاً موقداً طوال الليل ، وأن يعد كل منهم زيراً مملوءاً بالمياه لمقاومة الحريق .

وكان هناك أشخاص معينون للكنس والرش ورفع ما يرمى من المخلفات ، كما عين له خفراء يطوفون بالحوانيت والدور لحراستها .

أى أن المشروع الجديد ، ليس أكثر من إحياء بعض التقاليد القديمة.

تزخر المسافة القصيرة بين البابين زويلة والفتوح بما يزيد على خمسة عشر أثرا ، إضافة إلى أضعاف هذا العدد فى الحارات والأزقة المتفرعة من الشارع ، أسواق ومساجد وحمامات وخانات وأسبلة وأسوار وبوابات ومدارس،، وكان طوال العصر الفاطمى مقصوراً على سكن الخليفة ورجاله .

وليس هذا غريبا فتاريخ القاهرة وحدها يعادل مجموع تاريخ عدد غير قليل من عواصم غرب أوروبا. وهنا كل حجر مشبع بعبق التاريخ، وكل شبر يحمل بصمات الإنسان، ويتعايش، يتناغم أو يتنافر القديم والجديد، الأصيل والدخيل.

والجولة فى هذا الشارع هى جولة فى الزمان والمكان معاً، فالمبانى ليست مجرد أحجار مرصوصة، بل وظائف محددة تبحث عن من ينطقها.

وكان قصر السلطان هو المركز وقلب مدينة القاهرة؛ تحيط به قصور الأمراء والقادة، وفى الدائرة الأوسع التجار والعامة وصغار الأهالى وعند هوامش المدينة توجد المزارع ومن يفلحها.

شارع الأعظم

ولنتوقف قليلاً عند بعض المحطات والمبانى التاريخية فى هذا الشارع، ونستحضر أحداثه، وفنونه وشخوصه وبعض أيام عزه ومجده.

الداخل إلى الشارع من الجنوب، يدخل على مشهد جليل ومهيب.

عندما يظهر باب زويلة والساحة ومسجد المؤيد لدين الله فى لوحة تشكيلية بديعة، جذبت لها على الدوام ريشة الفنان التشكيلى، وسجلها العديد من الرسامين العالميين، يقف فيها باب زويلة شامخا بجناحيه المحصنين، ترتفع فوقهما مآذن رشيقة أقيمت فى عصر لاحق، يحمل

المكان رحيق الماضي وعظمته ، فعندما تدخل من الباب فكأنك تنزلق إلى عصر آخر ، وتشعر أنك لست أمام مجرد مدينة جليلة بل أمام آثار مدينة فريدة ، تطور فيها فن العمارة قرناً وراء قرن ، وسجل حضارتها يظهر على الحجر والخشب والآجر ، تتداخل في اللوحة ملامح وجوه البشر مع العمارة ، وتبقى أبواب القاهرة القديمة أروع آثار الفاطميين ، وداخل باب زويلة ممر له قنطرة وروافد يربط بين الأبراج المعدة لمواجهة العدو ، ولن نقف طويلا عند تفاصيل عمارة تلك المباني الأثرية ، التى نجدها فى الكتب والدراسات ، ونكتفى باسترجاع بعض الظلال والألوان وصور التاريخ الحية ، حتى نتبين مدى الحاجة لمشروع ترميم آثار هذا الشارع ، عندما يتيح لهذه الآثار فرصة أن تنطق وتعبر وتتنفس .

فسيرة هذا الشارع تحمل العديد من الصور الدرامية ، ويحكى باب زويلة العديد من فصول التاريخ حول العصر الفاطمى بما فيه من سحر وخفاء ، وعصر المماليك بعنفوان جنوده ومجالس علمائه ، ووقائع أيامه المجيدة .

ويعود للشارع الأعظم تاريخه حيا ناطقا نفاذا ، والذى كان مقرا للخلافة الإسلامية وقلب القاهرة وقصبتها . ويحد الشارع من جانبيه باب الفتوح وباب زويلة (بوابة المتولى) ويحكى باب زويلة العديد من فصول التاريخ حول العصر الفاطمى وما يكتنفه من سحر وخفاء ، والذى يرمز الى مرحلة تاريخية عرفت بتجلياتها الخاصة ، وجاءت على هوى الأهالى بما أقامته من حفلات .

قصــر الخليفــة

نمر سريعاً فى الطريق المتعرج الحافل بلمحات من جمال الماضى ، نشق طريقنا وسط الزحام صعوبة ، ويصر قائدُ شاحنة ضخمة أن يشق طريقه وسط كل هذا الزحام ، ولا يرفع يده عن بوق سيارته ، ولا يقدر إلى أى حد يخدش حرمة المكان ، التعديات تخفى الآثار ، ويختلط عطر الماضى بروائح بقايا المأكولات ، وتتشبث الصناعات التقليدية القديمة بآخر معاقلها ، وهذا الشارع يكاد يكون الوحيد الذى مازال فيه محل لصناعة الطرابيش . تغطى الأكشاك التى تعرض ملابس النساء على واجهات المبانى الأثرية ، ويرتفع منسوب الطريق عن المبانى الأثرية حتى أصبح الدور الأرضى للمبانى الفاطمية تحت منسوب الشارع بما لا يقل عن ثلاثة أمتار ، مما جعل كل اثر مهدداً بالمياه الجوفية .

نترك الغورية ونعبر شارع الأزهر حتى نصل إلى جامع ومستشفى المنصور قلاوون ، وأول ما يطالعك مئذنة الجامع ، وهى تحفة فنية تشبه الدانتيل المنقوش من الجص ، ونحن نقف فى الجزء الذى كان عاصمة ومركزا للدولة الفاطمية ، يحافظ على سحره وجماله الخاص ، رغم ما شوه هذا الجمال من مبان تختلف عن عراقة الماضى ، وفى هذه البقعة المحدودة ترى آثارا مهددة بالفناء تحت ضغط عوامل الطبيعة والأغراض التجارية .

مازالت هذه المنطقة تحمل اسم «بين القصرين» ، فكانت تضم يوما قصرى الخليفة الشرقى والغربى عن جانبى الطريق ، وما بينهما ميدان

فسيح يتسع لما يزيد على عشرة آلاف فارس ، يستعرضهم الخليفة أيام الاحتفالات .

أمامك سبيل وكتاب عبدالرحمن كتخدا ، المتوسط للشارع ، وهو من أجمل الأسبلة ، أقامه الأمير عبدالرحمن كتخدا عام ١١٥٧هـ - ١٧٤٤م، وكسيت واجهاته بالرخام الملون المنقوش ، وكسيت جدرانه بالفسيفساء ، وبه صورة الكعبة وما حولها .

أما القصران فقد اندثرا ، وكانا من عجائب الدنيا عمارة وفنا ، تجلت فيهما حضارة الدولة الفاطمية ، وزالت هذه القصور وأقيمت محلها المساجد والمدارس والأسواق ، وترك لنا كُتاب الخطط والرحالة فيضا من الصور لهذه البقعة ، وسجلوا بدقة ما كان عليه حالها.

كان باب القصر الشرقى من الذهب الخالص ، والذى كان قائما محل محراب ومدرسة الظاهر بيبرس ، وقد اخترق شارع بيت القاضى هذه المدرسة ، وكان موقع هذا المحراب يبعد عن الشارع الحالى بحوالى سبعين مترا ، كما سجل على باشا مبارك فى خططه ، وأقيم مارستان المنصور قلاوون في مواجهة مدرسة الظاهر بيبرس .

ويذكر المقريزى .. أن القصر الشرقى كان كبير المساحة ، وله تسعة أبواب ، باب الذهب وباب الريح وباب الزمرد وباب العيد ، وهو الباب الذى يخرج منه الخليفة لصلاة العيد ، وباب قصر الشوق ، وقد أطلق عليه «القصور الزاهرة» أما القصر الغربى فكان عن يسار المتجه إلي باب الفتوح ، ورغم أن الحاكم بأمر الله أمر بهدمه ، فإنه لم يهدم وسكنته ست الملك أخت الحاكم ، وهو الذى كان قائما محل مارستان المنصور .

وتحكى كتب التاريخ .. أنه عقب صلاة العشاء ، يضرب الطبل والبوق ، والآلات الموسيقية الأخرى .. «بطريقة مستحسنة ونغمات مستحبة» ، ويظل عزف الوسيقى حتى يخرج من القصر من يصيح قائلا : «أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ، ويأمر بوقف الموسيقى وغلق الأبواب » فترمى السلسلة ما بين القصرين .

ووصف لنا شاهد عيان القصر أيام حكم المستنصر بالله ، وهو ناصر خسرو (١٠٤٧م - ١٠٥٠م) يقول : «يقع قصر السلطان فى وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ، لا يتصل به أى بناء ، ويتكون القصر من اثنى عشر بناء ، وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة .. ولهذا السرداب الذى يصل ما بين القصرين سقف محكم ، وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، قدت من صخر واحد .. وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، والقصران ، أولهما قصر اللؤلؤة وثانيهما قصر الجوهرة .. ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه خمسون غلاماً ، كما يصل المطبخ بالقصر سرداب تحت الأرض .. وجرت العادة فى مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية كل يوم، أربعة عشر جملاً محملاً بالثلج ، وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومى من هذا الثلج .

ويتناثر وصف قصر الخليفة فى العديد من الكتب .

ونتساءل ، أحقا ما ذكره المقريزى .. من أنه .. «قبل خروج الخليفة

فى الموكب ، يروض الرائض فرسين أو ثلاثاً، على كل منها السرج الذى يستعمله الخليفة ، ويركب أحد الأستاذين بغلة ، وهو ممسك بالمظلة، ويسيران فى براح الأسطبل ساعات ، والأبواق تنفخ ، والطبول تدق، حتى تتعود الأفراس الحركة والأصوات فلا تجفل ولا تنفر ، والفرس والبغلة اللتان تتهيأن ليركبهما الخليفة وحامل المظلة فى الموكب».

ويقال : «إنه ما رئيت دابة فزعت أو بالت ، لغاية نزول الخليفة وصاحب المظلة عنهما» !

وتروى هذه البقعة ، قصة قيام وانهيار الدولة الفاطمية ، والتى كان قيامها إيذانا بأن تصبح القاهرة ، مركز وقلب العالم الإسلامى ، بعد أن كانت ولاية تابعة . صحيح كان بعض ولاتها الأوائل ولاة لإفريقية (بلاد المغرب) ، وصحيح ظهرت نزعات استقلالية ، وقامت الدولتان الطولونية والإخشيدية اللتان لا تكادان تربطهما بالخلافة الإسلامية سوى روابط سياسية أو إدارية واهية ، إلا أنهما استمرتا تحت لواء الخلافة فى دمشق أو بغداد ، وأصبحت القاهرة أيامهم عاصمة تضم شمال أفريقية غربا والشام شرقا واليمن جنوباً ، وكان العصر الفاطمى أحفل عصور مصر الإسلامية بالمواقف الشائقة ، وأجدرها بالدرس والاهتمام. ونشرت الخلافة حولها فيضا من العظمة ، وترك لنا المقريزى والقلقشندى كثيرا من التفاصيل الدقيقة لهذه المرحلة التاريخية.

وخلالها ازدهرت القاهرة ، وسطعت الميادين بالوقود والشموع ، وتزينت الأسواق والقياسر بمختلف أنواع الزينة ، وأنفقت الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والسماع (المقريزى) .

وبدأت القاهرة مدينة سلطانية متواضعة لا تتجاوز مساحتها ميلاً في ميل ، ولم يمض جيل واحد إلا واتسعت واتصلت وأصبحت من أكبر وأعظم مدن الإسلام ، وأصبحت الحياة الاجتماعية تتقلب بين ألوان البذخ والترف ، وأظهر الشعب مرحه المأثور ، وأظهر روح الدعابة والفكاهة التي يملكها ، فقد لمس الحكام الجدد الطبيعة المرحة والولع بالحياة اللذين يتمتع بهما الأهالي ، وكانت مواكب الخلافة وحفلاتها ومآدبها وما يحيطها من الإجلال مواقف مشهودة ، وكانت الأعياد والمواسم مثار البهجة والمرح ، واحتفلت الدولة الفاطمية بكل الاحتفالات المصرية القديمة مثل عيد فتح الخليج (وفاء النيل) ، ويوم النيروز .

وكان موكب عيد الفطر من أعظم هذه الاحتفالات ، ففي ليلة العيد ينظم بالايوان الكبير سماط ضخم يبلغ نحو ثلاثمائة ذراع وعرضه سبعة أذرع ، وتنتثر عليه صنوف الفطائر والحلوى مما أعد في دار الخلافة ، وبعد صلاة الفجر تفتح أبواب القصر للأهالي ويشاركهم الخليفة طعامهم . ويروى المسبحي : «وفي يوم العيد ركب العزيز بالله للصلاة .. وبين يديه الفيلة عليها الرجال بالسلاح ، وخرج بالمظلة المثقلة بالجواهر» ، وعند عودة الخليفة كانت هناك وليمة أكبر من الأولى يحضرها نحو خمسمائة مدعو .

أما ليلة فتح الخليج أو وفاء النيل ، فيركب الخليفة إلى الخليج في موكب فخم ، ويصل إلى سرادق تبلغ مساحته نحو ألف ألف ذراع تنصب داخله قاعة الخلافة ، وتصطف السفن الرسمية في النيل ،

وتصطف الجنود على الشاطئين ، وتقام المأدب وتنظم الملاهى ومجالس الأنس والغناء .

إن كل هذه العصور التاريخية ، تتوالى على هذا المكان ، وهذه بعض نغماته .

المـارستـان

مستشفى قلاوون للعيون ، قائم حالياً محل المارستان ، إنه الصلة الخفية بين الماضى والحاضر ، ففى ذات المكان أقام المنصور قلاوون ، المارستان الذى أصبح أحد معالم القاهرة العتيقة ، يقف المبنى القديم ببهائه إلى جانب المستشفى الجديد .

ووصف القلقشندى فى صبح الأعشى المارستان ، فقد حكم السلطان قلاوون أربعا وأربعين سنة على ثلاث فترات ، وتكاد تكون أطول فترة يحكم فيها حاكم واحد ، وترك وراءه العديد من المنشآت العامة التى تقاوم الزمن بعناد .

وأدهش هذا المارستان جومار أحد علماء الحملة الفرنسية ، وكتب يقول : « من الخطأ الشائع الظن أن القاهرة محرومة من المنشآت الخيرية ، فقد وجد بالقاهرة منذ خمسة أو ستة قرون ، العديد من المارستانات المخصصة لايواء العجزة والمرضى . لقد وجدت «التكايا» التى تستقبل المسافرين الفقراء ، ويجدون فيها الضيافة المجانية ، وشيدت الأسبلة العامة ، وأوقف سلاطين وأغنياء بعض ثرواتهم لكى يسهم ريعها فى صيانة الأبنية العامة وتغطية نفقاتها السنوية» .

ويضيف : «قام مارستان الناصر قلاوون لاستقبال المرضى والمختلين عقليا ، وخصص لكل نوع من الأمراض قاعة خاصة يشرف عليها حكيم ، يقبل المرضى سواء الأغنياء منهم أو الفقراء . والمرضى المصابون بالأرق ينقلون إلى قاعة منفصلة ويستمعون إلى الموسيقى ، كما يتولى رواة محترفون تسليتهم بحكاياتهم ، ويعرضون فصولا ضاحكة لإدخال البهجة إلى نفوسهم . وهناك مدرسة ملحقة بالمارستان، يدرس فيها الطب والشريعة » .

ويضيف في مقاله الذي نشر في كتاب وصف مصر : «وهناك مؤسسة خيرية أخرى أقيمت لكي تؤوى وتطعم النساء اللاتى ليس لهن مأوى» .. ويضيف : «لقد كانت لدينا معلومات خاطئة فى أوروبا عن مؤسسات الإحسان فى الشرق ، وعن إهمال تلك الأعمال الخيرية ، ووجدنا فى مصر مؤسسات للعميان سابقة على تلك المؤسسات القائمة فى فرنسا ، التى تصورنا أننا أول من أقامها ، لقد أعطانا الشرق المثال الأول» .

وقبله كتب أبوالصلت أمية (٤٨٩هـ - ١٠٩٥م) يقول : «يوجد رجل ملازم للمارستان يستدعى للمرضى كما يستدعى الأطباء ، ويدخل على المريض ويحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ، ويخرج للمرضى بوجوه مضحكة ، وكان لطيفاً فى إضحاكه وخبيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته ، تركه وانصرف ، فإن احتاج لمعاودة المريض عاده إلى أن يبرأ» .

واستلفت المارستان عيسى البلوى يقول : «ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به سوى المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا وجمالاً واتساعاً لم يعهد مثله قطر من الأقطار أحسن بناء ، ولا أبدع إنشاء ، ولا أكمل انتهاء فى الحسن والجمال» .

ومازال البناء قائما يستصرخ من ينقذه ويعيد له دوره كمثال حى للعمل الاجتماعى الذى عرفناه فى العصور الوسطى وكاد يغيب فى العصر الحديث .

ولا يمكن بعد جولة كهذه إلا أن تلاحقك الأفكار وتتوارد عليك الخواطر .

لقد أحب أهالى القاهرة عاصمتهم ، وقام الكتاب بدورهم فى التنبيه والتحذير من مغبة إهمال الآثار القديمة ، واستوحى التشكيليون والروائيون من آثارها أعمالا كثيرة ، وتركت القاهرة القديمة بصماتهما على أهلها ، ويغضب بعضهم وهم يرون تراث الماضى يتعرض للزراية والإهمال ، وتمتلىء قلوبهم بالحماس ، ويبدون استعدادهم للقيام بأى جهد لإنقاذ آثار مدينتهم .

كما ظهر فى هذه الأحياء القديمة «ابن البلد» بفروسيته وشهامته ، وولعه بماضيه ، وهو الذى كان على الدوام وقود الثورات وحروب التحرير، وما أيسر أن يساند حملة مشروع الترميم الجديد ، بشرط أن يجد البديل المعقول .

ولعل أهم ما يحتاج إليه إنجاز هذا المشروع ، هو التعاون بين الجهات المتعددة والعمل كفريق واحد ، بدلا من المواجهة والصراع ، فقد

أصبحت كل جهة جزيرة معزولة ، وفي كثير من الأحيان جزرا متحاربة، فهناك دور مهم لوزارة الأوقاف التي تضع يدها على خمسمائة وتسعة وستين أثرا إسلاميا (كما جاء في سجل الآثار عام ١٩٣٦م) ورصدت لهذه الأوقاف الأهلية أموال لصيانتها . وبدلا من إنفاق وزارة الأوقاف هذه الأموال على صيانتها ، يقوم بعض موظفيها بتأجيرها أثناء مولد سيدنا الحسين ، وتتحول مداخل المساجد الأثرية الى محلات .

ولاشك في أن ترميم هذه الآثار وصيانتها خاصة ومعظمها مساجد يجب أن يسبق بناء المساجد الجديدة ، وعلى هيئة الآثار القيام بواجبها في الإشراف على هذه الآثار ووضع برامج زمنية لترميمها ، من حصيلة صندوق حماية الآثار ، بدلا من انفاق حصيلة هذا الصندوق في الاحتفالات والمهرجانات ، وعلى محافظة القاهرة التنسيق بين هذه الأطراف ، وإعداد أماكن مناسبة لنقل الورش وسكان العشوائيات ، وأن يصدر المجلس التشريعي قوانين تحمي هذه الآثار ، وتفرق مثلا بين ساكن المباني الأثرية وذلك الذي يسكن المباني غير الأثرية .

والأوقاف الأهلية شاهد على اهتمام الأهالي بهذه الكنوز ، وقام الكثير من الجمعيات الأهلية التي تهدف إلى حماية هذه الآثار ، وتبدي استعدادها لأن تشارك في أي جهد لتحقيق هذا الهدف .

عاصمة الشرق

وهذا المشروع خطوة مهمة في طريق علاج أمراض القاهرة وأوجاعها ، بما يخلقه من حس جمالي وما ينميه من شعور بشخصيتها المتميزة .

واليوم .. وهى تتوق الى وضع حد لمصاعبها ألا يجدر بنا أن نتذكر أيام عزها القديم ، يوم كانت عاصمة الدنيا وحاضُرة الحواضر ، يوم قصدها العلماء ووجدوا فيها حاضنة لإبداعاتهم وأفكارهم .

فليس صحيحاً أن عمرها يناهز الألف عام ، بل آلاف الأعوام ، فالقاهرة وريثة منف الفرعونية ، وهى الفسطاط والقطائع والعسكر ، فقد تغير اسم العاصمة من الفسطاط إلى القطائع الطولونية والعسكر الإخشيدية وبقيت العاصمة عند أهلها «مصر» ، لم تنازعها مكانتها سوى أوقات قليلة طيبة فى الجنوب والإسكندرية فى الشمال ، وهى أقدم عواصم العالم ، تختزل تاريخ مصر كله وهى ترقد متحفزة تحت هضبة الأهرام، وإن لم تكن عاصمة الدنيا فكانت ندا لأكبرها ، هكذا فعلت مع بغداد ودمشق واستانبول .

فهل نستمد الفخر من مجد الماضى ، الذى يتمثل فى الآثار الفرعونية وحدها أم ما يقيمه المشروع الجديد من إظهار معالم الحضارة الإسلامية حتى يكون حافزا لبناء المستقبل ؟!

على أنه لا يمنع التغنى بأمجاد الماضى من رؤية بؤس الحاضر وتحدياته ، ولا أن يستهلك كل الطاقات ولا يبقى جهد للحاضر وأحلام المستقبل .

وإذا كنا نتناول القاهرة الفاطمية ، فعلينا أن نتذكر حديث شفيق غربال فى كتابه «تكوين مصر» عندما قال : «تبوأت القاهرة

مكانة ممتازة بين مراكز الحضارة الإسلامية ، في ميادين الفنون ونشر العلوم، ولا مراء في أن مدينة القاهرة الإسلامية قامت بنصيبها في بناء مصر السياسى ، وكان ذلك بفضل هيئاتها المدنية ومعاهدها الدينية .. فنصيب القاهرة من الأحداث لا يمكن تجاهله» .. ويضيف «لم يبدأ صرح حياتها الثقافية في الاهتزاز والتخلخل إلا عندما دق الغرب على بابنا في نهاية القرن الثامن عشر بالحملة الفرنسية» !.

وكم هي مثيرة وموحية ، تلك النفائس الفكرية والفنية التي أنجزت مستوحاة من القاهرة ، وما كتبه الرحالة الذين لم ينقطعوا عن زيارتها سواء من العرب أو الأجانب ، وتلك النفائس الفكرية والفنية الموزعة على العديد من مكتبات العالم ومتاحفه ، ولم يظهر حتى اليوم مشروع جاد لجمعها ، ونأمل أن تقوم بهذا الدور مكتبة القاهرة التي يتولى رئاستها الكاتب الكبير كامل زهيرى والذى عرف عنه عشق القاهرة وتاريخها ، وهاهو ؟! اقتراح محدد بطبع ونشر مخطوط بريس دافين (إدريس أفندى) والموجود بدار الكتب الفرنسية ، ومخطوط إدوارد لين (منصور أفندى) صاحب كتاب عادات وتقاليد المصريين .. والذى يعتبر موسوعة عن الحياة الاجتماعية في مصر والموجود في إحدى قاعات مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٣٤٠٨٠ ADD .

ويتحلى كل من هذه المخطوطات بمجموعة لوحات تضم الآثار والحياة المصرية في القرن الثامن عشر .

وليس لهذا التاريخ المدون والمتصل من مغزى سوى أن المجتمع

الذي يعيش على ضفاف النيل ، قدر له أن يلعب دورا حضاريا متميزا في حياة الإنسانية ، لا فرق في العطاء بين مصر الفرعونية أو القبطية أو الإسلامية ، كما يبوح هذا التاريخ بأحد مفاتيحه وهو أن محركه دائما العدل والسماحة ويقظة الضمير ، وأنه إذا أقعدته الظروف بعض الوقت فسرعان ما يقوم ويكمل رسالته .

وساهمت القاهرة مع دمشق وبغداد في صنع الحضارة العربية الإسلامية .

وهي جميعا مراحل تروى ما قدم العرب لتراث الإنسانية في مراحل متتابعة مثل تراكم الطبقات الجيولوجية .

الشارع الأعظم

وهذه بعض ملامح تاريخ القاهرة الفاطمية ، التي يهدف إلى إحيائها «المشروع الجديد» عندما كانت القاهرة عاصمة الشرق ومقر نصف الخلافة ، ونصف عاصمة عالم الإسلام ، ولم تعد القاهرة عاصمة ولاية تابعة للخلافة في دمشق أو بغداد ، ولم تعد حتى ولاية مستقلة كأيام الطولونيين والإخشيد ، وإنما أقامت دولتها ، وأصبحت قوة الدولة وغناها شيئا ملحوظا ، ونافست القاهرة بغداد سياسيا ومذهبيا ، وانتقل حكام البلاد إلى المذهب الشيعي ، وتم تأسيس القاهرة على يد جوهر الصقلي ، الذي أقامها بعيدا عن القطائع وبعيدا عن النيل وفيضاناته ، وكان قيامها نقطة تحول مهمة في التاريخ العربي ، وفرض

دور القاهرة وضعا جغرافيا وسياسيا ، أنشأته الوقائع وأكدته أحداث التاريخ ، وتمتعت القاهرة بنفوذ كبير ، وكانت حتى حكم المستنصر بالله تمتد من شمال أفريقيا غربا ، إلى سوريا شرقا واليمن جنوبا .

وكانت القاهرة بالنسبة لهذه الرقعة المترامية الأطراف عاصمة سياسية ودينية أولى . أى نالت دورها فى ظل انقسام عالم الإسلام بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية ، وعمل الفاطميون على أن يجعلوا القاهرة مركزا حضاريا يتفوق على بغداد وقرطبة .

وشهدت البلاد فى العصر الفاطمى أيام مد وجزر ، مراحل قوة ومراحل ضعف . ومرت بأكثر الأيام صعوبة خلال الشدة المستنصرية ، ففى سنة ١٠٥٨م - ٤٥٠هـ جاء أربعون وزيرا فى فترة قليلة لا تتجاوز تسع سنوات ، وبدأت المجاعة العظمى سنة ١٠٦٦م - ٤٥٩هـ.

ولم يقبل الأهالى المذهب الجديد وتمسكوا بمذهبهم السنى رغم كل محاولات التأثير . مما وضع حاجزا بين الحكام والمحكومين .

ووضع المسمار الأخير فى عرش الفاطميين تحالف وزرائهم مع بعض أمراء الفرنجة خلال الحروب الصليبية ، وخلال أيام الضعف عندما اقترب الصليبيون من القاهرة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٩م - ٥٦٥هـ ورأى الوزير شاور أنه غير قادر على الدفاع عن الفسطاط فهى بلا أسوار ، أصدر أمراً عجيبا بجلاء الأهالى عنها ، وأمر بإشعال الحرائق فى المدينة حتى لا يدخلها الفرنجة ويتخذوها قاعدة لعملياتهم ضد القاهرة ، ويقول المقريزى شيخ المؤرخين .. «إن شاور وضع فى

الفسطاط عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، واستمر الحريق ٤٥ يوما ، وصاحب الحريق أعمال نهب وسلب» ، ويذكرنا هذا الحريق بحريق روما الذى اشعله نيرون . وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢

والحروب الصليبية هى التى جاءت بصلاح الدين الأيوبي والذى عاد بمصر إلى المذهب السنى .

ما بقى من الفاطميين !

وأما مابقى يحكى عظمة هذا العصر ، فأبواب القاهرة الثلاثة الباقية، وأقدم الآثار هو جامع الحاكم بأمر الله ، وبقى جانب من جدران السوق ، وبقايا أربعة مساجد ، جامع الأقمر أول مسجد بنى بالحجر فقد كانت المساجد قبله تبنى من الآجر .

واختفت دار الحكمة وجميع القصور التى كان يسكنها الخلفاء وظل الجامع الأزهر الذى كان يعرف أيامها باسم جامع القاهرة ، ثم أطلق عليه الأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء ابنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان الأزهر أول جامعة فى مصر ، وشهدت أروقته أولى حلقات الدرس ، وقد انتقل من مؤسسة شيعية إلى مؤسسة سنية تدرس المذاهب الأربعة ، وأضيف إليها أخيرا المذهب الجعفرى .

واستمر الأزهر جامعا وجامعة ، ومنارة تشع بنورها على العالم الإسلامى كله ، يقصده المسلمون من كل مكان ، وصار أهم الجامعات الإسلامية ، وله تاريخ حافل بالدفاع والكشف عن جوهر الإسلام والرد

على أباطيل خصومه ، يقف مع جامعة القرويين فى فاس والزيتونة فى تونس كحصون تدافع عن الثقافة الإسلامية .

ولا يحتفظ الأزهر سوى بالقليل من بنائه الأصلى وزخرفته القديمة فأضاف إليه الحكام على توالى العصور إضافات مهمة . فهو سجل للمعارف الإسلامية ، كما هو سجل لتطور العمارة الإسلامية .

ويمكن إدراك الدور العلمى الذى قام به الفاطميون ، مما أضافوه من إقامة المكتبات العامة ، فقد كانت المكتبات توزع على المساجد وبيوت الأمراء ، فجمعوا الكتب فى مكتبة عامة أطلق عليها دار الحكمة، التى ضمت ٤٠ قاعة ، وكانت أول مكتبة يشرف عليها خازن . وكانت المكتبة تضم ١٨ ألف مخطوط فى بحوث العلوم ، مصفوفة على رفوف منسقة فى جميع أنحاء القاعات ، وكان مجموع الكتب المجلدة تبلغ أكثر من مائة ألف كتاب (وجميع الكتب يكتبها الوراقون بخط اليد) . كما ضمت مؤلفات فقهية وبحوثا لغوية ، وسير السلاطين وتاريخ الأمم وكتبا فى علم المعاجم والموسوعات ، وبحوثا فى الفلك ودراسات فى الظواهر الخارقة . وفى علم السيمياء .

وكان يأتى الى هذه المكتبة الدارسون من كل أنحاء العالم الإسلامى، وكان الخليفة العزيز بالله يهتم بنفسه بهذه المكتبة ، ويتردد عليها من وقت لآخر ، ويمدها بمزيد من الكتب ، ومما قدمه لها عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ومن بينها مخطوط أصلى بخط يده . ويصف المقريزى افتتاح دار الحكمة بقوله .. «حصل فى هذه الدار من الكتب

التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر إليها ، وحضرها الناس على طبقاتهم» ويضيف .. «وهى أكبر مكتبة فى العالم الإسلامى ، ويمكن اعتبارها إحدى عجائب الدنيا.

وحُفظت نسخ من القرآن الكريم فى غرفة خاصة ، وكانت مجموعة تتكون من ٢٤٠٠ نسخة في غاية الجمال ، محلاة بالذهب والفضة وزخارف أخرى .

وتكتمل القاهرة علميا بالمرصد الذى أقامه ابن يونس فوق جبل المقطم .

التعاون بدل المواجهة

وأخيراً يحتاج هذا المشروع الكبير الخاص بشارع المعز لدين الله إلى كل دعم ومساندة ، ويحتاج إلى التعاون بدل المواجهة ، فمثلا هناك دور تقوم به وزارة الأوقاف التى تملك ٥٦٩ أثرا إسلاميا ، وتضع يدها على أوقاف تلك المبانى التاريخية، ورغم ذلك لا تقوم بعمليات الصيانة والترميم المطلوبة .

وعلى هيئة الآثار القيام بالدور الرئيسى ، فأين مشروعات الترميم التى بدأتها ، وأين حصيلة صندوق حماية الآثار ، الذى صدر بشأنه قانون أيام تولى الأستاذ عبدالمنعم الصاوى مسئولية وزارة الثقافة ، والذى تبلغ حصيلته السنوية حوالى خمسين مليونا من الجنيهات ، ولماذا لا تبدأ خطة متكاملة ، على أسس هندسية وعلمية لترميم آثار

شارع المعز ، ولتكن البداية وضع اسم كل صاحب أثر وتاريخه فى لوحة بارزة ، كما هو معمول به في كل بلاد العالم .

ويسهل هذا المشروع أن الشارع المكتظ قد أصبح طارداً للسكان ، وأن تقوم المحافظة بإعداد أماكن مناسبة لتجار الجملة ، وتنمى الصناعات اليدوية التقليدية ، وتضع الحلول الهندسية لارتفاع منسوب المياه الجوفية ومياه الصرف الصحى .

وأن يتوافق أخيراً النظام القانونى مع فكرة الحفاظ على الآثار ، فالقانون القائم لا يفرق بين المبانى الأثرية وغير الأثرية ، ولم يسعف القانون أحدا ويتمكن من وقف هدم حائط قائم بين متجرين في مدرسة السلطان الغورى ، وترفض المحاكم القضية عند تطبيقها قانون الإسكان!!

وتبقى تعبئة قطاعات واسعة من الرأى العام لهذا المشروع ، فلا يمكن تحقيق هدف مهما كان ساميا ، إلا إذا تبناه الرأى العام ، وقامت هياكل تنظيمية ، تطالب وتدرس وتضغط وتضع البرامج من أجل تحقيقه.

. ومن ميزات هذا المشروع الحيوى ، أنه سيكشف أولئك الذين يعرقلون كل مشروع بذرائع مختلفة ، حتى إذا كان يخفف بعض العبء الواقع على كاهل سكان القاهرة .

إن إتمام هذا المشروع ، سيجعل الشارع الأعظم ينطق بعد طول

صمت ، وهى بشرى منعشة ، ولعل تلك الجولة التى قمنا بها ، تزيد الإحساس بأهمية المشروع ، وتبعث الحياة فى هذه المبانى التاريخية ، وحتى نصل إلى سر التاريخ الحى ، ونرى الألوان ونستنشق روائح الماضى .

ولن يفعل ذلك سوى من عشق القاهرة القديمة وآمن برسالتها .

كانت لهذا الشارع تقاليد صارمة ، فكان واجبا على كل صاحب متجر أن يحفظ أمام متجره وعاء كبير ممتلئا بالماء ليساعد فى إطفاء أي حريق ، وعدم مرور حمل تبن أو حمل حطب ، ولا يمر بهذا الشارع سقاء إلا وداويته مغطاة ، وكان على أصحاب الحوانيت أن يعلق كل منهم على حانوته قنديلا موقدا طوال الليل.. ويحكى أن أربعة عشر جملا كانت تحمل الجليد من لبنان الى مخازن الأطعمة في المدينة .

وترك لنا المقريزى وصفا شيقا لهذا الشارع ، أكد فيه انه قصبة القاهرة . وأنه عامر بالمتاجر والأسواق .

وأبدع الروائى الكبير نجيب محفوظ فى تصوير هذه الأحياء التاريخية العريقة فى روايتيه «خان الخليلى» و«بين القصرين» ، ومزج فيهما بين الماضى والحاضر ، وعبر عن مدى تعلق وحرص هذا الكاتب الكبير بالحى الذى ولد فيه واهتمامه بالحفاظ على آثار هذا للشارع وكأن أعماله الروائية دعوة حارة للحفاظ على أصالة وعراقة الجمالية .

انهارت الدولة الفاطمية عام ١١٧١م - ٥٦٧هـ، وانتقل مقر

السلطان من هذا الشارع الى قلعة الجبل الذى أقامها صلاح الدين الأيوبى، وبدأ هذا الحى يفقد عزه القديم . وهو يعيش اليوم أسوأ أيام حياته ، تقوم فيه دور متداعية فوق خرائب القصور .

. لذلك لم يكن غريبا أن يتلقف الجميع بشرى إحيائه ، وأن يحتفى بهذا الوعد ، وأن يترقبوا تنفيذه .

القاهرة المملوكية

ظلمت طويلا مصر المملوكية.. وعندما احتفلت فرنسا بالذكرى المئوية الثانية لغزو بونابرت مصر..!! تجاهلت القاهرة المملوكية، وأقامت معرضاً للقاهرة الفاطمية فى معهد العالم العربى، مع أن القاهرة الفاطمية كانت تتقاسم الخلافة مع الدولة العباسية ، أما القاهرة المملوكية فكانت عاصمة العالم الإسلامى ومقر الخلافة الإسلامية إذ احتلت القاهرة يومها مكان الصدارة بين مراكز الحضارة الإسلامية.

فهل يرجع هذا التجاهل إلى أن المماليك هم الذين صدوا الغزو الصليبى وأسروا ملك فرنسا لويس التاسع، أم لأن المماليك هم الذين قاتلوا نابليون عند غزوه مصر؟!

ظلم العديد من المؤرخين العصر المملوكى، ونعتوه بعصر التدهور والانحدار ، ولم يكن المماليك عندهم اكثر من عبيد أجلاف مجلوبين من أصقاع بعيدة، ليس لهم ولاء ولا انتماء.

والوقائع التاريخية تدحض ذلك، فعندما تعرض الشرق للغزوين الصليبى والمغولى، تصدى المماليك للدفاع، وهزمت القاهرة الغزاة، وتزعم المماليك العالم العربى فى عصر من أشد عصور التاريخ دقة، وانتقلت خلاله الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد سقوط بغداد سنة (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م) وأصبحت القاهرة القلعة والوسط الجغرافى للعالم العربى.

وكانت القاهرة وبغداد عاصمتين متنافستين، زاحمت القاهرة بغداد أيام الفاطميين، وكانت القاهرة عاصمة الإسلام الثانية ثم اصبحت العاصمة الأولى حتى هزيمة المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م.

وشواهد مكانتها كثيرة خلال العصر المملوكي، الأعمال الفكرية والأدبية والآثار المعمارية الكفيلة بتخليد مجد السلاطين المماليك، وظهر في هذا العصر ابن هشام (٨٦١ هـ) الذي قال عنه ابن خلدون: «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه»

وظهر الكثير من المؤرخين الذين رصدوا كل مناحي الحياة، ابن الفرات (٨٠٧ هـ) صاحب تاريخ الدول والملوك، وابن خلدون (٨٠٨ هـ)، والمقريزي (٨٤٥هـ) صاحب الخطط، وابن تغري بردي (٨٧٣ هـ) صاحب النجوم الزاهرة، وابن إياس (٩٢٩ هـ) الذي سجل بقلمه هزيمة المماليك وانهيار عرشهم.

وازدهرت الكتابات الموسوعية التي سبقت كتابات ديدرو الفرنسي بنحو اربعة قرون، لكل من القلقشندي (٨٢٠ هـ) والنويري (٨٣٣ هـ) والعمري (٨٧٥ هـ).

ومازالت الآثار المعمارية المملوكية قائمة في مصر والشام، كرموز باقية للحضارة الإسلامية، المساجد والقصور والمدارس والوكالات والفنادق والبيمارستانات والأسبلة والحمامات.

وهى شواهد ملموسة على الذوق الرفيع، الذى يبدو واضحا فى الرسوم والزخرفة والتصوير، ومازال باقيا الكثير من الأعمال الجميلة التى شملت الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبللور، وأغلفة الكتب، والتى يزدحم بها متحف الفن الإسلامى فى باب الخلق، ومتحف الآرميتاج فى بطرسبرج، وتوزعت تحفها على الكثير من متاحف العالم، وبلغت زخرفة النسيج درجة كبيرة من الرقى ، والكثير من القطع الفنية عليها اسم الفنان الذى صنعها.

ومن المؤكد انه لم يكن للمماليك من ولاء إلا للمكان الذين شبوا فيه، فيصل صغار المماليك إلى البلاد دون سن البلوغ حتى يمكن تنشئتهم عقائديا وأخلاقيا، يتشربون قيم المجتمع وعاداته.

كما خصص لهم أفضل الفقهاء لتعليمهم ، وعندما يشب المملوك عن الطوق يبدأ التدريب على فنون القتال: «الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وانواع الفروسية المختلفة» كما جاء فى كتاب المقريزى. ويضيف: «لكى يصبح من الأمراء ، تلك الرتبة لا يبلغها إلا إذا تهذبت اخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام واهله بقلبه».

وقد أنصف المماليك وعصرهم كتاب صبحى وحيدة «المسألة المصرية»، وأيضا د. شفيق غربال الذى يقول : «إن المصرى هو كل من وصف نفسه بهذا الوصف.. وتمثلت مصر تلك الجيوش المؤلفة من أبناء الرق من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن إليهم.. وقد حمى المماليك

مصر ، ولم يصيبها ما حل بالشام والعراق من تدمير وخراب على أيدى المغول».

ويقول د. سعيد عاشور: «التاريخ المملوكى ملىء بالأبطال ، وقل أن نجد عصراً فى تاريخ أمة من الأمم فاض بروح البطولة وتميز بعدد ضخم من الأبطال كما نجد فى عصر سلاطين المماليك فى مصر..».

وثمة ملاحظة جديرة بالتسجيل فى هذا المجال، وهى أن الاسلام لا يقر التفرقة بين الاجناس والشعوب، بل جعل من هذه الشعوب على اختلاف اصولها أمة واحدة، وان السمعة السيئة لعصر المماليك ترجع فى بعض جوانبها إلى الخلط بين عصر المماليك الذى انتهى بقيام الدولة العثمانية، وما تبقى من فلولهم الذين تحولوا الى مجرد مرتزقة فى خدمة الباشا العثمانى، وانغمسوا فى صراع السلطة، وفقدوا تقاليدهم القديمة.

وجولة سريعة فى دروب القاهرة القديمة خير شاهد على ازدهار عصر المماليك، و هاهى مدرسة وجامع السلطان حسن، العمل المعمارى الفذ، وقبة السلطان قلاوون ومدفن الظاهر برقوق ومدفن قايتباى ومدرسة الظاهر بيبرس، وقصر الامير بشتاك ومقر الأمير قوصون، وقصر الامير طاز بشارع السيوفية، ووكالة وجامع مدرسة الغورى، وغيرها من الآثار التى تتعرض فى أيامنا لمخاطر جمة!

وترى صحراء المماليك عن يمينك فى طريق صلاح سالم وتظهر القباب على شكل خوذات المماليك.

الفرسان الجدد

حملت القاهرة مشعل الحضارة الإسلامية، وتبوأت القيادة فى لحظة دقيقة عندما تقدم المماليك كفرسان الإسلام الجدد، وألحقوا الهزيمة بالحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع، وانزلوا هزيمة كبرى بالتتار فى عين جالوت بفلسطين.

واستمرت دولة المماليك حامية للشرق من أواسط القرن الثالث عشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلاديين، وأطلق عليها دولة البرين والبحرين، البران: بر مصر وبر الشام، والبحران: البحر الأحمر والبحر الأبيض.

يقول جلال الدين السيوطى أحد علماء عصر المماليك: «اعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة ، عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء ومجلس الرجال الفضلاء.. » وأصبحت مستقر العلماء ومهرة صناع العالم الإسلامى ، ينتسبون الى دمشق وعسقلان وبيت المقدس وافريقيا، يعيشون فى عاصمة الدنيا، يعلمون ويتعلمون.

ومن الناحية الاقتصادية سيطرت دولة المماليك على التجارة العالمية بين الشرق والغرب.

قلعة الجبل

لا يمكن أن تعثر على مكان ارتبط به تاريخ بلد مثل قلعة الجبل، التي كانت مقراً للحكم في مصر منذ صلاح الدين الأيوبي وحتى الخديو اسماعيل الذي نقل مقر الحكم إلى قصر عابدين، دارت في قصورها وحصونها أهم الاحداث التاريخية، عاشت وهي تطل من علٍ على القاهرة يشاهدها اهالي القاهرة مضيئة متلألئة، ويراقبونها عندما تخفت أنوارها، عاشت قيام وظهور المماليك ونهاية عصرهم، وشهدت أسوارها مذبحتهم التي دبرها لهم محمد على باشا.

وهي الاثر التاريخي الذي لا مثيل له، يسكن قصورها من يحكم مصر، وكم تعددت المعارك التي شهدتها اسوارها، عندما ينجح الطامعون في السيطرة على القلعة فإن ذلك يعني انتهاء عصر وبداية عصر آخر، تتابع على حكم مصر والاقامة فيها ثمانية وأربعون سلطانا مملوكيا بدءاً من عام ٦٤٨ هـ وحتى عام ٩٢٢ هـ، وكل حجر من هذه القلعة يحكي فصلا من التاريخ.

وكم يثير الخيال الوقوف امامها، ترى امامك مسرحاً تاريخيا اختلطت فيه المصالح وتضاربت الأهواء، وحول القلعة مجموعة من الآثار الرائعة، جامع ومدرسة السلطان حسن بشموخهما وفن عمارتهما الرفيع، يتواجه الجامع والقلعة، ولعل المهندس الذي اقامهما استوحى فنه من التقابل الناتج عن هذه المواجهة، وكأنهما رمز الحوار بين السلطتين المادية والروحية فكم عدد المرات التي تجمع المماليك

فيها بهذا المكان، يمتطون خيولهم، ويشهرون سيوفهم ورماحهم، ويحتلون مدرسة السلطان حسن وينصبون عليها مكاحلهم، ، ويبدأ فصل جديد من الصراع.

ويمتد امام القلعة ميدان الرميلة الذى شهد استعراضات المماليك، كان يتسابق فيه الفرسان ويتدربون على استعمال الرمح والنشاب، ويقيمون مباريات للعبة تشبه البولو، وقد سمى فيما بعد ميدان قرة ميدان، تصفه كتب التاريخ بأن فيه الأشجار من كل نوع، والطيور وقنوات المياه الجارية والزهور، وقد تحولت هذه الصورة التاريخية الجميلة يوماً إلى سجن بائس!

ولم تكن القلعة مجرد حصن عسكرى، إنما مدينة متكاملة تكتفى ذاتيا، يقول عنها جلال الدين السيوطى : «حاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام، الفسطاط وهى بناء ·عمرو بن العاص، وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة، والقاهرة بناها جوهر القائد، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين..».

وفى المناسبات تدق الطبول من القلعة، فتتزين القاهرة بالرايات لمدة سبعة ايام، ودق الطبول إيذان للاهالى بالانطلاق فى مرح وفرح.

ووصف القلعة العديد من الرحالة الذين زاروا القاهرة فى العصور الوسطى، وأورد جاستون فييت فى كتابه «القاهرة» بعض ملاحظاتهم.

يقول الرحالة مارسيل كليرجيه: «اتخذت القلعة المظهر الأكيد «للمدينة ـ القصر» المحصنة وتضاعفت داخلها مع الايام المنشآت

القضائية والادارية، وفتحت ابواب كثيرة فى الاسوار، واقيمت حمامات، ومسجد وحدائق زودت بالمياه» ويصفها كازانوفا بـ «إنها فرساى صغيرة تتخللها شوارع ضيقة منحوتة فى الصخر».

ووصف القلعة بيير بيلون يقول: «إن مبانى قلعة القاهرة، وحجراتها، وأبهاءها الجميلة، والرسوم القائمة فيها، تقوم دليلا على عظمة المماليك الذين حكموا مصر، فالجدران من الرخام بقدر ارتفاع قامة رجل وحول الابواب والنوافذ ، وهناك اطار، يبلغ عرضه قدما، مطعم على الطريقة الدمشقية بالصدف والأبنوس والبللور والرخام والمرجان والزجاج الملون، وتقع القلعة على صخرة صلبة قطعت فيها درجات لتيسر الصعود.. وهناك عدد من الأبراج العالية المستديرة صنعت على الطريقة القديمة.. وعند النظر من النوافذ، ترى المناظر الجميلة، وترى مصر بأسرها».

لقاء السلطان

ويروى فيليتشى برانكاتشى من فلورنسا مقابلة للظاهر بيبرس سنة ١٤٢٢م ويصف القلعة: «صعدنا الى القلعة بواسطة طريق صاعد يبلغ اتساعه ثمانين ياردة ولكنه شديد الانحدار وشاق لصعود الخيل، حتى وصلنا الى باب دخلنا منه إلى فناء كبير، ثم مررنا خلال باب وسرنا فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك يواجه كل منهما الآخر حاملين الرماح فى أيديهم.. ثم خرجنا الى فناء وتم نفتيشنا ووصلنا حيث يقيم السلطان والحجرة التى دخلناها ، حيث

جلس السلطان، تنقسم مثل الكنيسة الى ثلاثة أروقة تفصل بينها اعمدة من الحجر، ورصفت ارضية الاروقة بالرخام المطعم ، كما غطى أكثر من نصف الارض ببساط ، وترتفع منصة فى مواجهة المدخل تؤدى اليها درجات جلس السلطان عليها، وكان الدرج بغير سور ، وكان يرتدى ملابس من الكتان وله لحية بنية اللون، ويقف خلفه عدد كبير من المماليك يحمل أحدهم سيفا ويحمل آخر ابريقا ويرفع ثالث عصا من الذهب الخالص.. وانتشر موسيقيون يعزفون على الكمان والربابة والعود والآلات خافتة الصوت والصاجات، بصحبة مغنين.. وعندما اصبحنا على مسافة خمس وعشرين ياردة من السلطان، توقفنا وسكتت الاصوات».

وهذا وصف خليل الظاهرى فى «زبدة كشف الممالك» فى منتصف القرن الخامس عشر: «أما دار الملك الشريف التى بها تخت المملكة، المعروفة بقلعة الجبل، فليس لها نظير فى الاتساع والزخرفة والأبهة والعلو، تشتمل على سور وخندق وابراج وعدة أبواب من حديد، وهى حصينة جداً، وبها من القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والجوامع والمدارس والاسواق والحمامات ما يطول شرح ذكره.. أما قصر الابلق، فبه ثلاثة قصور شريفة وفرجاة يرسم المواكب السلطانية، الجميع مفروش بالرخام الملون، والسقوف مدهونة بالذهب واللازورد والنقوش

العجيبة، أما الايوان الاعظم، فليس له نظير وتعلوه قبة خضراء عالية، حسنة المنظر.. أما الجامع الكبير فليس له نظير..»

ويستعرض اندريه ريمون فى كتابه «القاهرة.. تاريخ حاضرة».. الاضافات التى قام بها المماليك فى القلعة، بعد ان بناها قراقوش فى عهد صلاح الدين الايوبى.

ففى عهود بيبرس وقلاوون والناصر محمد تضاعفت الانشاءات فى القلعة واصبحت منطقة قصور، ومسرحا لحفلات المماليك الرسمية وشيد بيبرس بيت الذهب، ودار العدل وثكنات الجنود، واقام قلاوون قبة ودار الافتاء، وكان الناصر محمد أهم من أضاف للقلعة ، فأقام فى الجزء الجنوبى مجموعة مبان سكنية، واعاد فى الجزء الشمالى جامع الناصر عام ١٣١٨ ، كما شيد الديوان الكبير (١٣١٥)، وهو قاعة العرش الرئيسية التى اقيمت فى ذات موقع جامع محمد على القائم اليوم.

وكان القصر الابلق الذى شيده الناصر عام ١٣١٣ قاعة اخرى للعرش يجلس فيها السلطان طوال الاسبوع عدا اليومين اللذين يقضيهما فى الايوان الكبير، وسمى الابلق لان واجهة القصر كانت باللونين الاسود والابيض، وكانت جدرانه من الحجر الابيض، وبعض جدرانه لاتزال باقية قرب المبنى الذى تشغله إدارة مهمات الجيش.

وكانت الاصطبلات تقع خارج الحرم الرئيسى ومتصلة به بسبب اهميتها فى حالة وقوع تمرد، ومن الممكن قطع الاتصال بينها وبين

القلعة، ويستطيع السلطان الوصول عن طريق الاصطبل الى الميدان الكائن تحت القلعة.

كما كانت القلعة ذاتها مسرحاً لنشاط كبير خاصة في ظل قايتباى الذى قام بأعمال تجديد كبيرة فى الجامع ، وفى الايوان الكبير، وفى القصر الابلق، وشيد مقصورة فى الساحة السلطانية، التى كانت تحيط بها المنشآت الخاصة باحتفالات الاستقبال، وبالاستعراضات، وبقيت اعمال الغورى تعطى للقلعة والمنطقة المحيطة طابعهما الخاص.

يقول ابن إياس : ان السلطان الغورى قام بتجديد جزء كبير من القلعة وأجرى اصلاحات فى الدهيشة وقاعة الاعمدة والقصر الملكى الكبير، كما شيد مقصورة تطل على الحوش، وتمت تعلية سور القلعة.

ويروى ابن إياس، روعة وتألق الحفلات التى يقيمها السلطان، ففى عام ١٥١٢م اجتمع عند السلطان فى القلعة اربعة عشر سفيراً.. «وكل قاصد من عند ملك على انفراده» ومن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى، وقاصد ملك الكرج «جورجيا» وقاصد ابن رمضان امير التركمان» ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم» ، وقاصد ابن الصوفى خليل امير التركمان وقاصد صاحب تونس ملك المغرب، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محمود، وقاصد ابن درغل امير التركمان، وقاصد من عند نائب حلب، وقاصد ابن حسين الذى

توجه الى الهند، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة، وقاصد البنادقة.. ومدت فى ذلك اليوم أسمطة حافلة، فلما صلى الظهر خرج واحضر مماليك يلعبون الرمح، فوقع بينهم فى ذلك اليوم خصمانية، حتى تعجب القصاد من ذلك، وكان يوما مشهوداً بالحوش».

اقيمت القلعة على حافة جرف بجبل المقطم لتكون بمثابة المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار.. مع القلعة الاصلية، «كانت تتكون من سورين احدهما بالشمال، والثانى فى الجنوب ، يختلف كل منهما عن الآخر، السور الشمالى عبارة عن مستطيل تقوم عليه ابراج ضخمة، ويفصله عن السور الجنوبى جدار سميك محصن بأبراج ضخمة ، وتصل مساحته الى اكثر من ١٧٠٠ متر، ويقوم على هيئة مستطيل ويفصله عن جبل المقطم خندق عميق»، وتشاهده اليوم ممتداً بمحاذاة طريق صلاح سالم وتتخلله بوابتان.

أهملت القلعة الرمز والاثر.. احترق قصر الجوهرة، وتشقق الكثير من المبانى داخل القلعة، واندثر عدد مهم من المعالم داخلها، واقتحمتها قوات الاحتلال البريطانى واقامت ثكنات جنودها فى باب العزب، ولا يخفى على احد مغزى ذلك، وظهر مؤخراً مشروع ينادى بإقامة الفنادق والمنشآت السياحية فى هذا المكان، رغم اعتراض علماء الاثار وعلماء الجيولوجيا.

أفهم ان يتبنى هذا المشروع وزير السياحة، وأن يعارضه وزير الثقافة لا أن يحدث العكس، فأرض الله واسعة، تقام عليها أية مشروعات جديدة، ولا تمس ما تبقى لنا من رموز..

وتوجد عدة مؤلفات مهمة تستعرض تاريخ قلعة الجبل، وتتناول عمارة مبانيها وقيمتها التاريخية وتسجل التغيرات التى شهدتها ، منها كتاب جومار عن القاهرة، وكتاب المستشرق الفرنسى كازانوفا، وأخيراً كتاب اندريه ريمون عن القاهرة.

السقوط !

يعتنى الكثير من الدراسات التاريخية بكيفية قيام وازدهار الحضارات ، ولا تهتم بأسباب سقوطها ، فلماذا وكيف انهار عصر المماليك؟.. فى الاجابة عن هذه الاسئلة تتجلى عبرة ودرس السقوط، بعد أن تولى ستة وعشرون سلطانا خلال الفترة ما بين عامى ١٣٨٢ و١٥١٧ م. وإذا استبعدنا السلاطين الذين لم يمكثوا فى الحكم إلا قليلا، نجد تسعة سلاطين استمروا فى الحكم لمدة مائة وعشرين عاماً، وكانوا من السلاطين الذين تركوا اثرا جديراً بالتقدير، ولكن ها هو العصر يتغير والاسلحة تتطور وتظهر الاسلحة النارية، فقد اجاد المماليك استعمال الاسلحة البيضاء وتدربوا عليها جيدا واصبحوا مهرة فى استخدام السيف والسهم.. ورغم شجاعتهم انتصر عليهم العثمانيون بأسلحتهم النارية الجديدة.

ابحث عن الانجال!

وأصابهم الضعف من جراء اصرار عدد من السلاطين على توريث الحكم لابنائهم وحاول ستة سلاطين ان يفرضوا ابناءهم على حكم البلاد، ويعلق ابن تغرى بردى ساخراً من هؤلاء الذين يطمحون لكى

يتولى ابناؤهم العرش، فقاموا بخلع أبناء سابقيهم.. ويعلق «إذا كنت ترغب في معرفة حال الدنيا من بعدك ، انظر لحالها بعد وفاة من سبقك»!.

ويقضى النظام المملوكى بتولية الأمراء الاكثر قوة، ومع اقتراب النهاية كثرت الصراعات وتزايدت المعارك بين الاطراف المختلفة والمتنازعة من اجل الوصول الى الحكم.

ويبقى البعد الاقتصادى لكى يلعب دوره فى القيام أو السقوط ، فقد أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والتعرف على طرق بحرية بديلة بعد رحلة فاسكو دى جاما عام ١٤٩٩م إلى فقدان المماليك السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب.

بوابة المتولي !

نتوقف عند الباب الذى يطلق عليه العامة «بوابة المتولى» وهو باب زويلة الذى يمثل مدخل السلاطين المماليك الى المدينة من جهة القلعة.. وعليه كانت تعلق جثث القتلى.

ويحكى هذا المكان ما شهده سلاطين المماليك من مجد وما عانوه من انكسار. تكاد تسمع وترى عند هذه البوابة صليل السيوف وغبار المعارك.

فقبل مرور عشرة أعوام على قيام دولة المماليك، كان التتار قد اجتاحوا العراق واسقطوا الخلافة العباسية ـ كما رأينا – واندفعوا الى الشام فاقتحموا حلب، وبعدها سقطت دمشق.

ويدأ الاستعداد لغزو مصر وأرسل هولاكو الى سلطان المماليك قطز رسالة تفيض صلفا وغرورا ويطلب الاستسلام، تقول كلماتها: «سمعتم اننا فتحنا البلاد، وطهرنا الارض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأى أرض تؤويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص ،.. ولا من مهابتنا مناص»، فما كان من سلطان المماليك إلا ان قتل رسل التتار وعلق رؤوسهم على باب زويلة، وكان هذا الموقف هو اول اشارات النصر، وعندما رأى السلطان بعض علامات التردد من بعض الامراء، وقف السلطان بينهم خطيبا وقال: «يا امراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون اموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، أنا متوجه للقتال فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه».

ودارت الموقعة الفاصلة بين هولاكو وقطز فى عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠م.

وهكذا كانت البداية ، وتدور الايام ويشهد باب زويلة المشهد المهيب، والاخير بعد ان وصلت دولة المماليك الى نهايتها عند ساحة الإعدام، عند باب زويلة، عندما هزم العثمانيون المماليك ، وحكموا على سلطانهم بالاعدام شنقا.

ففى يوم ١٤ أبريل سنة ١٥١٧م، أُلبس السلطان طومان باى رداء ذا أكمام طويلة وقلنسوة، وقيد بالسلاسل محمولا فوق ناقة، وعبر

القاهرة من شمالها الى جنوبها. ونزل عن دابته فى باب زويلة وفك وثاقه، ووقف امام الجمع الصامت الحزين فى ثبات وقوة وصاح: «اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات».. واستدار فى شجاعة نحو جلاده وقال: «قم بعملك».. وشد الحبل حول عنقه، ولكن الحبل تمزق مرتين، ووقع السلطان على الارض ، وفى المرة الثالثة شنق السلطان عارى الرأس.. وعند موته علت صيحة عظيمة من الأهالى الحزينة على السلطان الشجاع العادل.

وتظهر عاطفة ابن اياس الفياضة وهو يصف محنة سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين فى أواخر القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). ويصور بقلمه نعى عصر بأكمله.. يقول: «أشيع خبر الكائنة العظيمة التى لمت وعمت وزلزلت.. وزال ملك الاشرف الغورى فى لمح البصر.. فكأنه لم يكن.. وقام نعى السلطان والأمراء والاعيان الذين قتلوا، وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء.. ورجت القاهرة، وضجت الناس، واضطربت الأحوال .. وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وهتكاً ونهباً، ودامت المذبحة الهائلة اياما اربعة.. وهى المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان، وكانت الجثث فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة.. صرخت الناس على السلطان صرخة عظيمة،

وكثر عليه الحزن والاسف، فقد كان شجاعا بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الابطال العناترة..

لهفي علي سلطان مصر كيف قد
ولي وزال كأنه لم يذكرا..

وقد مات السلطان الغورى فى ساحة الوغى فى معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦م، وتولى قيادة فلول الجيش المهزوم طومان باى الذى استمر يحارب وهو يتقهقر الى القاهرة، تتبعه الجيوش العثمانية، ولم يحصل على البيعة، واطلق عليه متولى الامر.

فهل يمكن ان يحزن عليه الأهالى كل هذا الحزن إذا كان مجر حاكم اجنبى؟!

وبمشهد بوابة المتولى قضى الأمر وانتهى عصر المماليك «فرسان الإسلام» وبقيت فلول قواتهم، واستمرت طوال العصر العثمانى وحتى مذبحة القلعة أيام محمد على..

وبقيت آثارهم تدل عليهم.

كلمة أخيرة.. إذا كانت دولة المماليك قد حققت نصراً عسكرياً كبيراً ضد التتار، ثم ضد أطول وأبشع غزوات العصور الوسطى وهى الغزو الصليبى (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ) (١٠٩٦ ـ ١٢٩١م)، لكنها من الجانب الحضارى قد تراجعت وأصابها الجمود.

وتزامنت هذه المفارقة العجيبة مع النهضة الاوروبية، التى قامت عقب الاحتكاك بالشرق، ومن خلال الصراع اكتشف تراثه اليونانى وبنى عليه نهضته الحديثة.. فكان ان انتصر حضاريا من لم يستطع تحقيق النصر العسكرى. وأخذ الشرق والغرب يتبادلان المواقع الحضارية.

الظاهر بيبرس
فى التراث الشعبى

الظاهر بيبرس تولى السلطة من ١٢٦٠ إلى ١٢٧٧، وهو أحد السلاطين الذين تمتعوا بمكانة بارزة فى وجدان الشعب ، ويكاد يكون الحاكم الوحيد الذى حظى بهذه المكانة ، فما زالت تروى قصته فى الملاحم الشعبية ، وحكايته غنية بالرموز والدلالات ، يقوم فيها بأعمال البطولة والفروسية والشجاعة والنبل .

قام بالكثير من الاصلاحات ، واسترد حكم سوريا ، كما تابع استرداد فلسطين من الصليبيين ، وهو ذاته الذى قام به من قبل صلاح الدين الأيوبى .

فما سر حكايته التى تروى على الربابة بين منشدى القرية وسط الفلاحين والعامة حتى اليوم ؟

ويا ترى ما سر هذه المكانة .. ؟ وهل لهذه المكانة علاقة بأنه تم فى عصره انتقال قيادة البلدان العربية الى القاهرة عندما استطاعت مصر

فى ظروف صعبة ان تلعب الدور الرئيسى فى حماية العروبة والاسلام ، وفى ايامه زادت اهمية مصر العربية ، وانتقلت الخلافة اليها ، واكتمل دورها وشخصيتها العربية فى اللغة والثقافة ، وقادت اعظم المعارك يوم ألقيت عليها مسئولية الدفاع عن أرض العرب ، فحفظت للمنطقة عروبتها وإسلامها وكيانها ضد غزاة العصور الوسطى .

وجاء الظاهر بيبرس الى الحكم بعد انتصار صلاح الدين فى معركة حطين وبعد ان انزل قطز الهزيمة الساحقة بالتتار - بعد اجتياحهم بغداد - فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، وبعد ان قضى التتار على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٢٥٨ م . وكان عليه ملاحقة بقايا الصليبيين ومواجهة التتار الزاحفين الذين لم ينسوا هزيمة عين جالوت ، فكانت الحروب بينهم وبين بيبرس سجالا فقضى على قوتهم بالشام ، ولم ينقطع عن مطاردتهم فى المناطق التى يغيرون عليها ..

وكما واجهت الدولة الاسلامية فى صدر الاسلام الفرس والروم ، واجهت مصر دفاعا عن العروبة والاسلام التتار والصليبيين .

عندما انتقل الوسط الجغرافى الى القاهرة ، بعد انسلاخ الامارات الاسلامية فى اسيا ، وانهيار بغداد ، وذهاب قرطبة. وقد منح موقع مصر الظاهر بيبرس المزيد من التفرد ، وأصبحت مصر القلب من الجسم بعد ان تكونت للعروبة منطقة واضحة وابعاد محددة ، وامتدت

دولته من اليمن جنوبا حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وعلى شاطىء البحر الابيض من خليج الاسكندرية حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أعالى النوبة ، فكانت تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة .

واصبح تحرك العاصمة الى المركز الجديد طبيعيا وقد شهدنا من قبل انتقال العاصمة من المدينة المنورة ، فى عصر الخلفاء الراشدين ، والى دمشق فى عصر الامويين عندما اتسعت الدولة شمالا وانتقلت مرة اخرى مع انتقال الوسط الجغرافى الى بغداد فى العصر العباسى ، واستقرت فى القاهرة فى عصر المماليك عندما فاقت غيرها من مدن الاسلام فى العظمة والعمران ..

وتدفق على مصر العلماء والصناع حين بدأ سقوط الاندلس وقلاقل المغرب ، وحين وصل اعصار التتار الى العراق ..

وغدت مصر قلب العالم العربى والقاهرة مركزه واقوى عواصمه بعد انتصارها ، وازدهرت اقتصاديا عندما اصبحت عاصمة تجارية بين بلاد الشرق البعيد وثغور البحر الأبيض ..

واللافت النظر هنا ان سيرة الظاهر بيبرس بدأت روايتها عندما انهارت هذه الدولة، ودخل سليم الاول الى القاهرة وسقطت مصر تحت الحكم العثمانى، وانتقلت العاصمة من جديد إلى القسطنطينية، ألا يعنى ذلك ان الظاهر بيبرس يمثل «الحلم» الضائع فى الوجدان الشعبى؟

القضاء على الإرهاب

لقد قدمت الملاحم الشعبية والصور التاريخية الظاهر بيبرس فارع الطول اسمر اللون جهورى الصوت ، حاد النظرات شجاعاً ، نبيلا عادلا، لا يكف عن النشاط والحركة تتغنى الملحمة الشعبية ببطولاته خلال الحملات الصليبية وفى المعارك ضد الزحّف التتارى وهى المعارك التى مهدت للانتصارات التى حققها بعده للسلطانان قلاوون والاشرف ، وبعد ان قضى على سطوة الحشاشين ذلك التنظيم الارهابى المحكم الذى روع العالم الاسلامى بالأعمال العدوانية والتخريبية والارهابية واغتيال عدد من قياداته ..

ولم تقتصر سيرة الظاهر بيبرس على قيادة الجيوش واعداد الاساطيل وتدريب الفرسان وتحصين القلاع والثغور ، بل امتدت الى البناء والعمران ، وما حققه من تقدم فى نظم الحكم والادارة وتنمية موارد الثروة . فأمد الموانىء وربط القاهرة ودمشق باتصال بريدى عن طريق الخيل والفرسان الذين يحملون البريد خلال اربعة ايام ، وكانت الخيل تقف على أهبة الاستعداد لنقل البريد من محطة الى اخرى ، ولم تفته اقامة المؤسسات الخيرية والدينية والثقافية ..

وما زال فى القاهرة احد الاحياء التى تحمل اسمه وهو حى «الظاهر» كما توجد أكثر من قرية تحمل اسم «الضهرية» وقد اتخذ قلعة الجبل مقرا لحكمه ، وما زالت بين القصرين تضم منشآته : المدرسة

والجامع الذى يحمل اسمه ، واعاد بيبرس الجامع الازهر لما كان عليه فى عهد الفاطميين .

وما زال قبره مزارا فى دمشق بعد أن لقى ربه خلال زيارة لها .

ووقف المؤرخون طويلا امام نجاح مصر فى صد الزحف التتارى الذى لم يكن انجازا لمصر وحدها ، بل للبشرية كلها ، فهذا السيل كان يتجه من المشرق الى المغرب واذا قدر للتتار اجتياح مصر ، فسيجتاحون المغرب والاندلس وربما اوربا ، وحافظت مصر على صروح الحضارة البشرية ، ويرى المؤرخون ان موقعة «عين جالوت» لا تقل خطرا عن موقعة «شالون» التى هزم فيها الهون قبلها بثمانية قرون على يد القوط والرومان بعد ان أجتاحوا اوربا جميعها ..

السلطان الحائر

ومن ابرز علامات عصر بيبرس احياء الخلافة ونقلها الى القاهرة عندما ظل الظاهر بيبرس السلطان الحائر بين الحق والقوة ، الباحث عن الشرعية ، فاذا كان قد حقق شرعيته بالسيف والقوة ، فهذا وحده لا يكفى ، فالشرعية القائمة على القبول العام ضرورية لدولته الواسعة الارجاء وفى مواجهة الجدل القائم حول اصل المماليك وشرعية انتقالهم من رقيق الى حكام ، وهم الذين يمثلون العسكرية وحدها ، وعقب فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذى افتى بضرورة بيع المماليك فى الاسواق ، بعد اعتاقهم يمكن ان يصبح لهم الحق فى تولى الحكم ، كما

كانت للشرعية اهمية بالغة فى جو المعارك الداخلية بين امراء المماليك الطامعين وفى مواجهة الحشاشين والعلويين والاسماعيلية بعد انهيار الحكم الفاطمى ..

وواتته فرصة احياء الخلافة العباسية وهى من الحوادث التاريخية النادرة التى يختار فيها الحاكم سلطة أعلى منه .. وذلك عندما قدم الى دولته الامام احمد عم المعتصم اخر الخلفاء ، وابن الخليفة الظاهر بعد نجاته من مذبحة بغداد ، جاء الى مصر وفى صحبته جماعة من امراء العرب بعد ان غابت الخلافة من البلاد الاسلامية ، وخرج بيبرس للقائه ومعه القادة والعلماء والاعيان واستقبله فى المطرية وصحبه الى قلعة الجبل ، وعقد مجلسا فى بهو الاعمدة ، حضره القضاة والعلماء والامراء ، كما حضره شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، وامام مجلس العلماء اثبت الإمام احمد نسبه وبايع بيبرس الخليفة وكان يوما مشهودا وشهدت القاهرة احتفالات لم تشهد لها مثيلا ..

خطاب الخليفة

ويمكن ان نتبين عمق القيم التى سادت المجتمع عند قراءة وصايا الخليفة للسلطان الذى يوصيه فيها بالعدل ، ويأمره بتحصين الثغور والقلاع ، ونلاحظ انه مجتمع قام على الجهاد دفاعا عن ارض وتراث المنطقة كلها .

وينقل المقريزى فى كتابه السلوك لمعرفة الملوك خطاب الخليفة ، وهو من انشائه والذى شهد على مكانته والذى ألقاه أمام بيبرس وجمع غفير من العلماء ..

ومما جاء فى هذا الخطاب قول الخليفة .. «ان ما يجب تقديم ذكره هو أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم وأعد لهم عنده المقام الكريم وخصهم بالجنة» ويضيف .. «لا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها النور ، واجعل امرها على الامور مقدما وشيد منها كل ما غادره العدو مهدما ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، واولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً ، والعدو له ملتفتا ناظرا ولا سيما ثغور الديار المصرية فان العدو وصل اليها رابحا وراح خاسرا ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال لهم عاثرا ، وكذلك أمر الاسطول الذى ترجى خيله كالأهلة وركائبة سابقة بغير سابق ستقله ، فان ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة ، وان لحظها جارية فى البحر كانت كالاعلام ، واذا شبهها قال هذه ليال تقلع الايام .

فماذا يا ترى يقول اليوم فى عصر الصواريخ والطيران ؟!

واضاف مخاطبا السلطان .. «لقد أقمت الدولة العباسية ، بعد ان اقعدتها زمانة الزمان ، واذهبت ما كان من محاسن واحسان واعقب دهرها المسىء لها فاعتب ، وارضى عنها زمنها ، وقد كان صال عليها

صولة مغضب .. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا وفوض امر جندها ورعاياها اليك حين اصبحت بالمكارم فردا ..»

.. وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام وأصحاب رأى من اصحاب السيوف والاقلام فاذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عنه تنقيبا وأجعل عليه فى تصرفاته رقيبا ، وسل عن أحواله ، ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا ، وبما اجرم مطلوبا ، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا ، وامرهم بالأناة فى الامور والرفق ، ومخالفة الهوى اذا ظهرت ادلة الحق ، وان يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم ، الوجه الطلق ، وألا يعاملوا احدا على الإحسان والاساءة الا بما يستحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا اخوانا ، وان يوسعوهم برا واحسانا وألا يستحلوا حرماتهم ، واذا استحل الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم اخو المسلم ولو كان اميرا عليه وسلطانا» .

ومنذ هذا الوقت اخذت وثائق تقليد حكام الولايات تخرج من القاهرة ومنهم بعض حكام الهند بل وحتى وثيقة تقليد السلطان العثمانى بايزيد الاول سنة ١٣٩٤ م ، واستمرت الخلافة زهاء ثلاثة قرون وحتى انتزع السلطان سليم حكم مصر عام ١٥١٧ م ، ونقل الى القسطنطينية ضمن ما نقل من مصر العمال المهرة والحرفيين والخليفة المتوكل اخر خلفاء بنى العباس .

مغزى حكم بيبرس

ويدهش المرء من قلة العناية بهذه الصفحات من تاريخ مصر ، وهى التى تحتاج الى اوسع الدراسات للوصول الى مغزاها وعبرها ، ولعل غياب الاهتمام بهذه المرحلة يعود الى التركيز على اصول حكام هذا الزمان الذين انتقلوا من الرق الى أريكة الحكم ، او لعله النفور من أعمال المماليك فى نهاية العصر المملوكي واثناء العصر العثمانى وما اقترفه الكثيرون منهم من عسف وجور !

ومع ذلك وجد من يحمل هذه المهمة وهو الاكثر صدقا وتعبيرا عن وجدان الشعب ، ألا وهو التراث الشعبى الذى احتفى ببيبرس وبطولته وجاءت ملحمته لتؤكد انه لم يكن مجرد حاكم معزول عن شعبه ، بل عبر بصدق عن عصره وقيم شعبه واحلام وطنه .

وبرأته الملحمة من الرق ووصلته بالأشراف وربطته بالعرب ، وجعل الشورى ظاهره ، فالرياسة لن تكون بالوراثة، ولكنها نتيجة التفانى فى الخدمة العامة ، كما تبدو الشعوب العربية الاسلامية عالماً موحداً ، فالوجدان الشعبي كان أوسع من الحدود الجغرافية لمصر .

فمثلا .. يظهر حرص الظاهر بيبرس على إقامة العدل وايمانه بالمساواة عندما تولى بنفسه مجلسا يسمي دار العدل يبحث مظالم الرعايا .

ولا يدرك المؤرخون ان تجاهل هذه المرحلة انما هو تجاهل للدور التاريخى لشعب مصر وموقعه الحاكم فى المنطقة العربية ، فليس

صحيحا ان قطز وبيبرس وقلاوون ، قد اتخذوا مصر منطلقا وحكموا منها انما الحقيقة التاريخية تقول انهم حكموا بها قبل ان يحكموها وواجهوا الغزاة باسم مصر وبطاقات مصر ، يساعدهم موقع مصر ، وثروتها البشرية . ولعل فى الحكاية التى رواها ابن اياس ، ما يؤكد ذلك ويرد على دعاة ان تاريخنا كله يحكمه ما اطلقوا عليه «الطغيان الشرقى» وجاءت الحكاية فى كتاب بدائع الزهور «جاءت الاخبار سنة خمس وسبعين وستمائة بأن التتار قد زحفوا على البلاد ، ووصل أوائلهم الى حلب وكانت الخزانة خاوية نفد ما فيها من مال ، وطلب السلطان فتوى بجمع المال من الاهالى ، وعندما طلب هذه الفتوى من الشيخ محيى الدين النواوى رأس علماء الشافعية ، فامتنع فقال له السلطان :

ما سبب امتناعك ..؟

قال : انا اعلم انك كنت فى الرق للأمير البندقدارى ، وليس لك مال، ثم ان الله تعالى منّ عليك وجعلك ملكا ، وبلغنى ان عندك سبعة آلاف مملوك ، ولكل مملوك حياض ذهبا ، وعندك مائتا جارية لكل جارية حلى فاخرة ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص مثمنة فاذا بعت ذلك جميعه ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوايض والذهب وباعت جواريك الحلى التى عندها ، افتيتك بأخذ اموال الرعية»..

ولما غضب الظاهر قال له العلماء .. «ان هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ممن يقتدى به ..»

وتكشف هذه الحكاية مكانة العلماء والفقهاء ، فرغم ما حققه الظاهر من انتصارات عسكرية ومع تهديد جديد ، رفض احد الفقهاء الموافقة على جمع الاموال من الرعية ، فمن يتصور ان يحدث مثل هذا فى عالم اليوم ، ومن يقدر على مواجهة مطالب حاكم منتصر يخرج من جديد لملاقاة الاعداء إلا فى مجتمع تعمقت فيه حقوق الحاكم وحقوق المحكومين .

إن سيرة الظاهر بيبرس التى ترددت فى كل ارجاء مصر ، والتى تعكس حلم ابناء مصر ، وتوقهم للدفاع عن العرب ضد الغزاة يمكن ان تضيف للباحث المنصف رؤية جديدة للجدل القائم حول المستقبل.

مصر
وشخصيتها التاريخية

لا يحتاج الباحث المدقق الذى تشغله قضية الهوية والشخصية المصرية سوى ان يعيد قراءة تاريخ مصر . وسيجده كتابا مفتوحا غنيا بالوقائع والدلالات ، ويجيب على كل التساؤلات ، ولن يجد فيه زيف الازدواجيات التى تمتلىء بها الحياة الثقافية .

ولا محل لتلك المناقشة حول : هل مصر فرعونية أم عربية .. ؟

وترى أن الحوار الدائر بين العروبة والإسلام ، لا يزيد على كونه لغواً ، عندما يجد تاريخ مصر ، دوائر تتداخل ولا تتعارض .

وصفحة التاريخ المصرى ، مدونة ومسجلة ، وهو أول تاريخ عرفه الإنسان ، وضع أمام القارىء آلاف السنين التى تبدو كالأمس القريب ، بعد ان قدر لكل مراحل التاريخ أن تجد من يسطر أحداثها ويسجلها ، وتكاد تندر فى تاريخ مصر الفجوات ، بما لايقارن مع تواريخ المجتمعات البشرية الأخرى . ولعل الاستثناء الوحيد هو المرحلة الرومانية التى جاءت بعد حكم البطالمة واستمرت حتى الفتح الاسلامى فالمعروف من هذه المرحلة شديد الندرة .

كلما ألحت علىّ فكرة تناول شخصية مصر التاريخية استبعدها ، لما تحمله من شبهة التعصب الوطنى ، وما يمكن أن تدفع إليه من كبرياء أجوف مما يتعارض مع مضمون حضارة مصر ورسالتها ، ولإيمانى العميق بأن المجتمع المصرى مثل غيره من المجتمعات يقوم ببناء الحاضر والمستقبل ، لا على زهو الماضى وانما على جهد ابنائه ، وتسلحهم بالمعرفة والمهارة ، وصلابة ارادة الجماعة ، والتصميم على التقدم والانجاز ، وشيوع الايمان بالعدل وحقوق الانسان ، وبعدها يحتاج المجتمع الى عبر ودروس الماضى ، وعندها يتعدى دور التاريخ المتاحف والأماكن الأثرية ، ويكون جزءا من سلوك الناس ، عندما يضيف الى عمل الانسان ايمانا عميقا بالمستقبل .

وشعرت بدقة الموضوع وصعوبته ، وأن أولى الناس لانجاز هذه المهمة هم أساتذة التاريخ ، ولست متخصصا فى التاريخ ، وما أنا سوى قارىء لوقائعه .

وأدركت أن سبب ندرة هذه المؤلفات التى تجمع أطراف تاريخ مصر فى مراحله المختلفة ، تعود الى طبيعة المنهج الأكاديمى ، الذى يقوم على التخصص الدقيق ، وخلاله تتقطع أوصال التاريخ المصرى بين أيدى الدارسين الى مراحل وأطوار ، وتصبح مصر الاسلامية مقسمة الى مصر الطولونية ، ومصر الفاطمية ، ومصر المملوكية ، وهكذا .

وهذا بسبب كثرة المادة التاريخية وتنوعها وتداخلها مع غيرها مما يجعل الرؤية الشاملة بالغة الصعوبة ، وتغيب وسط أطنان المخطوطات وحدة التاريخ المصرى وفلسفته ، وتتهم أية محاولة على هذا الطريق ، بالبعد عن الدقة العلمية واقتحام دروب غير آمنة !

لذا طال التاريخ فى مصر ماطال سواه ، من التشويه والسعى الى توظيفه للقعود والنكوص ، لا للصحوة والنهوض ، البعض بسوء قصد والبعض نتيجة القصور وتبنى أفكار الغرباء الذين تناولوا هذا التاريخ ، يحملون على أكتافهم معاركه القديمة ، ووجدنا المراحل التاريخية يخاصم بعضها بعضا ، فالمتخصص فى التاريخ الاسلامى يتجاهل تاريخ مصر القديم ، على اعتبار أن التاريخ الفرعونى منقطع الصلة بما جاء بعده ، وفى المقابل خرج علينا من ينظر الى تاريخ مصر الاسلامية

على أنه مرحلة ركود وموات انتزعت خلالها الروح المصرية والشخصية المصرية !

ويحضرني نموذجان :

يقول أحد أساتذة التاريخ : «عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ م ، كانت مصر ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية ، وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ م وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التى حملت اسما جديدا هو اسلامبول أو الأستانة ، ولم يكن حالها بأحسن من حالها عام ٦٤٠ م ، وكان البلد خرابا ، وكأن اثنى عشر قرنا ضاعت سدى انقضت ونحن نيام بعيدون عن الوجود...»!

وهى رؤية مضطربة لأحداث الماضى ، تتجاهل أن مصر كانت ف ذات الفترة التى وُصفت فيها بالخراب حاضرة العالم الاسلامى ومنارة علمه وفنونه ، وقلب الحضارة الاسلامية ، وتتجاهل دور مصد ورسالتها عندما دافعت عن المنطقة العربية وواجهت الغزاة من الصليبيين والمغول ، وأنها كانت قبل الفتح العثمانى مقرا للخلافة الاسلامية .

ويؤكد استاذ آخر هو د . حسين فوزى أن مصر لم تحكم بواحد من أبنائها منذ عصر الفراعين حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ، ويقول ... «أخضعها - أى مصر - الروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة من أجناس الترك ، حكمها

العثمانيون والفرنسيس والأرنؤود والبريطانيون ، وذاقت مصر حكم الأجنبي على كل لون تراه فوق خريطة أوروبا وآسيا ، لم ينقصها سوى حكم الهنود والصينيين واليابانيين وقد تكون الوحيدة من بلاد الله التى عانت خلق الله جميعا .. »

تزدحم هذه الكلمات بالمغالطات ، ولا يتسع المجال الا لذكر بعض الملاحظات ، مثل أن نظرته لتاريخ مصر الاسلامية ، جاءت من خلال معيار حديث ، هو الفكر القومى ، الذى لم يكن سائدا فى المرحلة التاريخية التى يتحدث عنها ، ويرى من خلالها أن حكام مصر كانوا من الأجانب عنها ، متجاهلا أن المعيار الوحيد فى ذلك الزمان ، هو وحدة العقيدة ، وإذا اعتمدنا ذات المعيار الذى يأخذ به مثلا على حكم بريطانيا ، لكانت تحكم حكما أجنبيا ، فالعائلة المالكة البريطانية ذات أصول ألمانية ..

ونتساءل .. اذا أخذنا بنظرته تلك ، فهل نعتبر صلاح الدين الأيوبى وهو كردى الأصل ، أجنبيا ، وفيما كان جهاده وانتصاراته، اذن هل كانت دفاعا عن وطن الكرد ، أم عن وطن الاسلام .. ؟!

وبنفس المعيار ، كيف نقيّم معارك الظاهر بيبرس وهو المملوك المولود على ضفاف نهر الفولجا ، هل كان فى معاركه ضد الصليبيين والمغول ، يدافع عن بلاد الـ فقاق أم عن بلاد الاسلام ؟

لهذا وجب علينا اعادة قراءة التاريخ ، بعيون منصفة وفى سياقه الطبيعى ، وخاصة أنه كلما تزايدت المصاعب والتحديات التى تواجه

مصر الحديثة ، سعى البعض الى اخفاء جوهر الرسالة الحضارية للشعب على ضفاف النيل ، باعتبار الماضى تجربة انسانية ، ومرتكزا اخلاقيا ، وسجلا لأعمال المواطن وأفكاره ، عندها نتعلم من عبر التاريخ، ونبتعد عن التفاخر والغطرسة الفارغة ، كما نبتعد عن النظرة الظالمة المتحيزة .

فهذا الماضى كفيل بأن يبعث فى الأمة صحوة جديدة ونهضة أصيلة. توضع عندها المصاعب اليومية فى حجمها الحقيقى ، ويمكن لنا أن نستشرف الغد ، وتتحول المعادلات وموازين القوى الجامدة ، الى معادلات يمكن تغييرها والفكاك من أسرها .

أقدم الحضارات

حان الوقت لتحديد بعض ملامح التاريخ المصرى .

إن نظرة خاطفة علي تلك الخريطة الملونة التى أعدها سير جور ماريوت فى كتابه تاريخ العالم ، والتى تقدم تاريخ حضارات العالم بألوان متعددة ، وميز الحـ ـارة والتاريخ المصرى باللون الأزرق ، تلحظ أنه عند اللون الأزرق يبدأ التاريخ ، تاريخ مصر ويمتد إلى ما قبل ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ويأتى بعده البابليون والحيثيون وكل من الهند والصين ..

أما بلاد مثل بريطانيا فلا يمتد تاريخها إلى أبعد من ألفى عام ، وإسبانيا لا يتجاوز تاريخها سوى ألفين وخمسمائة عام .

وتكشف لوحة هامرتن أيضا عن أن التاريخ المصرى تاريخ متصل . يذكر : «إذا أخذنا بالتقدير الأقصر على أنه الأرجح ، كانت سنة ٣٤٠٠ ق . م هى بداية فجر التاريخ ، وكان فجر التاريخ المصرى ، السابق على أرض مابين النهرين (البابليون) . وهناك روايات يمكن إثباتها تمتد إلى سنة ٣٥٠٠ ق . م ، وبهذا يكون تاريخ الانسان المتحضر قد بدأ فى وادى النيل » .

ويؤكد فى تعليقه على اللوحة .. «إن هناك شواهد تدل على أن الحياة الاجتماعية فى مصر كانت فى تاريخ غير معلوم يقع فى حدود عام ٤٠٠٠ ق . م الذى ترتقى فيه مصر وتتجه نحو اقامة دولة منظمة ، وأن أول امبراطوريات العالم قامت عام ١٥٨٠ ق . م عندما طردت مصر فئة حاكمة من الغزاة الاجانب ، بفضل عبقرية تحتمس الثالث » .

ويكاد البحث التاريخى يتفق على أن فجر البشرية كان فى مصر ، ويتناول «وول ديورانت» الفكرة فى كتابه «قصة الحضارة» بقوله :

« ولم يكن الشرق مسرحا لأقدم مدنية عرفها الانسان فحسب ، بل إن تلك المدنيات كونت الاساس والبطانة للثقافتين اليونانية والرومانية اللتين ظن سير هنرى مين خطأ أنهما المصدر الوحيد الذى استقى منه الفكر الحديث ، فما لنا من فلسفة ودين يرتدان الى مصر والشرق .. ».

وينتقل الى القول :

« فى هذه اللحظة التاريخية ، حيث تسرع السيادة الأوروبية

نحو الانهيار، وحيث تنتعش اسيا مما يبعث فيها الحياة، وعندما يبدو الاتجاه في القرن العشرين وكأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب.

في هذه اللحظة نرى أن التعصب المقيت الذى ساد كتاباتنا للتاريخ، والذى يبدأ كتابة التاريخ من اليونان ، ويكتفى بتلخيص الشرق كله فى سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما اخفاقا ذريعا فى تصوير الوقائع ونقصا فادحا فى ذكائنا .. »

ثم يتساءل .. كيف يتاح لعقل غربى أن يفهم الشرق ؟ فالعمر بأسره لا يكفى طالبا غربيا ليدمج نفسه فى روح الشرق الدقيقة اللمحات ، وفى تراثه الذى يكتنفه الغموض .

فى أقصر ما تبدو حياة اليونان أو روما بالقياس الى السجل الحافل فى حياة مصر . فاليونانيون قد اخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر .

وتتوالى الشهادات :

فيشير موريه فى كتابه : «النيل والحضارة المصرية» .. « ماضى المصريين هو أطول الاحقاب التى يسجلها تاريخ البشرية ، فمصر وحدها هى التى تقدم لمن يدرسها تاريخا يمتد من العصر الحجرى القديم حتى العهد المسيحى ، فاذا لم ندخل فى حسابنا سوى الحقبة التى تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة الاف سنة من حضارة تركت آثارها المدونة .. »

ويذكر بريستيد فى كتابه «فجر الضمير» ، وفيه يرى أن تاريخ

مصر ليس الاقدم فحسب ، بل أول حضارة ، تتوصل الى فكرة الضمير كقيمة فلسفية وأخلاقية ، يقول : «إذا نظرنا الى أرض وادى النيل ، منبت أول انهسان أدرك قوة المثل الأخلاقية ، تلك المثل الذى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ الانسان . تذكرنا ان حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكا لمعنى الشخصية والاخلاق وصدق الاحساس » .

التدوين والتسجيل

وتأتى العلامة الثانية التى لم تنل حظها من الاهتمام رغم مغزاها وهى ان تاريخ مصر من أكثر تواريخ البشرية تدوينا وتسجيلا ، ولم توجد مرحلة تاريخية مهمة لم يرافقها مؤرخ يسجل وقائعها ..

فمصر أمة صنعت التاريخ ، وعاشت عمرها فى أحداثه ، وهى إما صانعة حضارة أو محافظة عليها ، تقدمها لمن يتعاقب عليها من الأجيال.

فكان فى مصر منذ عهد الأسرة الأولى سجل بوقائع كل عام ، وبما بلغه النيل من ارتفاع ، وحفظ التاريخ آلاف السنين ، وأصبحت بفضل التدوين كتابا يمكن أن تقرأ خلال صفحاته رسالتها وطبيعة شخصيتها، ومغزى أحداثها .

وتتواصل ظاهرة رصد الماضى وتدوينه ، كدليل على الحس التاريخى لشعب مصر ، فالتاريخ ظاهرة فارقة بين التحضر والهمجية ، فغير المتحضر لا يعرف حتى أباءه ، يشغله ويملك عليه نفسه احتياجاته الآنية ، ولا يمتد بصره الي مابعد حاجاته

الضـرورية ..

وإذا كـان تاريخ الفراعنة قد سـجل على المعابد وأوراق البـردى ، فـيكاد لا يجـد مـرحلة تاريخـية لم يظهـر فـيـهـا مـؤرخ بدون احـداثهـا ووقائعها ، منذ هيرودوت ومنتون المصرى .. وحتى عبد الرحمن الجبرتى .. سجل لنا (أبو التاريخ) هيرودوت فى كتابه التاسع ، الذى كتبه حول مصـر ، بعد زيارتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، دون حملة قمبيز على مصـر الذى ابتلعته رمالها ، وعالج مصـر وكأنها الكنز الحافظ لحضارة الإنسـان ، وهى عنده أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، ووصف آثارها منذ عصور موغلة فى القدم ، وتحدث عن طبيعة أرضـها ونيلها وعادات أهلها ومظاهر حياتهم وأصل سكانها ، ونقل ما عرفه عن حياة ملوكها .

وبدأ كتابه بالقول .. «إن حديثه عن مصر سيطول نظرا لكثرة ما تحمله أرضها من عجائب المخلوقات ، ومن البدائع والروائع وسائر الفنون والصناعات ..»

وقام فى ذات الفترة منتون المؤرخ المصرى بتسجيل حياتها .

ويبقى التاريخ محفوظاً ، يجهل بعض جوانبه حتى أصحابه ، إلى أن اكتشف شامبليون حجر رشيد ، فى رحلة علمية جسورة تسلحت بالإدراك والخيال ، قادت إلى سر اللغة الهيروغليفية ومعرفة أبجديتها ، فأزاح الستار عن فجر التاريخ الانسانى ، وقاد المؤرخين الى ينابيع لا

تنضب من المعرفة التاريخية ، ومهد الطريق الى عالم التاريخ المصرى الرحيب .

مصر القبطية

وتمر الأيام ، وتمضى العصور ، ويدون الرهبان تاريخ مصر المسيحية فى مدوناتهم ، وينقل شفيق غربال عن مؤرخ مصر المسيحية، «كارنا سك» قوله : «إن المسيحية قد لاء مت فى مصر بين خصائصها والخصائص الأساسية للدين المصرى القديم ، لمدى أوسع مما شهدناه فى أى بلد آخر ، فإن كان أكثر المصريين قد أصبحوا عند منتصف القرن الرابع مسيحيين ، فمرجع ذلك إلى أنهم خلقوا لأنفسهم دينا قوميا من المسيحية ، بأن طعّموا هذه الديانة ببقايا معتقداتهم القديمة وآمالها ...» ويضيف ..

«وأقامت مصر المسيحية كنيسة قومية ، وخلقت فنا جديدا وأداة لغوية جديدة ، ودونت تاريخها وسجلته ، وأصبحت الحضارة المصرية ذلك المزيج الفذ ، المسيحية المصرية ، وعندما ظهرت المسيحية دان لها الحكام البيزنطيون - حكام مصر فى ذلك الزمان - وبقى الحكام أجانب يسعون إلى فرض مذهب دينى مغاير ، وقاوم وانتصر المصريون ، فاحتفظوا بشخصيتهم ، وأقاموا صروح الفن واللغة» .

ومصر لا روما ولا أثينا كانت مصدر التشريع الكنسى للعالم

المسيحى ، وابتدعت مصر نظام الرهبنة الذى انتشر منها فى انحاء العالم .

وما من بلد أثر فى انتشار المسيحية كما فعلت مصر .

مؤرخو مصر الإسلامية

وبدخول مصر الاسلا.. ، اتسع الافق المصرى ، وامتد الى محيط دار الإسلام ، وظهر الانتماء الأوسع ، إلى منطقة أرحب ، وتحرر الإنسان من العبودية لغير الله الخالق .

وبرزت ظاهرة التدوين فى مصر الإسلامية ، وسبب ذلك أنها أقرب المراحل التاريخية للزمن الراهن أو لعله نتيجة رسوخ التدوين فى أرضها ، ويؤكد الدكتور كامل حسين فى كتابه «أدب مصر الإسلامية» .... «من أقدم المحفوظات العربية التى تضمها كافة المكتبات والمتاحف العالمية ، تلك التى كتبت فى مصر على ورق البردى ..»

وقائمة من أرَّخوا لمصر الإسلامية قائمة طويلة ، تكاد تسجل حياة مصر الاسلامية بكل تفاصيلها الحية ، وتضم هذه القائمة كلا من ابن عبد الحكم ، والكندى وابن زولاق ، والمسبحى ، والقضاعى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن اياس ، والجبرتى .

ولا يكاد يفوت أحدهم واقعة تاريخية أو حدث جلل ، الا وسجلها وكشف مكنونها ، ورصد نتائجها ، فى تتابع يثير الدهشة ، وشمل تسجيلهم كل شىء ، فمثلا يقدم الكندى سجلا وافيا عن قضاة مصر

ويسجل ابن زولاق انهيار الحكم الطولونى وقيام الدولة الأخشيدية ، ويؤرخ لانتقال مصر من الخلافة العباسية الى الخلافة الفاطمية ، ويكتب المسبحى سيرة الحاكم بأمر الله ، وبعدها يأتى مؤرخو مصر المملوكية ، ويسجل وقائعها كتّاب موسوعيون هم النويرى والعمرى والقلقشندى .

ويقوم كل من المقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن اياس ، بتدوين تاريخ مصر الاجتماعى ، يمزجون فيه بين اخبار العامة والدهماء مع سير الملوك والحكام ، وتظفر من خلالهم بتاريخ القرن التاسع الهجرى ، فى صورة حية متصلة ، تحكيه المشاهدة ، وترك لنا ابن إياس المشاهد الدامية لخضوع مصر للعثمانيين ، ثم يأتى عبد الرحمن الجبرتى راصدا الحملة الفرنسية وأعمالها ، وبداية عصر محمد على ..

وتقف هذه الأعمال التاريخية الضخمة لتشكل منهلا لكل باحث شغوف بتاريخ مصر ، وقد قدم الكاتب الكبير عبد الله عنان أعمالهم فى كتاب مهم هو ، «مؤرخو مصر الاسلامية» ، ولاحظ الكاتب الكبير فى هذه الأعمال قدرة مصر الخلاقة على التفاعل مع من حولها مع الاحتفاظ بخصوصيتها ، فقد عني مؤرخو مصر الاسلامية بتدوين تاريخ مصر قبل غيره .

ويقول المقريزى فى مقدمة كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» :

«كانت مصر هى مسقط رأسي ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ،

ومغنى عشيرتي وحاميتي، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجوى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى ، فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، مازلت مذ شذوت العلم وأتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ..»

وتظهر عاطفة ابن اياس الفياضة فى وصفه لمحنة سقوط مصر فى يد العثمانيين فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ويصور بقلمه هزيمة جيش مصر بقوله : «أشيع خبر الكائنة العظيمة التى لمت وعمت وزلزلت .. وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر ، فكأنه لم يكن .. وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الامراء والأعيان الذين قتلوا ، وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء .. ورجت القاهرة، وضجت الناس ، واضطربت الأحوال ... وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وهتكا ونهبا ، ودامت المذبحة الهائلة أياما أربعة ...» وهى .. «المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، وكانت الجثث فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة ...».

ويحكى بكلمات دامية اعدام السلطان بقوله ..

«صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ،

ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ..

لهفي على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لم يذكرا

التغير والاستمرار

إن هذا العرض يؤكد ان تاريخ مصر وحدة متكاملة ، ورواية متصلة ذات فصول ، بطلها الشعب المصرى ، وتاريخها المدون يؤكد على مذاقها الخاص وخصوصية تاريخها ، ويمكن ملاحظة الوحدة الكامنة وراء كل مراحلها التاريخية ، ودورها الحضارى الفريد ، فلا تصدق على حضارة صفة الاستمرار كما تصدق على تاريخ مصر .

ويؤكد ذلك عباس العقاد في مقدمة كتابه عن سعد زغلول ، «إن المصريين أمة لها تاريخ قديم متصل ، والاخبار عنها متصلة ، وذاكرة الشعوب بأخبارها مشغولة ، العالم القديم والعالم الحديث كلاهما ومصر أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل ، وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه وتحافظ عليه» .

وكانت قوة هذه الحضارة تتلخص في قدرتها الدائمة على التفاعل مع ما حولها ، وفي التناغم الدائم بين مراحلها التاريخية المتعاقبة ، وهي على حد قول الدكتور جمال حمدان ، فرعونية بالجد ، ولكنها عربية بالأب .

وهي توشك أن تكون مركزاً مشتركا لثلاث دوائر مختلفة ، فهي قلب العالم العربي ، وواسطة العالم الإسلامي وحجر الزاوية في العالم

الافريقى ، وهى لا تجمع بين الأضداد ، ولكنها تجمع بين أطراف متعددة وجوانب خصبة تجعلها أمة وسطا .. «وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية تحمل رأسا أكثر من ضخم ..» .

وعالج قضية الاستمرار فى التاريخ المصرى عالمان كبيران ، شفيق غربال فى كتابه «تكوين مصر» ، الذى يعتمد على خلفيته التاريخية ، والدكتور جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر» ، والذى يعتمد على الجغرافية الواسعة .

ويتحدث شفيق غربال عن خصوصية تاريخ مصر بقوله .. «عندما نبحث عن مصر خلال كل العصور ، مصر التى تسمو فوق هاما الحقب والعصور ، نلاحظ أن التفاعل بين الاستمرار والتغيير هو ما التاريخ ، فما يبدو فى التاريخ مستمرا لا يخلو أبدا من تغير خطر دقيق، وما من انقلاب مهما كان فجائيا ومهما كان عنيفاً استطاع أن يقطع صلة الاستمرار بين الماضى والحاضر» ويضيف .. «الشخصية المصرية قابلة للتأثر والتأثير فيما تتصل به ، وبقيت لها خصائصها عندما اتصلت بشعوب العهد القديم وباليونانية والرومانية، (وقد حان الوقت لأن ننفذ الى صميم النفس المصرية من خلال فنها وأدبها وعاداتها ، ومن الناس من يرى اهمال تلك الايام ، ويلحقها بقصص الاستعمار ، مما يفرض على الكتاب واجب ان يصلوا بين أطوار

حضارة مصر ..» ، «والذاتية المصرية أكثر الوجوه استجابة لأثر البيئة الجغرافية ، فنلاحظ أن تطور مصر الاسلامية يجرى على نسق خاص بها ، يبين أن هذا الاتجاه كان في الوقت نفسه سريع التأثر بمبادىء الإسلام وبالحركات الاسلامية ، فتاريخ مصر سار وفق خطوط تختلف اختلافا بينا عما سار عليه تاريخ العراق أو تاريخ المغرب» .

ويجيب تاريخ مصر على العديد من التساؤلات المعاصرة ، فالتاريخ هو لسان الجغرافيا والتعبير الصادق عن البيئة والموقع ، ومن يبحث مثلا على أسس أمن مصر ، فسيجدها من وقائع التاريخ التى تؤكد .. أن طريق الشرق هو اتجاه الغزو على مر الأيام .

وأخيرا .. هل لكل هذا التاريخ المدون والمتصل من مغزى ، سوى مغزى واحد ، هو أن هذا المجتمع الذى يعيش على ضفاف النيل ، قدر له أن يلعب دورا حضاريا فى حياة البشر ، وبناء الحضارة .

فإذا أقعدته الظروف بعض الوقت ، فسرعان ما يقوم ويكمل رسالته .



لوحة، تسجل إحدى اللحظات التاريخية المهمة، عند دخول محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا فى القسطنطينية، وتحولت القسطنطينية إلى استانبول، والكنيسة إلى مسجد .

واللوحة معروضة بمتحف طوب قابى، ولم تعد آيا صوفيا اليوم كنيسة ولا مسجداً إنما متحف يفتح أبوابه للزائرين .

الفصل الخامس

استانبول

وكلمات الوداع «تصحبك السلامة»

فى داخل المتحف المسكون . فى استانبول ، هذه الرحلة .

فى المدينة التى شهدت تعاقب الحضارات ، والتحم فيها المحاربون ، وفاضت بالدماء وتعاقبت عليها الممالك والدول، والتقت الامبراطوريات القديمة والحديثة لقاء الصراع والدم والحديد .

ملتقى الشرق والغرب المدينه الوحيدة التى تتمدد فوق قارتى آسيا وأوروبا ..

بلد المساجد والقصور والقلاع التى استمرت ١٦ قرنا من الزمان عاصمة لأقوى الإمبراطوريات.

كانت القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وكانت الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية، وتقف الآن كسيرة القلب على تاريخها المتألق فلم تعد حتى عاصمة لتركيا.

يشدها تاريخها نحو الشرق، ويشدها حاضرها نحو الغرب..

على ظهر باخرة تقطع مضيق البوسفور شاهدت لوحة استانبول بما تضمه من قصور وقلاع ومساجد وآثار تاريخية . فكأنك ترى «بانوراما» لديكور سينمائى على شاطىء البوسفور، وانت أمام متحف تاريخى يسكنه البشر وتتعاقب على صفحاته ثلاث حضارات : الرومانية والبيزنطية والعثمانية .

الباخرة تشق طريقها بصوتها الرتيب عند الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا . فتلك هى البلدة الوحيدة التى ترتمى بين قارتين وتحمل هويتين

إحداهما أوروبية تشدها إلى الغرب والأخرى أسيوية تشدها إلى الشرق. وهذا الموقع المتميز كان سر المعارك الطاحنة التى قادها حولها الأباطرة والقياصرة والسلاطين.

بدأت الباخرة عند بحر مرمرة متجهة إلى البحر تخترق المياه الزرقاء والمشهد التاريخى بعظمته وجلاله ، ويزداد المشهد تألقا مع أشعة الشمس الذهبية التى تعطى المبانى العتيقة رونقا وحداثة، ويقود الباخرة قبطان ذو شوارب مفتولة وكأنه يقود أسطولا إلى البحار الواسعة ، وعليه كل مظاهر العظمة والتعالى ، ترددت فى أن أطلب إليه السماح بالصعود على ظهر الباخرة للتصوير وادهشتنى الاستجابة الودودة لما اطلب ، تقف الباخرة خلال رحلتها خمس عشرة مرة متنقلة على ضفتى البوسفور فى عرض يبلغ عند بحر مرمرة ٢٥٠٠ متر ويصل عند البحر الاسود إلى ٤٧٠٠ متر ، وترى خلالها قصر «ضولمة بغجة» الذى يشبه العقد على جيد البوسفور. وبعد فترة وجيزة نصل إلى قلعتى روميلى حصار واناضول حصار على ضفتى البوسفور وحولهما أغنى أحياء استانبول. فالجولة البحرية فى مضيق البوسفور وخليج القرن الذهبى تكشف مايميز البلدة وأحد أسرار جمالها وروحها الخاصة وهى امتدادها فوق البحر واليابسة عندما تتسع بها رقعة المياه فيشق الجانب الأوروبى القرن الذهبى بعمق خمسة أميال وحتى قلب قسمها الاوروبى، مما جعل الانتقال أيسر عن طريق الخطوط البحرية بين أطراف المدينة

المكتظة بالسكان والتى يزيد عدد سكانها عن الأربعة ملايين ، وترى من البحر المدينة وهى تنام – مثل روما – على تلال سبعة فوق كل منها أثر تاريخى..

ومن على ظهر الباخرة وقرب جسر غلطه على القرن الذهبى شاهدت أجمل مناظر استانبول وأكثرها جلالا ، قصر طوبقابى فوق التل الثانى والذى حكم منه سلاطين آل عثمان وهم يجلسون على عروش من ذهب ، وحوله المسجد الأزرق بمآذنه الست ، وإلى جواره آياصوفيا بلونه الليمونى وطرازه البيزنطى ومآذنه الأربع، وتتابعت مناظر المساجد والقصور التى تأخذ القلوب ويبلغ عدد مساجدها مايزيد على ٥٠٠ مسجد ، وتحكى المبانى التاريخية للمدينة دراما التاريخ، البزوغ والسقوط لأقوى الإمبراطوريات، الصراع الدامى بين الحضارات والإمبراطوريات وصراع الأقدار والأفكار ..

لنشات السمك المقلي

تنتقل العين لترى اللنشات الصغيرة على الشاطىء، وجوار الجسر كمحال لبيع السمك المقلى الذى تتلقفه الأيدى المكدودة من الحمالين الذين يحملون على ظهورهم البضائع ، وجوه مختلفة اللون والملامح غجر .. أسبان .. عرب .. أكراد.. خطوط الشخصية وأسلوب التعبير أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب ، يتجمعون فى الساحة أمام جسر غلطه مركز المدينة التجارى والسياحى ، خلفية الساحة أحد المساجد

التاريخية ، وحوله الحمام يلتقط الحب الذى يلقيه السياح ، وبجانبه الشاحنات الضخمة المتجهة إلى الميناء والعربات التى تجرها الدواب وأيضاً السيارات الأمريكية الفارهة ، كل ماحولك مزدحم وترى الفتيات التركيات بملابسهن الاوروبية إلى جوار السيدات القادمات من الأناضول محجبات مغطيات الرؤوس ، وتبدى بين الجموع عدد كبير من السياح قدموا ينقبون عن الحضارات المتعاقبة فى شوارع المدينة التى تتجاور بها الاضداد ..

ويحرص السياح على ارتياد الاسواق القديمة لطعمها الشرقى الخاص وطرازها التاريخى والقريبة من الساحة ، فهى أسواق مغطاة بالقباب لاتكاد تميزها عن أى سوق عربى، مضاءة بالليل والنهار محاطة بالمساجد ذات العمارة الاسلامية، ويصل إلى أذنيك من المقاهى والمحلات الموسيقى الشرقية التركية وكأنك فى حى الموسكى بالقاهرة.

ويزهد السياح فى الأسواق الحديثة التى لاتضارع على أية حال أسواق لندن أو باريس أو فينا، ويميزها أن أغلب منتجاتها صناعة تركية تسعى للوصول إلى مثيلتها الأوروبية .

وفى شوارع استانبول لايمكن أن تشعر أن هذه مدينة غربية الروح فى الملامح، وربما كان أول ما تلاحظه كثرة عدد ماسحى الأحذية ،صندوقهم المميز المحلى بالنحاس الأصفر وعلى جانبيه الأعلام التركية، و . كة المرور من حولك مزدحمة بالسيارات وكان الازدحام والفوضى

يكادان يوقفان المرور، وتنتشر في تركيا المنتجات التى جمعت فى مصانعها مثل «الفيات» و«الرينو»، وتشعر أن المواطن التركى معتز ومتحيز لاصله ولغته فمن العسير ان تلتقى بمن يعرف لغة أجنبية ، والجامعات تدرس كافة العلوم باللغة التركية ، وعندما تنتقل إلى حواف الشوارع الحديثة تسقط فى أحياء فقيرة بادية الإعياء، فعلى قدر ما تضم المدينة من أغنياء تعدت ثرواتهم المليون ليرة والذين يقطنون حى بابيك على ضفاف البوسفور أو يعشيون في الجزر الأربع لبحر مرمرة توجد أعداد غفيرة من الذين طحنهم الفقر والقادمين من الأناضول يبحثون عن فرص العمل ، أو الواقفين ينتظرون تأشيرات للعمل في دول أوروبا الغربية .

مدينة الهيبيز

ولعل طعم العصور الوسطى الذى يلقى بظلاله على بيوت وقصور المدينة جعلها المفضلة ، ولعل شرقيتها أدت إلى أن يعشقها السياح الشباب، فداخلها يشعرون بالإفلات من قبضة الحضارة الغربية والانعتاق من ماديات المجتمع الغربى وقيمه ، فيقفون طويلا أمام تلك البيوت الخشبية متعددة الطوابق بطرازها البديع والبسيط وبمشربياتها الشرقية، والأرابيسك الذى يغطى شرفاتها . ويعشقون الحمام التركى الذى مازال يحتل مكانته فى حياة المدينة وهو الحمام التركى الذى يدار هذه الأيام بوسائل حديثة وطبية.

وتسعى سلطات المدينة بكل الوسائل لوضع الحواجز أمام الأوروبيين الحفاة الذين يزحمون شوارعها وينشرون الحشيش والمارجوانا ويناموم حول الآثار التاريخية . ولا يكادون ينفقون شيئاً، وخاصة والمدينة تخنقها الأزمات من كل نوع؛ أزمة إسكان طاحنة ويكفى أن تعرف أن الإيجار الشهرى لمسكن متوسط فى استانبول يبلغ ٢٠٠٠ ليرة، وإيجار قصر يطل على البوسفور خلال شهور الصيف الثلاثة يبلغ نصف مليون ليرة ، وتعانى من البطالة بعد وضع القيود على الهجرة إلى الدول الأوروبية وبعد أن وصل عدد العمال الأتراك فى ألمانيا وحدها مايزيد على مليون عامل تركى، وأزمة الانتقال بين أحيائها وتلالها ومياهها مع صعوبة إزالة البيوت الأثرية مما يضع صعوبات كبيرة أمام تجديد شبكات التليفونات والكهرباء والمياه، وكل هذه المشاكل أمام لجنة من الخبراء والأساتذة تبحث مستقبل المدينة وحل مشاكلها فى إطار استانبول الكبرى التى تضم ٣٤ بلدة ، كما قال لى عمدة المدينة - وقد قررت اللجنة إقامة شبكة من الأنفاق والطرق العلوية لحل مشاكل النقل بين أطراف المدينة ، وهناك عروض من كل من فرنسا وألمانيا لإقامة هذه الشبكة ويضيف عمدة استانبول قائلا:

«لا أحد يعرف على وجه الدقة متى يبدأ هذا المشروع أو متى ينتهى، فحتى إيران وهى لا تعانى من مشاكلنا الاقتصادية تقدر مشروع الأنفاق بطهران بمدة عشر سنوات».

وقال مرافقى وعلامات الحزن فى عينيه :

«رغم ان العاصمة قد انتقلت عام ١٩٢٣ من استانبول إلى أنقرة وسط الأناضول ، بعد أن بقيت ١٦ قرنا من الزمان عاصمة مهمة ، إلا أنها مازالت تعيش ماضيها المتألق وذكريات مجدها الغابر وظلت قلب تركيا الثقافي والاقتصادي، وبوابتها التي تمر عبرها أغلب الصادرات والواردات».

واستانبول التي لم تعد اليوم حتى عاصمة تركيا ، كانت القسطنطينية وكانت تسمى بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، التي تقوم على حدود سوريا وبينها وبين العرب المسلمين حروب طويلة ، وكانت عاصمة لإمبراطورية استمرت لمدة تصل إلى أحد عشر قرنا ، ثم أصبحت لأكثر من أربعة قرون عاصمة الدولة العثمانية.

والقسطنطينية كانت تنافس روما ، وتقع مثل روما على سبعة تلال وأعطاها موقعها الاستراتيجي أهمية خاصة، فهي تطل على ممر مائي يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود، عند نقطة تضيق عندها القناة التي تفصل أوروبا عن آسيا ، وورثت الدولة العثمانية الدولة الرومانية الشرقية وسيطرت على أراضيها في أوروبا.

وتعالوا ننصت سويا لما يقوله تشرشل رئيس وزراء بريطانيا فيما بعد خلال معركة جاليبولي خلال الحرب العالمية الأولى .. «فكروا بما تمثله القسطنطينية شرقا ، إنها تفوق في أهميتها الاستراتيجية كلاً من لندن وباريس وبرلين ، فهي تسيطر على الشرق، وتأملوا بما سيعنيه لكم سقوطها ..»

استانبول الإسلامية

لننتقل الآن لقراءة جديدة فى آثار استانبول الإسلامية التى تكاد لا تضارعها مدينة أخرى، فقد جلب سلاطين آل عثمان عندما كانت الأستانة عاصمة الخلافة الإسلامية كل الآثار الاسلامية المهمة إليها ...

من علامات استانبول تلك القلعة الشامخة رمز النصر الإسلامى، تقف بجلال بأسوارها العالية وأبراجها على البوسفور تعكس الصراع التاريخى الذى شهدته استانبول، وهو المشهد الذى اختير على طوابع البريد التركية، الصمت عميق والسكون له صوت قادم من الماضى البعيد، وعند أضيق نقطة على المضيق تقف قلعتان على ضفتى البوسفور هما : روميلى حصار وأناضول حصار، القلعتان وزرقة البوسفور تتناغم مع المكان وتنقلك إلى العصور الوسطى، ولا يعيدك إلى العصر الحالى سوى ظهور إحدى البواخر الضخمة مخترقة البوسفور، وهاتان القلعتان من أهم الأعمال العسكرية التى شهدها العصر الذى أقيمتا فيه، وقد أقيمتا تمهيدا لفتح القسطنطينية ولإحكام الحصار حولها ومنع المساعدات الخارجية من الوصول إلى سكان المدينة المحاصرين، وأقام قلعة أناضول حصار السلطان بايزيد وأقام السلطان محمد قلعة روميلى حصار.

القلعة والمكان من حولها يرويان أهم فصول الصراع بين الشرق والغرب..

كانت القسطنطينية هدفا لمحاولتين إسلاميتين قادمتين من الشرق ، أولاهما عام ٤٨ هجرية عندما جهز معاوية بن أبى سفيان جيشا لفتحها بقيادة سفيان بن عوف وخرج معه الصحابى عبد الله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصارى ، وتحطمت الحملة على أبواب القسطنطينية ولقى الصحابى أبو أيوب الأنصارى حتفه على أسوارها ، والمحاولة التالية فى عهد سليمان بن عبد الملك عندما أخفقت حملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان ...

وبعد قيام دولة آل عثمان كان استقرارها يمر بالقسطنطينية ذات الموقع والأهمية الاستراتيجية . وهى مركز المسيحية الشرقية ومعقلها الأخير فى شرق أوروبا ، وكان العثمانيون فى عنفوانهم ولديهم قيادة شابة طموحة ، وراء ها انتصارات حاسمة وسريعة .

وقاومت المدينة مقاومة عنيدة يساعدها شجاعة امبراطورها قسطنطين الذى كان عنيدا باسلا فى دفاعه عن عرشه ودينه ، ويكفى أنه قتل عند أسوارها خلال دفاعه عنها .. ووقف المؤرخون طويلا أمام فتح القسطنطينية فيرى المؤرخ «جيبون» فى مؤلفه «قيام وسقوط الإمبراطورية الرومانية» ان العداء بين الكنيستين الشرقية والغربية من أهم أسباب انهيار الإمبراطورية البيزنطية ، ويروى كيف قال الوزير الأول حين كان العثمانيون على أبواب القسطنطينية ، إنه يفضل أن يرى فى شوارع المدينة عمامة «محمد» على تاج البابا أو قلنسوة الكاردينال..

وهذا مايحدث دائماً عندما نكون أمام دولة آيلة للسقوط ، وها هو الشاعر الإيطالى بترارك يعبر عن نفس الموقف بقوله «العثمانيون ليسوا سوى أعداء لنا، أما اليونانيون فهم أكثر من كونهم أعداء» العثمانيون يكرهوننا ويخشون بأسنا إلى حد ما ، أما اليونانيون فهم يكرهوننا ويخشوننا بكل جوارحهم».

الا يذكرنا هذا الموقف التاريخى بموقف مشابه اتخذه المسلمون فى الاندلس عندما عجزوا عن توحيد قواهم فى مواجهة الأعداء، وأليس هذا أيضاً يشابه الموقف الراهن فى الوطن العربى عندما يتردد العرب فى توحيد قواهم أمام الغزو الصهيونى ...

ويلاحظ أن قرن سقوط القسطنطينية هو ذاته قرن سقوط الأندلس.

الحكمة المقدسة

ولننتقل إلى أثر تاريخى بيزنطى آخر يكمل القصة، إلى أياصوفيا بلونها الليمونى وتاريخها الفريد ، والتى كانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا.

شهدت آياصوفيا الفصل الأخير فى حياة الدولة البيزنطية ، فلقد بذل قسطنطين قصارى جهده للحصول على دعم العالم المسيحى وتوحيده فى مواجهة العثمانيين ، وأخيراً استجاب بابا روما ووعد بمساعدة قسطنطين شريطة خضوع الكنيسة الشرقية لبابا روما ، واستسلم قسطنطين وأقيم فى كنيسة آياصوفيا قداس برئاسة

الإمبراطور، وأعلن توحيد الكنيستين ، فى ذات الوقت الذى تدك فيه مدافع السلطان محمد أسوار البلدة ، وترك هذا العمل - الذى جاء بعد فوات الأوان - شعورا عميقا لسكان البلدة أن البابا استغل الظروف لتحقيق مآربه ، وقاوم اليونانيون سيطرة البابا ومدافع السلطان محمد فى آن واحد حتى سقطت المدينة. ودخلها محمد الفاتح على صهوة جواده وعندما وصل إلى كنيسة آياصوفيا ووجد أحد جنوده يضرب بسيفه قاعدة رخامية، نهره معلنا تحويلها إلى مسجد بعد أن أقام لها أربع مآذن..

طوبقابي

وإلى جانب القلعة والسور وآياصوفيا أقام محمد الفاتح قصرا مهيبا على التل الثانى هو قصر طوبقابي يثبت به العثمانيون أن لديهم إلى جانب الأمجاد إضافة حضارية وفنية ذات أصول عربية وفارسية شرقية .

أخذ مرافقي يشرح قائلاً : «كان قصر طوبقابى مقر حكم آل عثمان لفترة طويلة ، وحوله بيوت الوزراء والأصدقاء والعسكر، وإلى هذا المكان كانت تفد البعثات الدبلوماسية من كل أنحاء العالم ، وتحول القصر الآن إلى متحف يضم مجموعة من أهم الآثار الإسلامية ، ويضم كافة آثار الدولة العثمانية ، وبه مقتنيات من كافة أنحاء العالم الإسلامى، ويحتوى على عرش فارس الذهبى ، وأهم ما يحتويه «الأمانات المقدسة» والتى نقلت إليه من القاهرة».

وتشمل الأمانات المقدسة مصحف عثمان أول مصحف مدون بالخط الكوفى، وبردة النبى التى أهداها إلى الشاعر كعب بن زهير عندما ألقى قصيدته «بانت سعاد» بين يديه عليه الصلاة والسلام، وهى البردة التى حاول معاوية شراءها من كعب بعشرة آلاف درهم فأبى ، ثم باعها أولاده بعشرين ألف درهم ، وتضم الأمانات المقدسة أيضاً شعرة من لحية النبى، وعصاه المصنوعة من خشب البامبو وسيف عمر ، وكان سلاطين آل عثمان يتبركون بها ويضعونها فى صندوق خشبى خلف عروشهم ، كما يضم طوبقابى رسالة الرسول إلى المقوقس عظيم قبط مصر والتى عثر عليها بارشليه الفرنسى فى دير مصرى فأهداها للسلطان عبد المجيد ، وتمثل هذه الأمانات المقدسة شعائر الخلافة الإسلامية ، بعد أن فتح سليم مصر أخذ معه كثيرا من العمال المهرة والأشياء الثمينة.

وجاءنى صوت مرافقة ، قائلا : ان لدينا مثلا يقول «نزل القرآن فى الأراضى المقدسة، وقرىء فى مصر وحفظ فى استانبول..»

وهنا يحيطك الفن الإسلامى من كل جانب! اللوحات الفارسية والتركية والعربية ، أعداد كبيرة من اللآلىء المحلى بها الخناجر والعروش، ويظهر الفن الإسلامى بخطوطه العربية فى النقوش ذات الوحدة الأساسية التى تكونت فى الشرق ، وتظهر فى العمارة والموسيقى والأبسطة والقباب، تسمعها وتلمسها وتتذوقها فى كل وحدة من الفن الإسلامى.

ويرتاد المتحف المسلمون من كل أنحاء العالم ، ويقف السياح الذين لايخفون إعجابهم بمقتنياته، وقد صور داخله أحد الافلام الامريكية المعروفة لتنقل الكاميرا كنوزه من خلال قصة عصابة تسعى إلى سرقة ماسة ضخمة من المتحف.

جسر إلى أوروبا .. أم للعودة إلى آسيا ؟

انتقلت سيرا على الأقدام بين أوروبا وآسيا فوق جسر البوسفور ولفحة هواء الصباح القادم من الشمال تنعشني ، عدد هائل من السيارات ينساب من آسيا إلى أوروبا وبالعكس ، أمشى فوق اشهر جسر فى العالم، فهو الوحيد الذى يربط بين قارتين ، وهو رابع أطول جسر فى العالم، ويشبه إلى حد كبير الجسر الذهبى فى سان فرانسيسكو والجسر المقام فوق خليج بريستول فى ويلز البريطانية.

وهذه ليست المرة الأولى التى صافحت فيها أوروبا آسيا فقد سبق لملك الفرس داريوس أن ربط بين القارتين عن طريق البواخر التى اصطفت إلى جوار بعضها وأحكم ربطها ، وعبر عليها ٧ آلاف من رجاله إلى أوروبا فى القرن السادس ق.م.

وهذا الجسر عمل هندسى كبير يرتفع فوق سطح الماء ٦٤ مترا ليسمح بمرور أعلى البواخر وأكبر الناقلات ، ومن فوقه يمكن رصد وحصر البواخر والقطع البحرية الروسية التى تتجه نحو المياه الدافئة، والجسر جزء من «اتوستراد» بين آسيا وأوروبا، وبلغت تكاليفه ٣٤

مليون دولار وأقيم فوق المضيق عندما يبلغ اتساعه ٣٥٤٢ قدما ، ولم يحل الجسر إلى «التقاعد» تلك البواخر التى تنقل أبناء استانبول وسياراتهم وبضائعهم بين أحياء المدينة الموزعة بين القارتين، والإقبال عليها كبير، ربما بسبب العشر ليرات التى تدفعها السيارة التى تعبر الجسر ، وهى غالباً ما تكون الوسيلة الأرخص والأسرع للنقل .

وفوق الجسر لا تستطيع أن توقف سؤالا ملحا .. هل هذا الجسر من أجل اندفاع تركى نهائى نحو الغرب أم لعودة تركيا نحو شاطئها الآسيوى الشرقى ..؟

فانتماء تركيا وجذوره وأبعاده التاريخية والثقافية هى القضية التى تطرح نفسها بإلحاح على زائر استانبول ، فبقدر مايصبح انتماء لندن أو طوكيو أو القاهرة مسألة بديهية ، نجد هذه البديهية محور صراع وحوار بين الحضارات فى طراز المبانى وأسلوب الحياة ، فرغم وضوح بصمات الشرق فى مقر الخلافة الاسلامية التى استمرت خمسة قرون ، فإن الموقف الرسمى يتنكر لذلك ، فبعد أن كانت الدولة العثمانية تشمل ٢٠ مليون كيلومتر مربع وتضم ٩٥٪ من الدول العربية ، وكانت هذه الدولة التعبير عن الحضارة الإسلامية بروافدها العربية والفارسية والتركية، أدارت تركيا ظهرها للشرق واتجهت إلى الغرب، فتركيا الحديثة قامت كنقيض للدولة العثمانية الإسلامية فى رحلة طويلة ومريرة.

وقد استقبلت تركيا الحديثة بحفاوة وترحيب من المستشرقين الغربيين باعتبارها أقوى حركة تحديث بين الدول الشرقية الإسلامية ، وبعد أن سعت تركيا الكمالية إلى تقليد الليبرالية الغربية فى كافة التفاصيل حتى فى استبدال القبعة بالطربوش ..

والتجربة التركية الراهنة أثبتت أن هذه الأسئلة مازالت قائمة.

فإذا كانت الدولة العثمانية قد انتهت ، فهل قامت حقا تركيا العلمانية الجديدة..؟

وهل يمكن تحويل مجتمع شرقى إلى مجتمع غربى بتغيير الازياء وحروف الكتابة ، وتحويل الاجازة إلى الأحد بدلا من الجمعة، وأن يتم هذا بسلطان القانون..؟

وهل تركيا طائر يغرد فى غير سربه، وهل يتعامل معها الحلفاء الغربيون كند لهم..؟

قفزت هذه الأسئلة إلى ذهنى وأنا أسير على جسر البوسفور وأتطلع إلى أجمل الآثار الإسلامية، وأحاور رفيقى حول هذه القضية .

ولنبدأ القصة من أولها ، فمنذ قيام الدولة العثمانية وحتى اندحارها وهى فى صدام مع الغرب، فالأتراك كانوا قوة عسكرية تقدمت فى لحظة تاريخية لصد الغزو الخارجى عن العالم الإسلامي، ثم دفع الغزاة إلى وراء حدودهم، وقد ظهروا على المسرح السياسى قادمين من آسيا الوسطى، وأول وفادتهم كانوا جنودا سرعان ما سيطروا على قيادة

الجيوش الإسلامية، فبعد ان توقفت الفتوحات العربية عند جبال طوروس لتصبح الفاصل بين البلاد الإسلامية وبقية العالم ، نجح الأتراك فى تخطى جبال طوروس، وأضافوا للتاريخ الإسلامى تراثا من العسكرية والانتصارات الحربية، بعد أن كان العالم الإسلامى على وشك الوقوع بين فكي كماشة أحد طرفيها البرتغاليون فى البحر من الجنوب الشرقي وبين قواعدهم فى شبه القارة الهندية، والطرف الآخر كان زحف الروس من الشمال، وأوقف العثمانيون عمل الكماشة، وحفظوا للإسلام البحرين الأسود والأحمر.

وبقيت الحقيقة الرئيسية فى تاريخ المجتمع الإسلامى أن الدولة العثمانية حفظت لهذه المجتمعات مقوماتها الرئيسية ووحدتها ودافعت عنها ضد الغزو الغربى لـ ـرة طويلة من الزمن، وفى نفس الوقت كانت الدولة العثمانية مسئولة عن ضعف الحياة الفكرية ونمو النقل وروح المحافظة وانكماش روح الابتكار والخلق ، وما بدا من مظاهر ضعف الحياة الفكرية وزحف التصوف على الحياة الاجتماعية وتدهوره من فلسفة إلى دروشة، وإهمال العلوم العقلية ..

وكانت الدولة العثمانية آخر وأطول الدول الإسلامية العالمية التى حكمت الشرق منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وفى هذه الدولة كان ولاء المسلمين الأساسى للإسلام وللدولة التى تجسد واقعه السياسى، وعلى هذا النحو سار المواطنون العرب رغم اختلاف اللغة ، وقدم العرب للدولة

العثمانية نظاماً اجتماعياً كاملا مستمدا من الشريعة الإسلامية ، وإن كان هذا النظام قد جمد تماماً مع مرور الزمن ، وأصبح لا يخدم حاجات المجتمع، بعد أن أغلق باب الاجتهاد فأغلق باب التقدم ، وتحولت الدولة العثمانية إلى وحدة سياسية واقتصادية وفكرية منعزلة ليست محور النشاط العالمي في السياسة أو الاقتصاد بل دخلت في عزلة سياسية واقتصادية وفكرية استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر. وهذه الوحدة أكسبت العالم الإسلامي نوعا من الاستقرار النسبي.

وشن «الغرب» هجوماً مضادا على جبهة عريضة شملت من أسبانيا إلى فلسطين، ومن قارة افريقيا إلى آسيا، و«الغرب» هنا ليس تعبير جغرافيا بل كيانا ثقافيا واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً، وبدأ الانحدا عندما أصيبت الدولة العثمانية بهزائم في ميدان القتال وفقدت أراضيها، وبدأ الأمر بحصار فيينا الثاني عام ١٦٨٣، واستمر التراجع طيلة القرن الثامن عشر ، واندلعت الثورات في الكثير من أرجاء الإمبراطورية ، بسبب إصرار العثمانيين على أساليبهم ، وبعد نجاح الثورات في دول البلقان، مما دفع العثمانيين إلى تعزيز سلطتهم وزيادة قبضتهم المركزية خوفاً من استيلاء الروس على ممتلكاتهم ، وقام العثمانيون بإخضاع الإمارات والسناجق ذات الحكم الذاتي ، والمنتشرة في مختلف انحاء إمبراطوريتهم. وتم في أواخر القرن الثامن عشر استيلاء الروس على الشاطئ الشمالي والشرقي للبحر الأسود.

وكما يحدث عادة بعد الهزائم تفقد الأمة المهزومة الثقة بنفسها وتتطلع إلى المنتصر ، فتطلع الجيش العثمانى المهزوم إلى أسلوب التدريب والتسلح الغربى ، وقبل للمرة الأولى الشباب أن يكون موجهوهم ومعلموهم من الغربيين، ولأول مرة يتعلمون لغة الغرب ويطلعون على كتبه، ولم تعد اللغة الأجنبية رطانة بل أصبحت مفتاحاً للمعلومات الأساسية لدولة عسكرية يقوم فيها الجيش بالدور الرئيسى.

وربما كانت التأثيرات الغربية ضرورية ولكنها جاء ت فى فترة من الضياع والفوضى كانت شديدة الضرر بالمجتمع والنظام السائد.

فعقب الهزائم المتلاحقة تلفت الأتراك يبحثون فى تاريخهم وفى ذواتهم ، وهم يشاهدون خريطة دولتهم تتقلص ، وكان الملاذ فى الحركة القومية التركية، فى فترة كانت الحركات القومية فى أوروبا فى أوجها، وبدأ ذلك فى الأدب فبدلا من النماذج الفارسية والعربية بدأ اتجاه تقليد النماذج الأوروبية ، وسعت دراسات المستشرقين إلى إثبات أن الأتراك من العرق الأبيض مثل شعوب أوروبا وينتمون إلى العرق «الطورانى - الآرى». فبعد أن كان الأتراك لايعتنقون أية هوية أخرى غير الإسلام ، ساعد المستشرقون على إحياء انتماء جديد وقومية كانت منسية، تقوم كبديل وليس كمكمل للانتماء الثقافى والحضارى للشعب التركى.

ووجد دائماً من يقاوم ذلك فمثلا انتقد على سوافى اقتراحا يطلب أن يتبنى الباب العالى فكرة القومية مثل ايطاليا وبروسيا وبيّن سوافى

أن القومية فى أوروبا تعنى شيئا مختلفا «فليس لدينا مشكلة قومية ، والمشاكل القومية تقود لدمارنا ، وقضية توحيد المسلمين إسلامية وليست قومية ...» واشترك فى الحملة على القومية الشاعر التركى محمد عاكف. الذى قال: «ان ملتكم هى الاسلام فما هذه القومية القبلية، هل العرب أفضل من الترك أو أن اللاظ أفضل من الكرد أو الشركس، أم أن الفرس أفضل من أبناء الصين ، ماذا دهاكم ..؟ هل تبغون إلى تقسيم الإسلام إلى أقسام متعددة ، وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب، والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى وساعدهم الأيمن ، ما هو هذا الهدف الشرير.»

وفى هذه المرحلة كانت الحركة القومية تعنى تفكك الدولة العثمانية التى تضم العديد من القوميات ، واستمرت حركة تخليص الفكر وآدا، من المؤثرات الفارسية والعربية.

ومن هذا العرض نتبين كيف خرجت القومية التركية من ركام إمبراطورية منهارة ، ووجد فيها الأتراك ملاذهم ..؟ وكيف تداخل «التغريب» مع «التتريك»..؟

في قصر يلدز

وفى مقابل قصر «ضولمة بغجة» على ربوة عالية وبين الحدائق الخضراء، يقع قصر يلدز الذى قضى به السلطان عبد الحميد آخر أيامه معزولاً بعد أن شهد حكمه ذروة الصراع وإرهاصات التغيير.

وفى هذا القصر كتب مذكراته التى يسرد خلالها الضغوط التى تعرضت لها الدولة العثمانية، والضغط الغربى العسكرى والسياسى والثقافى ودور الأقليات المختلفة فى انهيار حكمه .. يقول السلطان عبد الحميد «إنه ورث دولة ضعيفة محاطة بالأعداء ، وأخذت أنتظر قرابة أربعين عاما فرصة الحرب العالمية لأستغلها فى إنقاذ الدولة» فبدلا من أن يسلك طريق الإصلاح والتغيير لمواجهة التحديات وضع أمله فى الزمن واحتمالات إضعاف أعدائه عن طريق صراعهم ، وخلال فترة الانتظار عمل أعداؤه، وقام هو بإنشاء شبكات التجسس وشيوع الجو البوليسى وبدأ النفى والاعتقال ، وما يؤدى اليه الاستبداد من فساد . ويدافع عن نفسه قائلاً: «يزعمون أنى أعيش داخل الوهم والخوف، وأتصور البرغوث جملا، فكما انى أراعى ألا أكون تحت سيطرة الوهم فكذلك أراعى ألا أكون غافلا. فالغفلة تؤدى إلى أذى يفوق ما يؤدى إليه الوهم، وقد يكون الناس أيام سلطنتى لم يتمكنوا من الثرثرة الكبيرة..»

وكان يدرك المخاطر التى تحيط بدولته ولكنه لم يحرك ساكنا لمواجهتها واكتفى بالانتظار «العثمانيون الجدد وتركيا الفتاة كانوا يؤازرون جميعهم من الدول الكبرى، وعندما ينفذون ما تشتهيه الدول الكبرى، فهذا معناه نهاية الدولة العثمانية...» ويضيف: «سقطت الدولة العثمانية أمام الهزائم التى لحقت بالجيش الذى استدار ليخلع السلطان...»

«والذين تملكوا زمام الحكم من بعدى ، أزالوا الخلاف بين العناصر المعادية ، وأوجدوا الشقاق بين العناصر التى تقف بجوارنا وتؤيدنا ..»

وقال كلمته المشهورة «إنهم لم يهدموا عبد الحميد.. هاهم هدموا الدولة العثمانية..»

لقد كان السلطان عبد الحميديعرف جيداً المخاطر ويعرف جيدا ما الذى عليه أن يتجنبه، ولكنه لم يعرف أبدا ، ما الذى عليه أن يفعله، وعمل خصومه وانتظر هو .. حتى انهارت دولته..

أتاتورك ..

فى ميدان فسيح فى قلب الحى الحديث تمثال ضخم للاستقلال وبطله مصطفى كمال ، يحيط بالتمثال الفنادق العالمية الحديثة والمحلات الكبرى، ويتوافد المواطنون الأتراك فى ١٠ نوفمبر من كل عام إلى هذا المكان يحملون الورود فى ذكرى وفاة بطلهم القومى ...

والتمثال الواقع وسط استانبول يروى قصة قيام تركيا الحديثة ويحكى فى الوقت نفسه الفصل الأخير لرجل أوروبا المريض وكيف انتهت المسألة الشرقية ، قال مرافقى وهو يتحدث عن مصطفى كمال بانفعال بالغ : لقد قاد تركيا لتعطى ظهرها لعالم الشرق وتوجهت إلى الغرب تستلهم منه القيم وصور التقدم وتحتذى نموذجه ، وبدأ عملية «التتريك» أو «التغريب» «لافرق».

حقا كانت تركيا وحدها بين القوى المغلوبة فى الحرب العالمية الأولى التى استطاعت إجلاء الاحتلال واستعادة سيادتها على أراضيها ، فقد أنقذ مصطفى كمال استقلال تركيا وفى نفس الوقت أذعن للشروط الغربية رغم انتصاره على اليونان ، وقاد الحركة الوطنية التركية فى ظروف صعبة عندما كانت عاجزة عن مواجهة مطامع الحلفاء المنتصرين، وسلم بحق الدول الكبرى فى التصرف فى الأقاليم غير التركية رافضا المساس بالأراضى التركية، وعندما بدأت اليونان – بتأييد من بريطانيا – أعمالها الحربية فى آسيا الصغرى تمكن مصطفى كمال من إلحاق الهزيمة بالجيش اليونانى .

ومن اللافت للنظر والذى لم يعطه المؤرخون اهتمامهم أن أهم حركات مقاومة التغريب والتى كانت فى الأناضول كانت بقيادة مصطفى كمال ، وكان شعار هذه الحركة «تحرير أرض الإسلام» و«تحرير الخليفة» و«طرد غزاة.» . وكان ضمن قادتها زعماء دينيون، وكانت حركة الدراويش أبرز المؤسسين وأقوى المساندين لحركة مصطفى كمال، ولعل علمانية وقومية الكمالية التى أعلنت فيما بعد قد حجبت هذه الحقبة فى حياة أتاتورك وطمست الطابع الإسلامى لحركة المقاومة التى كان يقودها فى مراحلها الأولى ..

فعندما أدرك «مصطفى كمال أن الغرب – بعد صراعه التاريخى والطويل مع الدولة العثمانية – يطالب تركيا بالعيش فى حدود أراضيها

وأن تدير ظهرها إلى آسيا وافريقيا ، وأن تعيش في كنفه، وأن تتخلى عن ارتباطها بالخلافة الإسلامية ، قرر أن يدفع هذا الثمن وينقذ ماتبقى من بلاده، وهو موقف مشابه لما حدث لليابان بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية ، فكان من الضرورى القضاء على مجموعة القيم والمفاهيم اليابانية التى حركت اليابان لتقاتل بعناد وجعلتها عملاقا يتمتع بقوة عسكرية أسطورية ، فقام القائد العسكرى الأمريكى ماك آرثر بعد انتصاره على رأس مجموعة من الأساتذة والخبراء فى علم النفس والاجتماع والتاريخ ليكمل انتصاره بوضع خطة عملية لاجتثاث تلك القيم والمفاهيم.

وسرعان ما تحول الكماليون من الدعوة الدينية إلى الدعوة القومية وقطعوا شوطا كبيرا في طريق التغريب ، وأعلن مصطفى كمال فى الجمعية التركية فى أكتوبر عام ١٩٢٣ تركيا العلمانية وقطع علاقة تركيا بالشرق الذى كان يمدها بالطموح ، وعاد الأتراك إلى الأناضول ، واكتفى بالتركية ولاء وانتماء ، وكان ذلك سهلا على القائد المنتصر..

● وفى مارس ١٩٢٤ اتخذ قرارا بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وإخراج السلطان عبد المجيد من البلاد، والذى أبقى عليه فترة من الوقت مراعيا لشعور المسلمين ولاسيما مسلمى الهند الذين يتطلعون إلى الخلافة باعتبارها الملاذ من سيطرة الغرب ، وسرعان ما تبين خطرها على تركيا الحديثة ، فالعالم الإسلامى كان واقعا تحت نفوذ الدول الأوروبية وكفاح هذه الشعوب يتطلب دعم الخلافة، الأمر الذى قد

يجر تركيا إلى الدخول فى مشاكل مع الدول الغربية ، وأصبح العالم الإسلامى لأول مرة بدون خليفة.

● وفى يونيو ١٩٢٥ حرمت جميع الطرق الصوفية ، وقرر تحويل مسجد آياصوفيا إلى متحف، وغيرت الحكومة التقويم الهجرى إلى التقويم الجريجورى الغربى ، واستبدلت العطلة الأحد بدلاً من الجمعة ، واستبدلت بالشريعة الإسلامية القانون السويسرى، والقبعة بالطربوش والحروف اللاتينية بالعربية ، وحذفت من مناهج التعليم اللغتان العربية والفارسية .. الخ.

وهنا نتساءل هل هذا حقا هو النموذج الغربى؟ هل هذا هو المنهج الذى تقوم عليه مظاهر التقدم فى الغرب ..؟ فمثلاً تقوم الحضارة الغربية على القيم الفردية ، وحق الفرد المطلق فى اختيار ملابسه، وأن إبطال لبس العمامة بالقانون يخالف مخالفة جوهرية تلك المفاهيم ، وإذا كان الغرب قد اختار يوم الأحد عطلة فذلك لأن المواطنين يذهبون إلى الكنيسة فى هذا اليوم، فلماذا يصبح يوم الأحد عطلة مجتمع اسلامى؟ وإذا أخذت تركيا بالنموذج الغربى فأجدر بها أن تختار من منابعها الحضارية الثلاثة العربية والفارسية والإسلامية كالحضارة الغربية التى لها منابع ثلاثة هى الرومانية والهيلينية والمسيحية، هذا إذا كان النموذج الغربى اختيا ثقافيا ولكنه هنا شرط سياسى يفرضه المنتصر على المغلوب!!

والآن ، ماذا يدور فى تركيا بعد خمسين عاما من التغريب..؟

النظرة الأولى فى استانبول تظهر وكأن الغرب نجح في إقامة الحواجز بين تركيا والشرق ، ولكن سرعان ما تدرك الصورة وما تحمله من متغيرات ..

المكان: بيت تركى أنيق لرجل أعمال فى شركة بترول يجتمع فيه عدد من المثقفين الأتراك، ربة البيت تجهد نفسها لإراحة الضيوف ، تثبت انتماءها إلى الشرق وتبدأ قراءة آيات من القرآن الكريم باعتزاز بالغ ، يتصت الجميع فى خشوع وتنهمر عيناها بالدموع ، ويظهر على الجميع التأثر الشديد ، كان الحوار يدور حول علاقة تركيا بالشرق ، ويمضى قائلاً : «إن ابنتى اسمها «إسراء» تقديرا للإسراء والمعراج، فربما فرقتنا السياسة، ولكن سيبقى التراث المشترك يجمعنا، وسيبقى شعورنا أننا عشنا أمجد أيام حياتنا ونحن جزء من الشرق ».

وروى أحد الحاضرين كيف استقبل الشعب التركى قرار الحكومة بإذاعة الأذان باللغة العربية، عندما خرج الشعب التركى مع الفجر عند سماعهم للأذان بالعربية وامتلأت المساجد .

ويصاحب هذا الموقف الوجدانى ، شعور عميق ناتج من تراكمات الأزمات الاقتصادية والسياسية، وخيبة أمل من الموقف الغربى خلال الأزمة القبرصية انعكس على سياسة تركيا من حلف الأطلنطى، وأيضاً من رفض دول السوق الأوروبية انضمامها إلى الوحدة الأوروبية.

وأخذت تظهر اتجاهات سياسية جديدة فى المجتمع التركى تلتقى فى رفض النموذج الغربى وفى تطلعها نحو الشرق.

احدهما : اتجاه إسلامى متزايد يطالب بعودة تركيا إلى تراثها وعقيدتها ، وظهر حزب إسلامى يعتمد على تيار جماهيرى متصاعد.

والثانى : يرفض النموذج الغربى والأساليب المتبعة فى مواجهة الأزمات ويتطلع إلى مايسمى بالعالم الثالث، متسائلين عن مصير المساعدات الاقتصادية وأثرها فى الاقتصاد التركى.

وشهدت تركيا عدة مؤتمرات إسلامية تعبيرا عن التغير فى الموقف الرسمى ونتيجة للقوة العربية الاقتصادية ، احدها مؤتمر حول السيرة النبوية، وآخر للغرف التجارية للدول الإسلامية ، وكان آخرها اجتماعا لوزراء الدول الإسلامية، عقدت جميعها فى استانبول.

وبعد : لقد قال الشاعر الفرنسى جيلليوس Gyllias منذ عدة قرون: «بعض المدن يمكن أن تموت، أما استانبول فستبقى ما بقى على الأرض بشر» تذكرت ذلك وعدد من الأصدقاء يودعنى بكلمات الوداع التركى «تصحبك الابتسامة» وكأنهم يخففون من أسى الرحيل ، وكيف لا يأسى من يغادر أجمل المدن .

إستانبول (٢)
الدولة العثمانية
هل هى فـــردوس مفقود
أم صورة للاستبداد..؟!

ليس الهدف من رحلة إستانبول مجرد زيارة أحد متاحف التاريخ، ولا هو مجرد حنين إلى جزء من الماضى، ولكن الهدف تأمل أحداث الماضى التى تمس الحاضر وتخاطب المستقبل، ولعلنا نستوعب الدرس.

ثمة ملاحظتان يجدر التأكيد عليهما منذ البداية:

لا يمكن أن ينظر إلى حقبة تاريخية تمتد إلى حوالى ستة قرون، بلا تفرقة بين صعودها وانهيارها، وبلا تفرقة بين السياسات التى كانت تحت ضغوط معينة ومن موقف العجز أمام المخططات الغربية وتلك الناتجة عن محصلة تياراتها، وإلا كان ذلك تبسيطا مخلا، وإحدى صور القولبة أو التعليب الذى لا تعرفه حقائق الحياة.

وفى عملية التعليب هذه تسقط جميع الأبعاد التى تمدنا بالمغزى الحقيقى والقيمة التاريخية، ويغيب عنا التتابع الزمنى، ونتعامل مع الدول العثمانية ككيان نهائى ثابت، ونتجاهل ما تتعرض له من تبديل..

والملاحظة الثانية.. أنه ليس مقبولا رؤية أحداث التاريخ من خلال صورة ذهنية حديثة، أى كما يجب أن تكون، لا كما هو كائن بالفعل،

وليس علميا تطبيق قيم جديدة على فترات تاريخية قديمة وإلا فإننا نلون الأحداث. ونقيم من عندنا علاقات ذهنية ليس لها أى ارتباط بالحقائق التاريخية..

واعترف أنى حملت طويلا صورة سلبية عن الأتراك وعن دور الدولة العثمانية، لعلها ترسبت في ذهني من خلال ما تلقيناه فى المدارس، وما قرأناه فى العديد من الكتب. وما شاهدناه من تمثيليات وأعمال مسرحية، وحتى ما سمعناه من نكت، عندما شاع فى كل هذه الأعمال السخرية من التركى، وتقديمه فى صورة المتعجرف. وتقديم الدولة العثمانية فى أحسن الأحوال فى صورة من ملكوا يوما القوة العسكرية ولكن بدون قلب ولا حضارة.

لذلك كانت دهشتى كبيرة عند زيارتى للمناطق التركية وسط آسيا التى كانت تابعة للاتحاد السوفييتى، الذى ينتمى حوالى ٧٥٪ من سكانه إلى الأتراك، ورأيت هناك آثار مجد تاريخي وحضارة مزدهرة، وتبينت أن أبرز مفكرى الحضارة الإسلامية من أصول تركية، مثل الفارابى والخوارزمى وابن سينا والإمام البخارى والفقيه النسفى.

وعند زيارتى لاستانبول ذلك المتحف المسكون ومشاهدتى لمساجدها وقصورها وعماراتها ومتاحفها وفنونها، تأكدت أن ما رأيته هو نتاج حضارة شرقية عريقة.

وربما ساهمت بالدور الأكبر فى تشويه صورة الدولة العثمانية، الكتابات الغربية التى أبرزت تناقضاتها وركزت على قصص الحريم

والخصيان ودسائس القصور، وأن مؤسسيها كانوا مجموعة من البدو البرابرة، وهذه الحملة هي نتاج طبيعي للصراع السياسي والصدام بين الشرق والغرب..

فمثلا نجد مؤرخا كبيراً مثل «أرنولد توينبي» يتساءل متعجبا.. كيف استمرت الدولة العثمانية ستة قرون وهي الدولة التي أقامها البدو القادمون من سهول آسيا الوسطى، والتي حكمت إمبراطورية ضخمة بقوة السلاح، والذين انتقلوا من رعاة الخيل إلى رعاة البشر؟!

ويرى أن استمرارها يتناقض بوضوح مع القاعدة التي توصل إليها من خلال استقرائه لتاريخ الحضارات، والتي تؤكد انهيار دولة البدو. مثلما حدث أيام إمبراطورية خانات المغول في إيران والعراق التي لم تستمر أكثر من ثمانين عاما.

ويتوصل إلى تفسير بأن نظام الانكشارية المحكم والقائم على استخدام الرقيق هو الذي ساهم في استمرار هذه الدولة وأنه عندما قضى السلطان محمود على هذا النظام عام ١٨٢٦م. بدأت الدولة تتصدع.. «وهو المصير الطبيعي لكلب الحراسة الذي انحرف وأصبح يؤذي الأغنام...»

ولكن المستشرق المؤرخ المعاصر «برنارد لويس» يخالفه ويدرك سر استمرار وقوة هذه الدولة حين يقول: «نشأ الإسلام في بلد صغير وبين شعب خرج حديثا من نطاق البداوة، فكان العامل المهم

فى قيام هذه الدولة..» ويؤكد على هذا التفسير عندما يورد رسالة بعثها «كوجه و بيك» إلى السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٠م يقول فيها: «إنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل، لم تكن هناك أية سلالة من الحكام أكثر ولاء واخلاصا للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أية منها احترام مبادئ الشريعة ورفعتها كما أبدى هؤلاء السلاطين».

ويصل «برنارد لويس» إلى نتيجة: «أن الأتراك الذين دخلوا القسطنطينية فاتحين، لم يكونوا البدائيين المتوحشين كما صورهم بعض كتاب الغرب بل كانوا حملة وورثة حضارة قديمة ورفيعة..»

وظلت نظرية البدو المتوحشين تتردد، بل وانتقلت إلى تركيا الحديثة التى قامت على أنقاض الدولة العثمانية والتى شنت هجوما عنيفا على الماضى العثمانى، ولم يكن غريباً أن تسود هذه النظرة الكثير من الكتابات العربية بلا تدقيق أو بحث.

تركة حزينة..

وترسبت صورة للتركى فى المخيلة العربية، يلقى الضوء عليها الأستاذ الألمانى الرخ هيرمان بقوله: «يدرك الجانبان العربى والتركى أن ما يحمله كل منهما للآخر من مشاعر ما هو إلا تركة حزينة، ولعل معرفة مكونات هذا الشعور تساهم فى إزالة الأثرين النفسى والتاريخى، إذا أريد للتضامن الإسلامى أن يقف على أرض صلبة،

وهو ناتج عن الطابع الازدرائى المتبادل نتيجة تعامل العرب مع شعب آخر يخشونه ولديهم شعور بالنقص تجاهه، ويفيض التراث العربى بنقد الترك، باستثناء قلة من الكتاب مثل ابن خلدون وأبى حامد القدسي، وكانت المشاعر الدفينة لباقى الكتاب تتضارب بين الشعور بالامتنان الذى يحملونه للأتراك كمجاهدين شجعان، والرفض التلقائى لهم كأجانب مغتصبين للسلطة من أبناء البلد!..» ويضيف «حتى لقد قام السخاوى بتحقير إنجاز زميله ابن تغرى بردى الذ: كان ابنا للمماليك الأتراك فقال عنه: «ماذا يمكن أن نتوقع م: تركى..؟!».

ويمضى شارحا.. «وفى أدبيات القرن التاسع الهجرى- الخامس عشر الميلادى نقرأ عبارة مثل، لقد كان شريرا وحشيا سفاك دماء ومخادعا، ويالها من مفاجأة، فقد كان أيضاً ضليعا فى الأدب العربى، وفنون أخرى متعددة، فلقد كان الإنتاج الأدبى بالتركية والفارسية والعربية، ولعل من أسباب ذلك الشعور بأن مصر والشام أصبحتا مقاطعتين هامشيتين من إمبراطورية مترامية الأطراف مركزها استانبول، ونقل الخليفة العباسى من القاهرة إليها..»

ويصل فى ختام بحثه: «فى الماضى بدأ الشعبان العربى والتركى يكتشفان مصالحهما المشتركة الكامنة فى العقيدة الإسلامية، وفى السياسات المناهضة للغرب، فالإسلام لا يعرف سوى الحقوق المتساوية لأولئك الذين يتمسكون به، والدراسة غير المتحيزة تساعد على الفهم الموضوعى لأحداث هذه المرحلة التاريخية».

ويكشف المستشرق الألمانى فى بحثه تلك الثغرات التى اعتمد عليها الغرب فى النفاذ والنيل من الدولة العثمانية، عندما نجح فى ضرب الوحدة القائمة بين العرب والفرس والترك، روافد وركائز الحضارة الإسلامية، معتمدا على موجات التنافر التى كانت تظهر بين وقت وآخر، وخاصة فى مراحل التدهور، ولا يستطيع أحد الادعاء بأن التناغم بين القوميات المختلفة كان قائما فى كل مراحل الدولة العثمانية الطامحة إلى العالمية والتى تضم العديد من القوميات.

ويرى المرء أن الزمن العثمانى الممتد عبر القرون، من الخامس عشر إلى التاسع عشر، وهو من أطول الفترات فى تاريخ الدول والأسر الحاكمة، بدأت بسيطرة عثمان بن أرطغل على السلطة فى منطقته عام ١٢٩٩م، وانتهت بسلطنة محمد السادس وحيد الدين عام ١٩٢٢م، وألغيت بعدها الخلافة فى عهد عبد المجيد الثانى عام ١٩٢٤ وجملتها ستة قرون وربع قرن، وهو عمر لم تبلغه دولة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث.

وهى ذاتها القرون الممتدة التى جرت فيها عملية النهوض الغربى وقعود وتدهور الشرق..

ويبقى السؤال: لماذا وكيف جرى ذلك..؟

المواقف المتعاكسة

نحن إذن أمام قضية حية ساخنة، تثير أكبر الجدل وأعنف المناقشات، فهى مشحونة بالمواقف العاطفية المتعاكسة.. يدافع عن الدولة العثمانية بحرارة أولئك الداعون إلى وحدة العالم الإسلامى، والذين ينظرون إليها كآخر تعبير عن الخلافة والوحدة الإسلامية، وينظرون إليها على أنها الفردوس المفقود.

ويتعاطف مع التاريخ العثمانى أصحاب اتجاه وحدة الشرق، سواء أكانت هذه الوحدة عربية أو إسلامية، والتى مازالت بالنسبة إليهم حلما قابلا للتحقيق، وأصحاب هذا الاتجاه على استعداد للتغاضى عن العديد من السلبيات!

ويرى فيها البعض هيمنة تركية على العرب، لا تثير لديهم سوى ذكريات وصور الاستبداد والتخلف والقهر القومى..

كما يلاحظ من جانب آخر تباين فى النظرة إلى الدولة العثمانية بين المغرب العربى والمشرق العربى، فينظر إليها أبناء المغرب نظرة تحمل الكثير من التقدير، فهى التى ساندت المغرب العربى فى مواجهة الغزو الأيبيرى، وقامت بدور الحامية لأطراف العالم الإسلامى، أما المشرق العربى فله نظرة مغايرة، ومازالت ذكريات جمال باشا السفاح حية وشاخصة.

وقد خضع المشرق العربى للدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى وبخاصة الشام والعراق، وفيهما تصادمت القوميتان الناشئتان التركية والعربية اصطداما أدى إلى توتر العلاقات بينهما..

أما الدول العربية التي خضعت للاستعمار الغربي منذ القرن التاسع عشر مثل مصر والسودان والمغرب العربي، فكانت في صراع ضد الغرب الاستعماري، وتعاطف الكثير من قيادتها مع الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة..

فإذا كان الكواكبي السوري قد دعا إلى انتقال الخلافة من الأتراك إلى العرب، فقد تمسك الزعيم المصري مصطفى كامل بالخلافة، وذرف الشاعر أحمد شوقي الدمع عليها.

المشرق والمغرب

واتصل الجدل طويلا حول الدولة العثمانية بين المشرق والمغرب.

ويقول المغاربة: الدولة العثمانية هي التي وحدت ودافعت عن العالمين العربي والإسلامي، واتسعت لتصل مساحتها إلى ما يزيد على أربعة عشر مليون كيلو متر مربع، وكانت الدولة الوحيدة في العصور الوسطى التي اعترفت رسميا بالأديان الثلاثة وأوجدت بينها تعايشا وانسجاما.

ويقول المشارقة: أدت الدولة العثمانية إلى تدهور الأوضاع في البلدان العربية فهذه المساحة كانت تحتاج إلى الطرق الممهدة ووسائل الاتصال السريعة، وكان انتشار الفساد في أرجائها مدمرا، والذي وصل إلى الولاة ذاتهم، وكثيرا ما يقتل السلطان إخوته للتخلص من أي مطامع في العرش، هذا ما فعله السلطان مراد الثالث «١٥٦٦ - ١٥٩٥م» الذي قتل إخوته الخمسة، وهكذا فعل بعده السلطان محمد

الثالث «١٥٩٥ - ١٦٠٣م» والذى أمر بشنق تسعة عشر أخا بطريقة سلطانية استخدم فيها خيوطا من حرير..

وفى النهاية أصبحت الدولة العثمانية مرتعا لنفوذ الدول الأوروبية تمنحها الامتيازات فى الولايات العربية، مما جعل الرعايا الأوروبيين، طليعة الدخول الاستعمارى، يفرضون هيمنتهم على التجارة فى الولايات العثمانية.

وقد خلقت الظروف المتباينة بين المشرق والمغرب مواقف متباينة، وعملت على نمو حركات وعقائد متضاربة فى شطرى العالم العربى.

ولعل نقطة التحول الرئيسية تجاه العرب حدثت عندما اتجهت الدولة العثمانية من التوسع غربا إلى التوسع شرقاً فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى، ونلاحظ مع الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه، «البلاد العربية و الدولة العثمانية» أنه فى مدة لاتتجاوز ٤٠ سنة استولت هذه الدولة على معظم البلاد الغربية، ولم يبق خارج سلطتها سوى المغرب الأقصى وقلب الجزيرة العربية، وانتقلت عاصمة الإسلام إلى خارج البلاد العربية.

وبهذا استولت على المحور الرئيسى للعالم العربى والإسلامى وهو الشام ومصر والحجاز التى شهدت عواصم الإسلام القديمة.

وقام عدد من المؤرخين العرب يردون بأسلوب علمى قائم على الوثيقة التاريخية، والواقعة الثابتة والحقائق المؤكدة، ومن هؤلاء، عبد

العزيز الشناوى الذى وضع موسوعة تاريخية من أربعة أجزاء.. وجاء في مقدمتها.. «على مبلغ علمى لم تتعرض دولة فى العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما الاستعمار الأوروبى والصهيونية، واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث والتصريحات الرسمية، ومن مجموعات الوثائق التى نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالاً رحيبا لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملاً عليها وقد ردد بعض المؤرخين تلك الآراء الخاطئة والظالمة فى مؤلفاتهم واستقرت فى أذهان الأجيال المتعاقبة..

وتناسوا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا دولية جسيمة كانت تهدد العالم العربى بأفدح الأخطار، وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية، وتسللهم إلى شرق الجزيرة العربية، واستيلاؤهم على مواقع عسكرية مهمة، ومحاولاتهم دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبى للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة، ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة»..

ويورد أن ريتشارد نولر مؤرخ عصر الملكة إليزابيث «١٥٥٨ - ١٦٠٣م» وصف الشعور الأوروبى تجاه الدولة العثمانية بقوله..«إن الإمبراطورية العثمانية هى مصدر الرعب فى العالم..»

وجاء ت شكاوى العرب من الدولة العثمانية، خلال فترة أفولها عندما أرادت أن تفرض اللغة التركية على الولايات العربية الإسلامية.

وعندما تحولت من أن تكون مظلة حامية لتصبح أداة للنفوذ الاستعماري، وفى ظل الدولة العثمانية استولت فرنسا على تونس سنة ١٨٨١ واستولت بريطانيا على مصر سنة ١٨٨٢ واستولت إيطاليا على طرابلس.

وكثيراً ما وقفت الدولة العثمانية ضد الآمال الوطنية العربية، فبعد قيام الثورة العرابية فى مصر، خذلت الدولة العثمانية عرابى، وصدر فرمان يعتبره عاصيا، بدلا من الوقوف إلى جواره ضد المعتدين.

وفى مطلع القرن العشرين اعتمد مصطفى كامل على الخلافة فى مواجهة الاحتلال البريطانى، فألغى كمال أتاتورك الخلافة وخذل الحركة الوطنية!

البداية والنهاية

منذ قيامها وهى فى صدام مع الغرب.. من يوم اقتحام حماة الثغور من العثمانيين المسرح مندفعين من سهوب آسيا، بعد أن تجمدت الفتوحات الاسلامية عند جبال طوروس، عندما كان اندفاعهم رد فعل للهجوم البرتغالى والأسبانى، على الأطراف الجنوبية والغربية من الدول العربية.

ونجح العثمانيون فى إيقاف التهديد والحفاظ على البحرين الأسود والأحمر وواصلوا بنجاح حفاظهم على مقومات المجتمعات الشرقية ووحدتها.

وظلت هذه الدولة من بدء الخلافة العثمانية عام ١٥١٧م وحتى نهايتها عام ١٩٢٤م، إحدى العقبات الرئيسية أمام أوروبا، وعند ضعفها أصبحت المسألة الشرقية ضاغطة على السياسات الأوروبية ثم قامت المنافسة الحادة بين الدول الأوروبية على وراثة «رجل أوروبا المريض»، بعد أن بقيت طويلا أقوى وأنجح مقاومة للحضارة الغربية مقارنة بأية حضارة أخرى..

وكانت الدولة العثمانية آخر وأطول الدول الإسلامية العالمية التى قادت الشرق منذ أيام الخلفاء الراشدين، وكان الولاء فى هذه الدولة للإسلام والشرق وتناغم داخلها القوميات المختلفة، وقدم العرب لها نظاما اجتماعيا مستمدا من الشريعة.

ويتحرك البندول ويدور الزمن، ويبدأ الانحدار عندما أصيبت هذه الدولة بهزائم فى ميدان القتال، وبدأت تفقد أراضيها، وبدأ ذلك الفشل من حصار فيينا الثانى عام ١٦٨٣م واستمر التراجع طيلة القرن الثامن عشر، واستولى الروس على الساحل الشمالى والشرقى للبحر الأسود.

فى ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يبنى نهضته، وتنتصر داخله القوى الحديثة وتُهزم القوى المحافظة، وشهدت الدول الأوروبية الثورة الصناعية والتغيرات المتلاحقة فى نظمها السياسية والاقتصادية.

واستقر لديها الاحتكام إلى العقل، وما نتج عن ذلك من ثورات علمية وفكرية، إلا أن العثمانيين الذين ورثوا الصراع بين الشرق والغرب آثروا أن يحموا أراضيهم من الخطر الأوروبى عن طريق العزلة عن أوروبا، فى الوقت الذى ابتعد فيه الأوروبيون عن الاحتكاك بالشرق عندما تحولت طرق التجارة إلى المحيطات ورأس الرجاء الصالح من أجل تطويق دار الاسلام.

وأمعنت هذه العزلة فى جمود الشرق، وتركت السيطرة للبرتغاليين والهولنديين والأسبان ثم الانجليز على البحار المفتوحة، لذا تتحمل الدولة العثمانية مسئولية ضعف وجمود الحياة الفكرية فى الشرق، وشيوع النقل وروح المحافظة، وانكماش روح الابتكار والإبداع والخلق، وزحف التصوف والانسحاب من الحياة وتدهور الفكر وتحوله من فلسفة إلى دروشة..!

وشن الغرب هجوما جديدا على جبهة واسعة تمتد من الغرب حتى فلسطين، والغرب هنا ليس تعبيرا جغرافيا، بل كيانا متحركا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا وعسكريا.

وبعد الهزائم عادة تفقد الحضارة المهزومة الثقة بقدراتها وتتطلع إلى ما بين أيدى المنتصر، فتطلع الجيش العثمانى إلى الأساليب

الغربية فى التدريب والتسليح، وقبل شبابها أن يكون موجهوهم ومعلموهم من الغربيين، وإذا كان التفاعل بين الحضارات ضروريا لاستمرار نموها، وأنه لا حائل دون تبادل التأثير مثلما يستحيل منع انتقال السائل فى الأوانى المستطرقة، إلا أن هذه التفاعلات جاءت فى مرحلة من الضياع والفوضى، مما أدى إلى تخلخل ركائز الدولة العثمانية.

ومع الهزائم المتتالية وبينما الأتراك يشاهدون الدولة العثمانية تتآكل، أخذوا يبحثون فى تاريخهم، ووجدوا ملاذهم فى الحركة القومية الطورانية، وهى ذات الفترة التى شهدت نمو الحركات القومية فى أوروبا، وشهد الأدب بدايات هذه الحركة فبدلا من النماذج الفارسية والعربية انتعش الأدب التركى بتأثيرات أوروبية، ويذكر برنارد لويس أن الشعور القومى بدأ بقصص الأطفال التى تمجد الأبطال الأتراك، وتعيد رواية الأساطير التركية القديمة، وراجت دراسات المستشرقين التى تؤكد أن الأتراك من العرق الأبيض، وينتمون إلى السلالة الطورانية الآرية.

ونشأ انتماء جديد وقومية كانت منسية، وخرجت القومية التركية من ركام إمبراطورية منهارة، ووجد فيها الأتراك ملاذهم الأخير.

ولا شك أن سياسات الدولة العثمانية فى مرحلة انهيارها، تمثل عجزا فاضحا فى مواجهة التحديات الدولية، فلم تكن هذه السياسات اختيارا نابعا من محصلة تياراتها الفكرية..

ومما يلفت النظر أنه قبل الحرب العالمية الأولى لم تظل دولة من دول العالم القديم تحافظ على استقلالها سوى تركيا وإيران والصين واثيوبيا، واستطاعت تركيا وحدها عقب هذه الحرب أن تحافظ على استقلالها بينما فقدته كل من إيران والصين واثيوبيا.

وكان الثمن الذى دفعته للحفاظ على استقلالها هو قطع روابطها بالشرق واستبدال القبعة بالعمامة واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وكان بطل هذا الفصل الأخير فى هذه الدراما التاريخية، هو مصطفى كمال الذى فى عهده أعطت تركيا ظهرها للشرق واتجهت للغرب، تستلهم قيمه وتتبع خطاه وتحتذى نموذجه وتشترك فى أخلاقه..!

وتمكنت تركيا من استعادة سيادتها على أراضيها فى مقابل الإذعان للشروط الغربية. هذا بعد الانتصار الذى حققته قوات مصطفى كمال على اليونان عندما بدأت أعمالها الحربية فى آسيا الصغرى، وبعد أن سلم مصطفى كمال بحق الدول المنتصرة فى الحرب فى أن تتصرف فى الأقاليم غير التركية، وقدم نموذجا لما يسمى بالواقعية السياسية.

وكان لزاما على تركيا الحديثة أن تتخلى عن ارتباطها بالخلافة، ودفع مصطفى كمال ثمن إنقاذ ما تبقى وتحولت إلى قلعة متقدمة للغرب فى مواجهة الاتحاد السوفييتى.

وتقدم الدولة العثمانية درسا بليغا عن كيف يمكن أن تتغير الأفكار والمبادئ بل والعقائد بتغير موازين القوى، وأن من يريد المحافظة على عقائده لابد أن يحافظ على قوته.

رقم الايداع
٩٧٩٤/ ٩٩
I.S.B.N
977-07-0668-X

الفهرس